

# عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧

- التحول السياسي من الشيوعية إلى الليبرالية
- مالرو - سنجور وحضارة الإنسان
- الفعل الثوري في رواية الامكن
- اندريه مالرو: قدير الانسان



# عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني  
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت \* أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧  
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

## المحتويات

### التراث

٣	..... بقلم التحرير	التمهيد
١٣	..... الدكتور فحى شيخه	التحول السياسى من الشيوعية الى الديجولية
٤١	..... الدكتور جوزين جودت عثمان	مالرو - منجور وحضارة الانسان
٩٩	..... سلوى مطر	العقل الثورى فى رواية الامل
١٢٩	..... الدكتور هزة هيكل	اندرية مالرو « قهر الانسان »

\*\*\*

### آفاق المعرفة

١٦٣	..... الدكتور عبد العزيز أمين	من وحي العلوم
-----	-------------------------------	---------------

\*\*\*

### أدباء وفنانون

١٩٥	..... دكتور حلمى مرزوق	جوانب غير مطروقة من شعر شوقي
-----	------------------------	------------------------------

\*\*\*

### عرض الكتب

٢١٥	..... عرض وتحليل الدكتور علية حسن حسين	ربة البيت
٢٣٣	..... عرض وتحليل الدكتور سامية حسن الساعاتى	سوسيولوجيا العمل المنزلي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

## اندريه مالرو

تمهيد

جيد : لا يوجد افياء او بلهات في كتبك .  
مالرو : اننى لا اكتب لكي اير الملل في النفس ، اما عن  
البلهات فهناك الكثيرون جدا منهم في الحياة الواقعية .  
( عام ١٩٣٨ )

حين التقى اندريه مالرو لأول مرة بالجنرال ديغول عام ١٩٤٣ بادره ديغول بقوله : « الماضي  
أولا » . وكان ذلك في رأى مالرو مدخلا غريبا لثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه أجاب مع ذلك : -

« الامر بسيط . . لقد خضت معركة ، ولنقل انها من أجل العدالة الاجتماعية ، أو اذا  
أردنا مزيدا من الدقة من أجل ان نعطي الناس فرصتهم . . . كنت رئيسا مع رومان رولان  
للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر - الذى لم يستقبلنا - الاحتجاج  
على قضية ديمتروف والدين اهتموا كدبا بحرق الرايخستاغ . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت  
لأقاتل هناك . . ليس في الفرق والألوية الدولية التي لم تكن قد تكونت بعد . . . اذ كان الحزب  
الشيوعي لا يزال يفكر في الامر . . . ثم كانت الحرب الحقيقية ( الحرب العالمية الثانية ) وأخيرا  
جاءت الهزيمة . . . ومثل الكثيرين غيرى اخترت فرنسا . . . عندما عدت الى باريس سألنى  
البير كامى : هل سنضطر يوما الى أن نختار بين روسيا وأمريكا ؟ . . . لم يكن الاختيار في نظرى  
بين روسيا وأمريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها  
لوجه أمام روسيا القادرة القوية . لم أعد أو من بحرف مما كنت أو من به حينما كانت فرنسا  
القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتى الضعيف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية... لقد قال ستالين أمامي « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ، أما الآن فالثورة الأوروبية تنتظر الجيش الأحمر » . لست أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الأحمر ، ولا أؤمن بالعودة الى عام ١٩٣٨ » .

« وفي مجال التاريخ ، فإن الواقع الرئيسي الأول الذي ساد السنوات العشرين الأخيرة هو في نظري ، أولية الأمة ، وهو شيء يختلف تماما عن الوطنية . فهو لا ينبني على التفوق ولكن على الخواص المميزة » ( اندريه مالرو - لا مذكرات - الجزء الأول - الترجمة العربية مع بعض التصرف ) .

هذه الفقرة الطويلة المعبرة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحي الهامة في حياته وتفكيره ومواقفه ونظريته الى الحياة والانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيته الفذة التي تجمع بين حب المفامرة بحيث ملأت حياته ورواياته ، وحب فرنسا الذي أملى عليه أن ينخرط في سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وأن يقف موقف العداء من الشيوعية بعد أن كان ضالعا معها ، وأن يقارن في مواقف كثيرة بين ( الوجود الفرنسي ) و ( الوجود السوفيتي ) الذي يحاول أن يطمسه في المستعمرات ودول العالم الثالث ولكن دون جدوى ، بل أن حبه لفرنسا كان يملأ عليه أن يقارن دائما بين مبادئ الثورة الفرنسية والثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية . سبق أن التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلك بهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطمسه . ان الآلة تصطنع للبلاد الحديثة النمو عملا مهرة أكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة المعلنة من اجل العدالة ، من سان جوست الى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوجو ، هذه الدعوة تحتفظ بتأثير يصارع الماركسية على اقل تقدير . وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا كانت لفتها لا تزال فرنسية . لقد رايت في برشلونة أيام الحرب الاهلية اكواما من كتاب ( البؤساء ) بين ( باكوئين ) وكتابات تولستوى النظرية ( لا مذكرات ) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدى حب مالرو للحرية وإيمانه بالانسانية الذي يجب أن يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومن اجل الانسان والحرية تطوع مالرو في عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذا كله بغير شك ابعادا جديدة في نظرته الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .



والشيء الذي يلفت النظر حقا هو انه على الرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذي لعبه في الادب والفن والسياسة بحيث أصبح يعتبر واحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا في سير الثقافة المعاصرة ، فإن هناك كثيرا من نواحي حياته - وبخاصة حياته المبكرة - لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كان يحب أن يحيط نفسه بالفموض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعض الاحداث التي تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون أنهم على بعض الصلة الوثيقة به لا يعرفون في الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسية عن مولده عام ١٩٠١ في إحدى العائلات البرجوازية



في باريس ، وعن ميله في ايام الصبا والشباب الى الترف وحب الظهور والتباهي في اول الامر الى ان اصطدم بوقائع الحياة القاسية المريرة في الهند الصينية حين ذهب الى كمبوديا للتنقيب عن الآثار والبحث عن كنوزها فوجد نفسه غارقا الى اذنيه في مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التي تعرض لها في السنوات الاخيرة من حياته وبالذات منذ اوائل الستينات ، حين قتل ولده الصغيران في حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٩ قبل أن يتحقق ما تعاهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالاضافة الى ادمانه الخمر والمخدرات على الاقل في فترات محددة من حياته ، الى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه امور يمكن ان تضاف الى رصيده الهائل من التجارب في الحياة التي انعكست في كتاباته ، بحيث نجد احد النقاد يقول ان اهم واروع اعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتي تبدو متناقضة لاول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردها الى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك عن طريق دراسة انتاج مالرو وتصنيف اعماله الى ( اتجاهات ) رئيسية ، والزعم بان كل اتجاه من هذه الاتجاهات يميز مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على انه كان مغامرا اول الامر ، وحين سُمّ المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب روائيا ومفكرا ادبيا ، وحين فكر في التقاعد عن ممارسة هذا اللون من النشاط تحول الى ( عالم الفن ) فاصبح ناقدا فنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من السداجة الناجمة عن المبالغة في التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان في الثامنة عشرة من عمره ولم يفادره قط على ما يقول ارمان هوج Armand Hoog . فلقد احب مالرو وهو في تلك السن الفن الشرقي ، وحضر محاضرات عنه في مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه في متحف جيميه Musee Guimete ومع انه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبي والسياسي والثقافي فان هوج يحب ان يجعل مهنته الحقيقية — او على الاقل المهنة التي تمسك بها طيلة حياته — هي نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تعكس نظرات عميقة في الفن .

ولقد راس مالرو بعثة اثرية الى الهند الصينية وهو في الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحرر من الاستعمار الفرنسي دفع الحكومة الى تليفيق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا ان انبرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال اندريه جيد واندريه مورا واندريه بريتون ولوى اراجون ، مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهرته حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذي اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول في ذلك في كتابه ( لا مذكرات ) : « لقد التقيت في مصر بالآراء التي ظلت لعدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى في الفن . . ولد اولها من أبى الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال . . ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التي اخذت تستحيل الى مواقع اثرية » وظل ارتباطه قويا بمصر وآثارها الى ان أسهم في الحملة لانقاذ معابد النوبة « مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التي القيتها من اجل انقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورا فوتوغرافية كثيرة للأعمال الجارية . . انا اذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون انهيار الجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تتغير منذ الوقت الذي اخذ فيه فلوبير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعى كوتشيك هانم، كان منبهرا باسمها، قدر انبهاره باسم ملكة سبأ، ومعناه على ما اظن: السيدة الصغيرة .. وجذبت مملكة سبأ فقام برحلة مليئة بالاطار اليها - « كيف ادخلت في رأسى منذ ثلاثين سنة ان اعثر على عاصمة مملكة سبأ، كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها .. فيم كانت ولا تزال شاعرية سبأ؟ الملكة بلقيس؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة، وقد جاءتها من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. ( الخ ) .. مملكتها تنتمى الى الحضارات الضائعة » .. وحين تولى وزارة الثقافة في فرنسا حقق انجازات هائلة في الفن ونشر الثقافة الفنية وانقاذ كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنية والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس، واشرف على ترميم قصر فرساي الشهير، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة في اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن - كما يقول في كتابه الضخم « اصوات الصمت » بان الفن هو بمثابة الدين، وان كل فن انما هو ثورة ضد قدر الانسان ومصيره ونوع من الثأر من العالم المعادي، وان الفن الاوروبى ليس يعد كل شئ سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « اننا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه عبارة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره - او الوضع الانساني على العموم - كما تظهر في كتابات مالرو . وتتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هي التي تجعل من مالرو في حقيقة الامر ليس مجرد روائي او دارس للفن، وانما تجعل منه في الوقت ذاته مؤرخا وباحثا في الحضارات والثقافات وبخاصة الحضارات القديمة، والى حد ما الثقافات (البدائية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصبغة انثربولوجية واضحة، وتجعل منها مصدرا للمعلومات الانثروبولوجية الموضوعية في قالب قصصى جذاب . ورغم اعجابه بانجازات الحضارة الحديثة فانه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل، تماما مثلما يعتبر الفن الاوروبى مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابه عرف الشرق شبيها بعربى عجوز يسير على حماره بينما يغط العالم الاسلامى في نومه الذي لا يقهر، فقد اصبح المثلث الف من سكان القاهرة اربعة ملايين، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقار التي كان فلاحوها البابليون يصطادون بها، وتاهت ابواب طهران المطعمة بالسيفساء في غمار المدينة كما تاهت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التي اطلقوا عليها اسم الفطريات ( والتي تتسع وتنتشر وتتشعب في كل مكان )، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . ( لا مذكرات ) .

وبقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التي اندثرت ( وان تكن خلفت وراءها معالم حية تتمثل في آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة لحضارات مصر القديمة ) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية في المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يمزج في كتاباته بين الماضي والحاضر .. حضارة مصر القديمة، وما يمثلها ابو الهول بحاضر مصر وما يمثلها انقاذ معابد

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومناهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم فى رواياته عن تجربته فى الشرق الاقصى حيث اندمج فى احداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **ادمووند ولسون** Edmund Wilson يقول فى عام ١٩٣٤ ان مالرو اسقط المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من اجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالدات فى رواية «**الغزاة**» Les Conquerants التى تدور حول احداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الاحداث بطريقة تدل على فهم ومعرفة وثيقة بها وبالقوى المتعارضة فى الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» «انهم يسمون هذا الكتاب رواية» ، ولكن الذى اراه امامى فى واقع الامر هو سجل تاريخى موضوع فى قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الاولى المعروفة باسم مرحلة كانتون .

والمهم هنا هو ان ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، او بقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتى تكشف فى مالرو عن روح المغامر الاثنولوجى او الانثروبولوجى الى جانب روح المغامر الاركيولوجى انما تعكس فى آخر الامر الرغبة العميقة الصادقة فى فهم طبيعة الانسان ووضعه فى هذا الكون .



ولقد خضع مالرو لفترة من حياته ، وبخاصة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتأثير عالم الانثروبولوجيا الشهير ليو فروبنويس Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت فى كل انحاء العالم فى ذلك الحين . والمعروف ان فروبنويس الذى ولد عام ١٨٧٣ كان قد بدا عددا من الرحلات فى افريقيا - وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكاميرون الالمانية - امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجية ، ووجدت كتاباته صدى عميقا فى الاوساط العلمية واوساط المثقفين فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى . وقد ترجم كتاب فروبنويس عن **تاريخ الحضارة الافريقية** فى نهاية الحرب العالمية الى اللغة الفرنسية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن الثحت الزنجى . ومن هنا دخل مالرو الى هذا العالم ( البدائى ) بشعوبه وثقافته وافكاره واساطيره وطقوسه وتعاليمه القريبة عن الثقافة الاوروبية ، والتى تكشف على اى حال عن جوانب جديدة من الطبيعة الانسانية . وقد زاد ذلك من شغف مالرو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة والكشف والمزيد من المعرفة .

ولقد شغل مالرو نفسه ببعض الافكار التى شغل بها فروبنويس من قبل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنويس قد اثارها حول :هل لفكرة الانسان اى معنى على الاطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الاجابة عليه ، وتراوحت اجاباتهم بين الذين يرون ان الانسان ليس الا نتاجا للظروف الايكولوجية والاقتصادية والثقافية اى انه محصلة لعوامل وضرورات خارجية ، والذين يرون ان الانسان هو ما يفعل او ما يصنع كما ورد على لسان احدى شخصيات مالرو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون او يريدونه منه . فالانسان وليد ارادته ، وهى فكرة آمن بها مالرو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس واعجابه بهم

وارتباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « اشجار الجوز في التنبرج » وان لم تخل منها كتاباته الاخرى التي تمجد اعلاء الارادة الانسانية على كل العوامل والقوى الخارجية التي لا يمكن انكار الدور الذي تلعبه - رغم ذلك في تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التي يبدو انها كانت تشغل بال مالرو في كل ما كتب هي - كما يقول هو نفسه - كيف يمكنه ان يساعد الانسان على ان يدرك ان في استطاعته - وبدون ان يستعين بالدين - ان يبني عظمته على ذلك العدم الذي يكاد يسحقه . . وفي « اشجار الجوز في التنبرج » التي ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار ان نموت ، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آبائنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان ثمة هوة واسعة عميقة . . تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . وحين اقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فأننى اعنى انه يحمل في داخله شعورا عميقا - مأساويا في بعض اللحظات ان لم يكن في كل الاحيان - بعوقف اللامبالاة الذي يقفه العالم منه » .

والواقع ان مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته انها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة في ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية عن طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وايضا بالمبادئ الانسانية والاخلاقية الراقية العميقة عن الانسان ووحده - تلك الوحدة المفروضة عليه والتي لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهفة الانسان الغريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يضحي بحياته في سبيل تلك المبادئ والقيم التي يعتنقها، فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائي للبقاء « الحقيقي » او الحياة « الحقيقية » .



في بحثه عن ماهية الطبيعة الانسانية ومحاولته الوصول الى فهم اعقق للسلوك الانساني اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحي العظمة ومظاهر النبل والسمو والتعالى في السلوك ، باعتبارها اهم الملامح التي يجب ان تتوفر في الشخصية الانسانية التي تركز على الارادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان في صنع نفسه والتحكم في مصيره وقدره . فهذه الملامح هي التي تتوفر في الانسان الذي يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذي يشعر شعورا عميقا بان له في هذه الحياة رسالة يتعين عليه ان يحملها ويؤديها وينفذها ايا ما يكون ثمن ذلك . . ثم هو الانسان الذي يتمسك بشدة وقوة وإيمان بوطنه ، ويعتز به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة كتلك التي كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والامان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نبذ مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم ( بيرجين ) وأنه التقى بشارل ديغول قرب نهاية الحرب، ثم تحول بعد ذلك الى الديجولية المحافظة ، وهي حركة قوبلت بكثير من الامتناع والنقد والهجوم من المثقفين والمفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانتهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تزوجت فرنسا » . وفي الالامذكرات جملة عميقة الى ابعد حدود العمق وردت على لسان بيرجيه ( مالرو ) مخاطبا صاحبة الفندق الفرنسية حين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وأبدت نحوه قليلا من العطف بعد ان وقع في ايدي الالمان ايام المقاومة . . « اشكرك يا سيدتي ؟ لقد كنت رائعة . . كنت تشبهين فرنسا . » ثم هو يقول في موضع آخر : « ان ما يهمنى في اى انسان هو الحال الانسانية » . ويهمنى في الانسان العظيم وسائل عظمتة وطبيعته ، وفي القديس طابع قداسه ، وبعض الملامح التى تعبر عن صلة خاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردى .

ومن الطريف ان عددا من النقاد لاحظوا ان روايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقا ، لان الشر الحقيقى العميق المتاصل يتنافى مع العظمة والسمو والنبيل والتعالى ، ولا يمكن ان يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو في كتاباته ، والذين يكرسون انفسهم لصنع التاريخ وتغيير الوضع المولم للانسان ، والذين يتميزون بالبطولة والعطاء والتضحية ويقفون من القضايا الانسانية موقفا ايجابيا بحيث يحملون عن غيرهم اعباء الحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمأنينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثالاو نهرو . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عن الرضا بالواقع . انه الهدوء الذى ينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ، والامل في حياة اكثر اشراقا واكثر ابتساما ، والعمل من اجل ذلك .

وتتجلى هذه العظمة في كثير من الافعال والانجازات التى حققها اشخاص معينون يتميزون بالارادة الصانعة الخاصة . ويستشهد مالرو على ذلك بما كتبه سكوت Scott مثلا ، وهو يموت في القطب الجنوبي « لقد فعلت ذلك لكى ادلك على ما يمكن للرجل الانجليزى ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذين ذلوا طريق خبير الذى يعتبره مالرو احد الرموز او العلاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بانه ( طريق ملحمى ) ويصف الذين ذلوه بانهم لم يموتوا وانما حفروا حقا وعن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقد كان ذلك المر ميدانا لكثير من المعارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوانب من الهملايا على الطواوير الانجليزية فيبيدوننها ، ولم ينج من الابادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطابور ؟ اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطابور » . فهذه اذن انماط من الشجاعة والبطولة والتحدى والعظمة تهرز النفس ، وتعتبر في نظر مالرو المعيار الحقيقى الذى يجب ان يقاس به الانسان العظيم .



ولكن هذه العظمة تتجلى بافضل واعلى صورها في اثنين من السياسة وكبار قادة الامم في العصر الحديث ، اولهما هو نهرو ، والثانى ، وربما كان في نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو دييجول .

لقد هزه من نهرو هدوءه وسكينته وموهبته في اسكات ما يسميه مالرو « قطع البشر » حين ظهر اليهم نهرو بشخصيته القوية المتفردة الهادئة . ولكن لعل اكثر ما اعجبه فيه هو ما يسميه ايضا « ميزة الانسان » ، لان الموهبة وحدها ليست كافية . ولقد ذكر له نهرو انه لا يزال مؤمنا بما سبق ان كتبه في الماضى . « قيل ان العمل اللاعنيف خرافة ، ولكنه كان هنا ( في الهند ) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسى . ولكل عمل سىء نتائج سيئة . . حتى فى السياسة . . وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارعنى صحته أى قانون فيزيائى او كيميائى » . ثم قال اثناء الحديث : - « كنت اذكر راماكريشنا وقوله ( لا يمكن ان يظهر الله حيث تكون الكراهية او العار او الخوف ) ، ولكننى اذكر ايضا غاندى وقوله ( افضل للانسان ان يناضل من ان يخاف ) » . فروح النضال كانت تكمن وراء اللاعنف ، واللاعنف لا يعنى ابدا السلبية او الاستسلام . . ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة اليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من المناضلين ، وانما كان غاية . . ويذكر مالرو انه اثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصططحبه نهرو عن طريق سلم حلزونى مع بعض كبار المدعويين الى مسرح صغير اقيم تحت الارض . . « وبعد ان جلسنا مال نحوى وقال ( كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة اليها غاية . وكلما القى القبض على واحد منا كان غاندى يبرق اليها مهنئا . وفى تلك الايام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجن و احيانا فوق اعواد المشائى ، ولا تطلب ابدا فى المجالس والمحاكم او المدارس ) » - لا مذكرات .

الا ان الشخصية التى يبدو انها فاقت فى نظره فى عظمتها وقوتها وجبروتها أى شخصية اخرى عرفها مالرو عن قرب كانت هى شخصية الجنرال ديجول . . . رجل الفعل ، الذى يهب نفسه للقضية التى يؤمن بها .

وكانت هبة ديجول او عظمته تبدى بوجه خاص من تلك المسافة التى يشعر بها الناس دائما وهو بينهم حتى وهو يتلطف معهم ، وهى نوع من المسافة الفريدة التى لا تظهر بين ديجول وغيره ممن يحدثونه فحسب . بل انها تظهر ايضا بين قوله وشخصيته ، وهى اشبه شيء بالمسافة التى يشعر بها المرء امام العقول الدينية الكبيرة التى تبدو كلمات اصحابها العادية وكان لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . الا ان هذه المسافة لا تعنى عدم وجود اتصال قوى بين ديجول ومن يحدثه ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . اى ان ثمة اتصالا قويا رغم الشعور بهذه المسافة او ذلك البعد ، وهذا فى رأى مالرو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فديجول يفرض على الانسان الاحساس بشخصيته الشاملة ، ومع انه كان دائما سييدا مهذبا فى معاملة الآخرين - حسب تعبير مالرو - فان المرء كان يشعر دائما انه فى وضع الشخص الذى يتعين عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رأيت جنرا لا يحب الافكار ويحييها فى الطريق تحية لاتكاد تحس . . . كل امرئ يشعر امامه بالمسؤولية لانه كان يتحمل المسؤولية فى مصير فرنسا . . . هذا المصير الذى استولى عليه وملا حياته وفكره وكان لزاما عليه ان يكتشفه ويؤكد » . ( لا مذكرات ) .

ويقارن مالرو فى **الامذكرات** بين ديجول ونابليون ليبين ما يقصد اليه فيقول : « ما ان يخلع الامبراطور دوره ، بل وفى بعض الاحيان . وهو يتقص هذا الدور - حتى يظهر نابليون السريع الفضب او المثل ، زوج جوزفين ومدبر المقلب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . اما الجنرال ديجول فى حياته الخاصة ليس عند معاونيه بالرجل الذى يتكلم فى الشئون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذى لا يتحدث فى شئون الدولة . . . لا يرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوانى عن ضبطها . وكان يتقبل عن طيب خاطر فى اثناء الحفلات او فى المناسبات التى يختارها

بنفسه ان يخوض فى حديث سطحى ، ولكن ذلك لا يعدو ما تمليه عليه الكياسة التى لاتنفصل عن شخصه ... نابليون قد انزع جاراته ، اما الجنرال فهو فى رأى جاراته متباعد وجذاب ( جذاب معناها يحسن الاصغاء ) لان هذا الرجل حتى وهو يحدث عن اطفالهن لا يزال هو الجنرال ديجول ... » . بل ان مالرو يذهب الى ابعدهم ذلك للتدليل على قوة شخصية ديجول كرجل أفعال حين يعزو اليه أنه هو وحده الذى كان قادرا على انتشار فرنسا من وهدتها ومن الاضطراب السياسى والتخبط الذى وجدت نفسها فيه ، وانه كان يريد حقيقة - ووحده - ان يقف فى وجه الدول الشيوعية بفرنسا أخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بان الناس لم يكونوا يعرفونه ، وبخاصة فى المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة اكثر مما يمتلك من الشعبية » .



فى الصفحة الاخيرة من رواية « قسرا الانسان » يقول جيسور موجه حديثه الى ماى : « انت تعرفين هذه العبارة ( لابد من تسعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله ) . وقد عرفنا - انا وانت - مانتطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن ان تعرف ... ماى ، اسمعى : ان الامر لا يحتاج الى تسعة أشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لتصنع انسانا ... خمسين عاما من التضحيات .. ومن الارادة .. ومن ... أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لا يعود فيه شيء من الطفولة او المراهقة .. وحين يصبح رجلا حقا - لا يصلح عندئذ الا لأن يموت » . ( ترجمة فؤاد كامل ) . وحين نضج مالرو واكتملت رجولته وتفكيره وكتاباته ، جاءه الموت فى نوفمبر ١٩٧٦ ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره .

وفى روايته « الطريق الملكى » La Voie Royale يقول مالرو على لسان احدى شخصياته « ان ما يثقل على هو - كيف استطيع ان أقوله ؟ - قدرى الانسانى ، وقصورى وحدودى الضيقة ، وانه لابد لى من ان تتقدم بى السن واشيخ ، وان الزمن - ذلك الشيء الكريه - لابد من ان ينتشر فى كيانى انتشار السرطان » - وقد انتشر السرطان بالفعل فى رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء فى مالرو وأدبه وفننه وتفكيره بالذات فى مواقف السياسية أثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم اجمع بفداحة الخسارة حين مات ، وخرج مفكرو فرنسا وأدباؤها وفلاسفتها جميعا لتحية البطل الذى مات ، وشاركهم فى ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا عن بعض تقاليد العريقة لتحيته حين اطلقت اسمه على المسرح الفرنسى الذى يقع امام مسرح الكوميدي فرانسيز الشهير ، وهو اجراء لم يسبق له مثيل فى الاغلب ، حيث تقضى التقاليد ان يمر خمسة اعوام على الاقل على موت أى شخص قبل ان يطلق اسمه على أى مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا وللغفكر وللثقافة مجرد « أى شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو اثناء حياته ومنذ مات في العام الماضي . والدراسات الاربعة التي نقدمها هنا قام بها ن لأول مرة في تاريخ هذه المجلدة - اربع سيدات من المتخصصات في الأدب الفرنسي الحديث ، وهذا آسهام جدي وجديد يضاف الى تلك الكتابات العميقة التي ظهرت في مختلف انحاء العالم حول الاديب الثائر المغامر الفنان السياسي اندريه مالرو . وهي تحية من المفكرين والمثقفين العرب الى أحد رجال الفكر والثقافة العالميين الذي اتيح له ان يعرف عن قرب بعض ملامح الحضارة العربية في بعض مراحل تاريخها القديم او الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .

★ ★ ★



ضحى عبدالعزیز شیخہ

## اندريه مالرو التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية

ان الطريق السياسي الذي سلكه اندريه مالرو لم يكن طريقا سويا ، ولم يظل في اتجاه واحد ، فالرجل الذي كان يعيل للعقيدة الشيوعية في الثلاثينات من هذا القرن لم يلبث أن أصبح من اكبر معارضي ، بل ومحاربي الشيوعية في وزارة الجنرال ديغول . هذا التحول الضخم لا يدل بأى حال من الاحوال على ضعف أو تهاون من قبل الكاتب الاديب بل ياتى في اطار مرحلة تطور ونضج اعمق واكبر .

لقد كان من رأى اندريه مالرو ان الوفاء المتحجر لا يمكن أن يعتبر دليلا من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو الذي كان قد كتب في مؤلفه مذكرات احد ثوار ١٨٣٠ : « انه لثناء باطل أن يقال عن رجل ان اعتقاده السياسي لم يتغير منذ اربعين عاما فهذا يعنى ان حياته كانت خالية من التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكرى في الاحداث . انه كمثل الثناء على الماء لركوده ، وعلى الشجرة لموتها (١) » .

لقد كان لمالرو مكان ومواقف في كل منعطفات هذا القرن ، فقد اشترك في الاحداث التى كانت نتائجها المرجوة لاحداث تغييرات هامة في مصائر الناس : « فقد كان في شنجهى عندما

( ١ ) فيكتور هيجو ، مذكرات احد ثوار ١٨٣٠ - اكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفي برلين لانقاذ سالمان وديمتروف . وكان في ميدلين مع الطير الجمهوري ، وكذلك في تولوز داخل أحد معتقلات الجستابو حيث أطلقت القوات الفرنسية بالداخل سراحه . وكان في الالزاس على رأس كتيبة الالزاس لورين التي كان قائدا لها المارك وحرص على المحافظة على الكنائس وقتل ، وأخيرا كان مع ديحول عندما شت حكومته (٢) » .

**يعتبر اندريه مالرو الوحيد من بين المفكرين الذي لم يكتف بالكتابة دفاعا عن قضية يؤمن بها ، بل عمل أيضا في سبيل هذه القضية .**

لقد أراد مالرو أن يقاوم ما اعتبره عبث الوجود الانساني ، والذي يتميز به مصيره الحياة ، والذي يحده الموت وينتهي . وقد كان مالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذلًا شغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليه طيلة حياته اذ رأى الموت يختطف كل من أحبه فقد مات أبوه منتحرا في عام ١٩٣٠ ، وقتل شقيقه كلود ورولان في عام ١٩٤٥ ، كما قتل ولده في حادث سيارة في عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت أن حاول مقاومته بشتى الطرق والوسائل ووجد أن الانسان أثناء بحثه عن وسائل مقاومة الموت يستطيع مثلا أن يلجأ الى الدين والايمة لمساعدته ، فهما قد يشكلان وسيلة فعالة في هذا المجال . لكن مالرو يرفض هذا العون من قبل الدين فهو يريد أن ينقذ الانسان من مصيره المحتوم بواسطة وسائل بشرية .

**اتخذ الكفاح في اعمال مالرو اشكالا وصورا مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاح المقام وكفاح الثائر ، وفي نهاية المطاف كفاح الانسان الواعي بمصيره كاتسان .** وفي روايته «الغزاة» اختار جارين ( بطل الرواية ) طريق الثورة لانه وحده الذي يستطيع أن يولد الاحساس بالكرامة الانسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملأون المدن الصينية « والذين يقضى الموت على دهشتهم من وجودهم في الدنيا بعد أن عانوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجداء . والسل أو الزهري وسط لا مبالاة لاحد لها من الآخرين (٣) » . كما تسمح الثورة بإزالة الاضطهاد الذي يمحو شخصية الفرد ، وفي نفس الوقت تساعد الثورة على خلق هذا الكرامة التي لا غنى عنها للانسان .

« لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرو يعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهو - أي مالرو - وان لم يكن يخشى المخاطر التي يجلبها مثل هذا الارتباط الا انه لا يوافق كلية على طرق العمل التي تترتب عليه (٤) » .

(٢) BIOSDEFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires, Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الغزاة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

التحول السياسى لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

بعد أن اختار طريق مالرو الثورة في فترة ما من حياته نجده يرفضه في النهاية ، لانه لم يجد فيه الحل والعلاج الناجع لمأساة الانسان امام الموت القاهر ، ووجد أن الوسيلة المثلى للكفاح ضد هذا العدو القاهر هي أن يبصر الانسان ويرشده ويوعيه بمصيره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه في مواجهة الموت فهو - أى الانسان - بسبب وجوده وتفكيره كإنسان ينفى عن نفسه حتمية مصيره «ويصبح» انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر (٥) » .

وتعتبر السياسة في نظر مالرو هي المجال الأمثل لممارسة الافعال التي تمكن الانسان من التعبير عن نفسه وتأكيد وجوده . كما يعتبر ارتباطه بقضية الشيوعية في الثلاثينات ثم تحوله الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه الموت وضد « موكب الضغوط الترتلزمة ، مثل الشر والاضطهاد والعبودية والقيود المتنوعة (٦) » وقد أثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشة الكثيرين ، كما أن الكثيرين اعتبروه تحولا جذريا ومتناقضا من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا أن نطرح سؤالا يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان اندريه مائرو بالفعل ماركسيا ؟ للاجابة على هذا السؤال الهام نقول أن مالرو في فترة الثلاثينات من هذا القرن كان زميلا للشوارشيوعيين ، وشارك في معاركهم وتغنى ببسالتهم وائتى على شجاعتهم في كل من الصين والمانييا وفي أسبانيا .

ففي آسيا كما هو الحال في أوروبا « كان الشيوعيون دائما أول المضطهدين وأول من يشترك في المعارك (٧) » وفي ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر واع وملتزم بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما أراد أن يقاوم الديوقراطية البرجوازية او بالاحرى الفاشية » . (٨)

فمثل هذا المفكر يتبنى الشيوعية للوقوف في وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحة الموت » او الوقوف ضد الاضطهاد الرأسمالي . وهكذا نجد أن جارين أحد أبطال مؤلف الفراه يقول « ومن المؤكد اننى لا أشعر تجاه البرجوازية التي انتمى اليها الا بالاشمئزاز والكراهية الشديدة ... وأشعر في أعماقي بأحقاد قديمة ضدها وهى السبب الاول في ارتباطى بالثورة (٩) » .

وفي رأى الناقد الفرنسى روجيه ستيفان أن مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ما كانت النظرية الماركسية لا تتجاوز مرحلة النهج الثورى وبقدر ما كان هذا النهج يبدو بالنسبة

Ibid, p. 18

(٥)

MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٦)

GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٧)

Id., Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p.

(٨)

Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالرو : الفزاة ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدي للتخريب الفاشي (١٠) « ولكن أندريه مالرو لم يعنق كلية الفكر الماركسي للثورة ونحن نعتبر أن رأي جايتان سيكون أكثر حسما في هذا الشأن فهو يؤكد أن « فكر مالرو لم يتوقف لحظة عند « الحقيقة الماركسية (١١) » فهو لم يستبق من العقيدة الماركسية الاتهام التفاؤل البرجوازي والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتي سبق أن تنبأ بهارامبو (١٢) « وهكذا نجد أن الماركسية لم تكن تشكل في نظر مالرو دينا ولا عقيدة ، وإنما كانت تشكل إرادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل أيضا إحدى الوسائل الأكثر فعالية لكفاح الإنسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله جيرو في رواية « قدر الإنسان » اعتقد أن الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم « ويقول أيضا في تعريف الكرامة أنها « عكس أو نقيض المهانة (١٣) »

« فالشيوعية إذا تعيد للإنسان الإحساس بالكرامة والخصوبة (١٤) »

وقد اكتشف مالرو أثناء كفاحه ضد عبث الوجود الإنساني أن الإخاء الإنساني هو أقوى حصن يمكن أن يقام ضد عدوه القدر وهو حساس للعبث النفسي الذي تجلبه المشاركة في قضية مشتركة للإنسان الذي يعاني من مأساة العزلة .

فالشيوعية إذا في نظر مالرو لا قيمة لها إلا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الإنسان الإحساس بمسئوليته وذاتيته . ولكن الأسلوب الذي تطورت به الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٤٧ جعلت مالرو يجزم بأفلاس الشيوعية على الأقل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقد الفرنسي جانين هوسو فتقول « لاحظ أندريه مالرو انحدارا مظلما جعل من الشيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو إذا يقاوم بشدة النظام الستاليني (١٥) »

وعلى ذلك عندما خانت الشيوعية أم الشيوعيون المبادئ الأساسية والإنسانية التي فتنته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالرو أن تضامنه مع الشيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية في العنف ضد ما اعتبره « خيانة للأمال العريضة وتغييرا للطبيعة واستسلاما لإرادة الاستعباد » وهكذا حين أصبحت الشيوعية سلاح قمع وعدوان وأداة للطفيان ، وعندما بدت في صورة مضادة للفردية تمنع الإنسان من أن يعبر عن نفسه بحرية ، بل أكثر

( ١٠ ) Stephane (R.) op. cit. p. 126

( ١١ ) PICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Seuil, 1955, 192 p., p. 91

( ١٢ ) Ibid., p. 92

( ١٣ ) مالرو : قدر الإنسان ص ٢٤٢ - ٢٤٣

( ١٤ ) مالرو : مقدمة عصر الاحتقار .

( ١٥ ) Mossuz (j.) op. cit. p. 108

من ذلك تجعله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ، حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .



**وتظهر لنا بؤادر الخلاف بين مالرو والشيوعية من خلال اعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما .** فقد بدأت هذه الروايات تشكك من قيمة القضية السياسية وعلى الاخص القضية الشيوعية وتظهرها وكأنها تمثل تهديدا للحرية الشخصية للانسان . فنجد أن رواياته **الفزاة ، وقدر الانسان ، والامل ( ١٩٣٧ )** تكون مجموعة من الاعمال تعلن كلها أن الانسان لا يستطيع ، دون أن يقلل من قيمته كإنسان ، أن يحرم من حقه المقدس في الحرية .

وهذا ما يعكسه لنا حزن جارين وأساه في قوله « عندما أفكر انى كنت طيلة حياتى أبحث عن الحرية ... من يمكن أن يعتبر حرا هنا منظمة العمل الدولية أو الشعب ؟ أنا أم الآخرين (١٦) » أما في رواية « **قدر الانسان** » فنلاحظ أن آراء أبطالها حول قيمة الشيوعية متناقضة في أغلب الاحيان ، فمثلا يجد كيو في الشيوعية وسيلة للوصول الى الكرامة الانسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كونج يعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد أن كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص . بينما لا تجد فيها ماى الا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو أيضا من خلال أعماله الروائية استبداد الراى عند الحزب الشيوعى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلمات فلوجين في رواية « **قدر الانسان** » حتى لو كنت من عمال شنغهاى فسيكون من رأيى أن الطاعة للحزب هي الموقف المنطقى الوحيد . وفي روايته « **وقت الاحتفال** » يندد مالرو بوحشية أى سياسة استبدادية ، ولكن مساوىء الحزب الذى ينادى بتحطيم أى فكر فردى تظهر في رواية « **الامل** » فيقول أن كل الذين لا يبدون الاستعداد لاعتناق ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كما يقول على لسان جلوكين « بالتغيير أو بالموت (١٧) »

ففى رأى مالرو أن الحزب الشيوعى لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالإضافة الى ذلك فهو حزب انتهازى على الرغم من استبداده بالرأى . وتعكس رواية « **الفزاة** » ذلك فنرى أن برودين لا يتردد في قبول أموال البرجوازية حتى يدفع لقواته روايتهم . وكذلك نجد في رواية **قدر الانسان** أن فلوجين يقر صراحة بأن الحزب الشيوعى يستغل « **الكومنتج** » و**شانج كاي** شك ويضحى بالمناضلين الشيوعيين في شنغهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين أن الفرصة سانحة أمام الحزب لاستغلال تشن في حالة ارتكابه محاولة اغتيال **شانج كاي** شك ويبدو اذا أن الانضمام الى الحزب الشيوعى يهدم كل مظاهر الاصاله في الانسان .

ولابد لنا أن نشير في هذا الموضع الى انه على الرغم من اطار اعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال أن يقال أن مالرو كان كاتباً ثوريا بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

( ١٦ ) الفزاة ص ١٨٩ .

( ١٧ ) الامل ص ٢١٥ .

ذلك أن رواد حركة النقد الماركسي لم يخدموا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروتسكي بعد ظهور « الغزاة » أن مظاهر التعاطف من قبل الكاتب تجاه الصين الثائر لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الدائية والنزوة الفنية (١٨) « ويضيف تروتسكي » لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن أن يتجنب المفارقات الحتمية التي من هذا القبيل (١٩) « وكتب عنه الناقد الفرنسي كلودروا فقال « أن فهم مالرو للماركسية غير عميق وأنه من السهل ومن العدل إذا استرجعنا الماضي أن نجد فهمه غير كاف لها ، والذي يريد أن يتعرف على ماركس من خلال أعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء عن تطور ونمو التحليل التاريخي ، وكذلك يجهل الطريق الذي أدى بماركس للتحويل من المشاهد المذكورة في أعمال مالرو إلى العمل الثوري نفسه (٢٠) » أما جايثان بيكون فيرى أن « الثورة الشيوعية مرتبطة في أعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفحوى (٢١) »

وتقول جانين موسوز بعد أن بحثت عن الأسباب التي أدت بمالرو من زمالة الشيوعية إلى القطيعة الكاملة مع الفكر الشيوعي أن هذه الأسباب ليست معروفة معرفة أكيدة .

ويبدو أن الأسباب التي دفعت مالرو إلى أن يقاطع الشيوعية لا ترجع إلى التفكير في الآراء الفلسفية ، بل ترجع إلى التفكير في العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة . فهذا التفكير أوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ أصبح كل مفكر حر يعرف أن الاتحاد السوفيتي البلشفي يتحول إلى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا وتزمتا وطنيا ونظاما بوليسيا وتحقيقا تعسفيا وتعذيبا وقتلا (٢٢) «

لقد بدأ الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين أو ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة أن ينصح أندريه جيت بدم نشر كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » .

لكن سرعان ما تبدأ الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتي منضما لمعسكر المانيا الفاشية وأصبح الاتفاق السري بين ستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل أسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تعفية من أي التزام ، وهكذا انفضى الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو والشيوعيين وأصبح مالرو حرا في أن يقطع علاقاته مع الشيوعية .

TROSKY (Léon), La Revolution Etranglée, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 38 ( ١٨ )

Ibid, p. 39 ( ١٩ )

ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 118. ( ٢٠ )

Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948 ( ٢١ )

STEPHANE (R.) op. cit. p. 127 ( ٢٢ )

وقد قال مالرو شارحا التحول الذى طرأ على النظام السوفيتي واسباب زوال تعاطفه مع الشيوعيين « ان الايدولوجية الاشتراكية رضى مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا في سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعي ان اتوجه الى برلين مع اندريه جيد لتسليم احتجاجات أوروبا كلها ضد الحكم على ديمتروف الذى كان بريئا من جريمة حرق المجلس التشريعى الالمانى فلم يكن الموضوع يخص البروليتاريا وحدها ( ٠٠٠ ) ولم تكن نناضل لنستبدل الرأسمالية بهذه القوة الرابعة التى آل اليها بوليس الدولة (٢٣) »

وهكذا أصبح مالرو يرى في الخمسينات ان الخطر الحقيقى الذى يجب التصدى له ومواجهته قبل أى خطر آخر لم يعد الفاشية بل الستالينية ، أى الاستعمار السوفيتي ، الذى أصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك من بين الاسباب الاخرى التى أدت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيين اثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتاب مالرو الشعور بأن الكثير منهم كانوا يحاولون الحصول من أعضاء المقاومة الآخرين على كل المعلومات التى يريدونها دون أى مقابل ( أى دون مقابلة هذا الاجراء بالمثل (٢٤) » وهذا هو نفس ما صرح به للجنرال ديغول عندما قابله فيما بعد فقال له ان الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراك فيه (٢٥) .

لكن يجب علينا ان نلاحظ ان كل هذه التحفظات التى أبداهها مالرو تجاه الشيوعيين الفرنسيين لا يمكن ان تمثل حكما اجماليا أو كليا فنجد أنه أحيانا كان يمتدح بعض الذين قابله منهم اثناء المقاومة وكان يقول عنهم انهم رجال عظماء . وأحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى اخوة الكفاح القدامى ، وهذا يبدو فيما كتبه عام ١٩٤٥ عند رجوعه الى الجبهة « اثناء عودتي الى جبهة القتال ( ٠٠٠ ) كنت افكر في زملائي الشيوعيين باسبانيا وفي اسطورة البناء السوفيتي على الرغم من البوليس السياسى وفي الجيش الاحمر وفي المزارعين الشيوعيين في الكوريل لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم من وجود الميلشيا ٠٠٠ » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبح العلاقة ليست بين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة اخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعى الفرنسي لأن الشيوعية لم تعد تمثل في نظره الا نقيضا للديموقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديموقراطية عظيمة الا في البلاد الاسكندنافية وفي البلاد الانجلو - سكسونية أو بمعنى اصح في البلاد التى لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وانه من الآن فصاعدا سوف يقف في وجه اقامة أى حكم

( ٢٣ ) CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

( ٢٤ ) MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

( ٢٥ ) مالرو الالامذكرات ص ١٢٩ .

( ٢٦ ) مالرو : الالامذكرات ص ١١١٨ .

( ٢٧ ) Cite, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

شيوعى فى فرنسا ، وانه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجبهة الوطنية « التي تسيطر عليها اقلية شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة في ايديهم » (٢٨) ولمنع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية فى فرنسا بدل مالرو اقصى ما يستطيع كعضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم . وكانت العداوة للشيوعية فى ذلك الوقت تعنى اولاً وقبل كل شيء العداوة للستالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان الستالينية تعنى نقيض كل المعانى والقيم التي كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفى رايه ان الستالينية قد خانت القضية الثورية « ان ثورة اكتوبر حاملة الامل العظيم قد غمرت لآمد طويل موجة الحكم الاستبدادى » (٣٠) وتعتبر « دعوة الى المفكرين التي وجهها عام ١٩٤٨ من حزنه وخيبة امله » لم يكن متوقعا ان الغد المشرق سيصبح هذا العويل الطويل الذي يأتى من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى انين المساجين « ان الستالينية تعتبر اذا فى نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانسانى . ومن ثم فان الشيوعيين الذين يمثلهم فى فرنسا الحزب الشيوعى الفرنسى يشكلون فى نظر مالرو اخطر اعداء البلاد الذين يهدفون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعى يمثل خطرا كبيرا ، ومما يزيد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى ، بل انه عميل لقوة اجنبية هى الاتحاد السوفيتى . ويمكن القول ان انتقاده للنظام وللحزب الشيوعى وموجهه ليس له اسباب ايدلوجيه فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ تغيير جعل من الستالينية ظاهرة تتعدى نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو فى هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتى محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من أن تصبح خطرا على فرنسا .

**وبناء على ما تقدم يمكننا القول بأنه فى نضاله ضد الستالينية لم يفكر الا فى مصلحة فرنسا** وانه لذلك سوف يتبع مبادئ جارسيا احد ابطال روايته الامل الذي قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا بأساليب العمل ، فليس هناك فكر سياسى الا عند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولما كانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا فى ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة الستالينية هى الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب عن ذلك فى **اللامذكرات** « لن يستخدم الحزب الشيوعى المقاومة ضد الجنرال ديغول » .

عندما قابل مالرو الجنرال ديغول لأول مرة فى يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول فى ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول أنه ان كان

( ٢٨ ) مالرو : اللامذكرات ص ١١٤ .

( ٢٩ ) مالرو : اللامذكرات ص ١١٦ .

( ٣٠ )

MOSSUZ (J.) op.cit., p. 114

( ٣١ )

MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

( ٣٢ ) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

( ٣٣ ) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .



التحول السياسى لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشاف العظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذي كان سببا في بدء التزامه بالديجولية .

**ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعية الى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت في اكتشاف الوطن .** وكانت المقاومة هى التى هيات السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ - ١٩٤٥ صراعا طبقيًا ولكنها كانت نضالا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت في نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امترح النضال في سبيل العدل والحرية بالنضال القومى واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار في هذا النضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اراجون وهو من الكتاب الشيوعيين يتغنى ويقول « حزبى اعاد لى الوان فرنسا حزبى حزبى شكرا لدروسك » ( ٣٤ ) ويقول مالرو « اثناء المقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » ( ٣٥ ) وقد بدت فرنسا في نظرة في هذه الفترة في أجمل صورها من الاخاء والتضامن « ( . . . ) » كانت فرنسا تتمثل في تلك الفلاحة التى تراك مارا وأنت محاط بدورية المانية فتتصور أنها سوف تنفذ حكم الاعداء فتتقدم نحوك خطوة وتنظر اليك فتشير برمز الصليب في منطقة لا يذهبون فيها الى القداس ( ٣٦ ) . وقد ساعدت عدة عوامل على ظهور وطنيته الشديدة : أولها مشاهدته لموت زملاء النضال والجنود الذين استشهدوا على أرض الوطن وكان من المستحيل أن لا يؤثر ذلك فيه تأثيرا بالغا « وتحول حب الوطن الى ولاء لهؤلاء الرجال ووفاء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته » وكما كان لزاما عليه حتى يلقي فكرة مواجهة الموت أن يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » ( ٣٧ )

ومن بين الاسباب الأخرى التى ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده اثناء زيارته لالمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصور بخوف شديد ما كان يمكن أن يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كان من الممكن أن يصبح الوطن الحبيب « دُرا شاسعة للموتى » ( ٣٨ )

وهكذا نرى ان خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فاول مرة في حياته يحارب مالرو على الاراضى الفرنسية وفي سبيل وطنه فرنسا « في عالم اندريه مالرو سوف تبقى آثار هذا النضال الجديد لن تمحى ابدا ، وسوف يكون لوطنه منذ ذلك الوقت قيمة أكبر لم تكن له من قبل » ( ٣٩ ) وسوف تبدو له نتائج هذا النضال أكثر فاعلية لأنه كان يحارب لمصاحبة وطنه وليس لمصلحة الآخرين .

ARAGON (Louis) La Diane Francaise

( ٣٤ )

( ٣٥ ) مالرو : الالمذكرات ص ١٢٥ .

GABRIEL D'AUBAREDE

( ٣٦ ) حديث أدلى به الى جابريل دوباريد .

Mossuz (J.) op.cit., p' 35

( ٣٧ )

Ibid, p. 36

( ٣٨ )

Ibid, Loc. cit.

( ٣٩ )

فهم مالرو فجأة في ذلك الوقت سبب فشلت ١٠ • لورانس في بلاد العرب وفشل بر عند قبائل مويس وفشل « جارين » في كانتون وفشل فانسان برجييه في السهوب الأفغانية « ان التهجين لا يجدى مع الاجسام الغريبة فحتى اسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال القوات الدولية التي ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك أمرا صعبا عليها ويعطينا كل من ثوار ٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجوب العمل في وطن الما نفسه قبل اى مكان آخر » ( ٤٠ ) وهذا نفس ما صرح به الكاتب لجانين موسوز اثناء حاضرتهم بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٦٨ « لا يمكن صناعة وطن الآخرين » ( ٤١ )

اذن فقد اكتشف مالرو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدأ يتساءل عن القوى المتصارعة داخله وكذا عن مستقبل النظام السياسى الفرنسى . واعتبارا من ذلك الوقت فسوف يبدأ مالرو القتال والنضال في ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السيد واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هى الأهم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والال بجانب شخصية بطل تمثل الأمة قيمة خاصة لديه فهى الوحيدة التى يمكن ان تدوم .

لقد اصبح واضحا لمالرو في عام ١٩٤٥ والاعوام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيدتين اللتين تمتلكان الفرصة لحكم فرنسا هما الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكرنا مالرو يرفض الشيوعية التى انحصرت في ذلك الوقت في الصورة الستالينية فقط والشيوعية لا يمكنها انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هى الوحيدة التى بوسعها انقاذها فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال ديغول هو الرجل الذى يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل في العزة والحرية وهى السياسة التى كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذا في نظر مالرو بـ « كأنها الأمل الوحيد في البقاء . وعلى هذا نراه يعرف الديجولية للجنرال ديغول فيقف اثناء المقاومة كانت الديجولية في نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية في خدمة فرنسا كنفية لانكرة فرنسا في خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يمينية أم يسارية وبعد ذلك اصبح شعورا بالنسبة لى » ( ٤٢ )

ولكن السبب الرئيسى لتفريق الديجولية في نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوطنية فالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريفها مثل الماركسية او الفاشية ولكنها « حركة وطنية » ( ٤٣ ) واردة وطاقة .

والديجولية كما يتصورها اندريه مالرو « تجد مكانها في التقاليد الوطنية الثورية بعد ميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديغول ، نجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفهم

Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

( ٤٠ )

Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

( ٤١ )

( ٤٢ ) مالرو : شجر الزمان الذى يقطع ص ٩٥ .

Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

( ٤٣ )

بينهما « ( ٤٤ ) » وتعتبر أيديولوجيته الديجولية إيمانا منه بقدرتها على إقامة عالم أفضل ليس بمقدور أحد غير شارل ديغول أن يبنيه ، اذ بالنسبة لاندريه مالرو فان الديجولية بدون ديغول « لا يمكن تصورها » ( ٤٥ )

ربما يبدو مفيدا أن تتوقف قليلا للبحث عن اسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل ديغول ترى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال ديغول لأول مرة في باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التي روت انهما تقابلا على جبهة الألزاس لورين في خريف عام ١٩٤٤ . وينفى مالرو نفسه هذه الرواية بقوله « ان المشاعر التي تربطني بالجنرال ديغول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الاولى والتي هي من نسج الخيال ، فمن المؤكد ان الجنرال ديغول لم يقل عني في الألزاس العبارة الشهيرة التي قالها نابليون عن جوتيه ( « اخيرا قابلت رجلا » ) وذلك لسبب بسيط هو ان على جبهة الألزاس لم يحدث ان قدم الكولونيل برجيه ( الاسم الحركي لمالرو ) الى الجنرال ديغول » ( ٤٦ )

حقا تمت محاولة تقارب بينهما في نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الاول من الاسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو ( ديغول ) يعرض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فاعتقد ان اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه في حرب اسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف ان خطابه هذا لم يصل على الاطلاق الى الجنرال ديغول . ولكن في ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو ( ديغول ) الذي جاء فيه : « مهما حدث فان شعلة المقاومة لا يجب ان تخبو ولن تخبو » ( ٤٧ )

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الاولى ان تتم بعد ذلك بخمس سنوات أي في يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت أول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد أعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الاولى وللظروف التي تمت فيها وللعوامل التي ساعدت على نجاحها وذلك في مؤلفه اللا مذكرات . ففي ذات مساء اتصل به تليفونيا شخص غامض لم يفصح مالرو عن اسمه أو شخصيته في روايته وأبلغه ان لديه رسالة شفوية هامة يجب ان يوصلها له وطلب ان يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضي بضع ساعات وصل الزائر الغامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات ان الجنرال ديغول يسألك باسم فرنسا هل انت على استعداد لمعاونته « وعلق مالرو على ذلك بقوله « كانت العبارة غريبة » ( ٤٨ ) وقبل مالرو الدعوة وانتظر تحديد موعد المقابلة الاولى مع الجنرال ديغول .

Mossuz (J.) op.cit. p. 135

( ٤٤ )

Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

( ٤٥ )

( ٤٦ ) مالرو ، اللا مذكرات ص ١١٤ .

( ٤٧ ) شارل ديغول ، خطابات وكلمات ( ١٩٤٠ - ١٩٤٦ ) ص ٤ .

( ٤٨ ) مالرو اللا مذكرات ص ١٢٣ .

وقد كشفت **جانين موسوز** عن شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو ان الزائر الغامض لم يكن الا جاستون بفلسكى الذى تعرف واعجب به مالرو عند مقابلته عند كورنيليون مولينييه » ( ٤٩ )

وبعد ذلك بايام تلقى مالرو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول في وزارة الحرية ، وتعلق جانين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الاولى ساد تفاهم حقيقي واتفاق عميق بين الرجلين ( ٥٠ )

وقد بدا على الفور حديث غريب بين اندريه مالرو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفي صورة اسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى باسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا ان الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل في الفترة التي لم يكن يعرفه خلالها والتي كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو ان مالرو فهم ما يدور بخالد الجنرال فنراه يرد عليه يشبع فضوله ويرضيه قائلا : « لقد تطوعت في نضال من اجل العدالة الاجتماعية ان صح القول او لكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » ( ٥١ ) وكان مالرو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى ان جاءت بعد ذلك « الحرب الحقيقية ثم بعد ذلك قلتها الهزيمة لكثيرين غيري تزوجت فرنسا » ( ٥٢ ) وكانما نطق مالرو بالكلمة السحرية التي تفتح جميع الابواب وهي « فرنسا وحب فرنسا » ثم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل اخرى ، وادى اتفاهما في الراى وتلاقى وجهتى نظرهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدث مالرو في هذا اللقاء بافاضة في المواضيع التى تحتل المكانة الاولى في تفكيره ، وهى اكتشاف الوطن والشيوعية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن ديجول يقاطعه بالمرة رغبة منه في اعطاء الكاتب الفرصة في التعبير عن نفسه ومن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد ان تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظرهما واتفقا في الراى بدأ يفكران معا في الموضوع الذى يشغلها ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد اعدت الجمهورية ويجب عليها ان تعيد بناء فرنسا » ( ٥٣ ) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الحلم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته في يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مالرو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا في الالامدكرات تعاقبة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها يصفة خاصة منع كل حزب من ان يستغل الموقف لصالحه » ( ٥٤ ) ولقد كانت مهمة

Mossuz (j.) op.cit. p. 53

Mossuz (j.) op.cit. p. 53

( ٤٩ )

( ٥٠ )

( ٥١ ) مالرو : الالامدكرات ص ١٢٥ .

( ٥٢ ) مالرو : الالامدكرات ص ١٢٥ .

( ٥٣ ) مالرو : الالامدكرات ص ١٢٥ .

( ٥٤ ) مالرو : الالامدكرات ص ١٢٦ .

شاقة وعسيرة في نفس الوقت لانه وديجول كاناعلى وعي بهذا « التسابق بين الاحزاب على التضليل » (٥٥) وهو التسابق الذى سبب تحطيم الحلم الجميل الذى كانا يحلمان به وهو الوحدة الوطنية .

وفي ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديغول الحكم وهويتهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مالرو ترك الوزارة في نفس الوقت وتبع رجل ١٨ يونيو في عزله فقد كان محالا عليه ان يتصور الديجولية بدون بطلها شارل ديغول وقررا لا يعود ابدا الى اضراء الحكم طالما ان الجنرال ديغول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتناول مصير فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديجولين لم يفقدواالامل ابدا ، ورفضوا البقاء في عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذى وضعوه نصب اعينهم هو اعادة الجنرال ديغول الى الحكم . وحتى يتها هذا الرجوع يجب عليهم ان يتحدوا في « حركة رائدة يجب ان تكون مختلفة عن التنظيمات الاخرى الموجودة وتكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليها ان تحاول تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذى يراود مالرو ايضا وللعمل على تحقيق ذلك نشأت حركة تجميع الشعب الفرنسى في يوم ٦ ابريل ١٩٤٦ وعين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن العملاقان مالرو وديجول متفقتين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التى يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول مالرو ان يطبق المعادلة التى عطاها « لجارسيا » في رواية الامل وهى « لا توجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شىء مادي بشىء مادي آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى ( . . . ) وليس بمقارنة تنظيم برغبة او حلم تغيير شامل » (٥٧)

وكان مالرو يتمنى ان يكون التجمع باعنا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حذر ديغول حينما تقابلا لأول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لاتدع الامر يلتبس عليك فان فرنسا لا تريد ثورة بعد الان فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هدف مالرو ان يكون التجمع « حركة ثورية » تستولى على الحكم حتى لو اضطرت الى استخدام القوة واعنف وان تاتي بسياسة اجتماعية . وعن ذلك تقول جانين موسوز « كان مالرو يكرس التجمع ليستولى فجأة على الحكم وان يحرر فرنسا المكبلة بالقيود » (٥٩)

( ٥٥ ) مالرو : الالامذكرات ص ١٣٦ .

J. Mossuz op.cit., p. 64

( ٥٦ )

( ٥٧ ) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

( ٥٨ ) مالرو : الالامذكرات ص ١٣١ .

J. Mossuz, op.cit. p. 67

( ٥٩ )

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف اولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتي يكون الاتحاد السوفيتي مسئولا عنها ، وفي هذه الحالة يهب الديجوليون الذين في الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . أما الامكانية الثانية فتكون بخلق موقف ثوري يهيء السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسي جاء مخيبا لامال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجيا . اما اسباب انفصاله عنه وزوال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائيا من حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع في تصوره ان يرفع القيم التي يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديغولي كريم وبرجال ديغوليين في خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديغول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات في صفوف المناضلين ضد الفاشية الذين حاربوا في مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون في نظره شعبا بأكمله (٦٠)

هذا التجمع بعد ان غمرته اقلية من حزب اليمين أصبح هو نفسه تجمعا لليمين . وسبب آخر لنفور مالرو ولخيبة املة وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجمعهم حول ديغول . وفي عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسي في الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته في قطع كل الصلات بينه وبين تنظيم لايرجو منه شيئا .

وفي عام ١٩٥٣ حل ديغول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب مايراه وهكذا انتهى عمر تجمع الشعب الفرنسي . وعندما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات فانه لم يخف مرارته قال «منذ ان بدا فيه التجمع يتصرف كحزب مشابه للحزب الاخرى فقد كل معنى له في نظري» (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو في نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التي قام بها لانجاحه تستحق منا كثيرا من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتباً على حد قول جالين موسو « الوسيط الامثل بين الجنرال ديغول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التي يقوم بها، وهي الكفاح لنشر الديجولية وفي نفس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهرية تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهما التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجا ومجاهرة بالعقيدة . ولكن للأسف لم تدم هذه المجلة واختفت نهائيا عام ١٩٥٣ .

Mossuz (J.) op.cit., p. 89

( ٦٠ )

( ٦١ ) جاء في جريدة الحدث « L'Evenement » عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

Mossuz (J.) op.cit., p. 74

( ٦٢ )

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد اراد ان يرتبط بالديجولية في مظاهرها « التاريخية » والمظيمة وكان تجمع الشعب لفرنسى يمه بوجه خاص لانه يبدو كتعبير وقتى للديجولية « (٦٣) » كما يجب على الديجولية ان تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من اجل ذلك كان على التجمع ان يسلك طرقا مختلفة عن طرق واساليب الاحزاب الاخرى تتميز بانها مجردة تماما من الخسة والدناءة . ولكى يعمل على ايجاد اتصال مباشر بين الامة باسرها والرجل الذى سوف يمثلها بدا اندريه مالرو حملات « السلام العام » التى كان يهدف من وراءها الى اثبات متانة وقوة الروابط التى تجمع بين الجنرال ديغول والشعب الفرنسى .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسى فى اداء المهمة المحددة له طبقا لاحلام وآمال كل من الجنرال ديغول وصحبه من الديجوليين ، وبدا اندريه مالرو يكرس وقته كله لكتابة اعماله الفنية العظيمة التى كان قد بدأ العمل فيها عام ١٩٣٥ . واستمر كذلك حتى عاد ديغول الى الحكم فى مايو ١٩٥٨ فأسرع مالرو بالحضور اليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بانى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا فى الالامذكرات لقاءه مع الجنرال ديغول فى باريس فى فندق لا بروس . ويشرح عودة ديغول الى الحكم فيقول « لم تفارقه ابدا العزلة الشديدة التى تركها ليبدأ المفاوضات ، وكذلك ليتولى مصير فرنسا الذى كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرأ اى تغيير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفى هذه الايام التى كان يعتبر فيها الاشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتي كان فيها اكثر من يهاجمونه هم الشيوعيون والتي كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الاحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو الا فى إعادة بناء الدولة » . (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة فى حكومة ديغول حتى عام ١٩٦٩ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الامانة ولاخلاص النادرين والحق ان اخلاصه كان تاما فلم يحاول ابد خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من انه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولا بد ان سكوتة فى بعض الاحيان وكذلك فى بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك اصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تسلك « سياسة التاريخ » والتى تمثل فى نظره قيمة اكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

Mossuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٣)

(٦٤) جاء فى جريدة التجمع ، Le Ressemblment عدد ٥٣ ، السبت ٢٤ ابريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : الالامذكرات ص ١٤٩ ،

Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٦)

(٦٧) جاء فى جريدة التجمع Ressemblment ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما في وسعه جاهداً لهدم الادعاءات التي يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بأنه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديغول ليس فاشيا والدليل على ذلك اننى معه ، ولدى اربع عشرة اصابة في سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد ادرك مالرو ببعد نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاط بين الفاشية والديجولية يعود الى المقام الاول الى عدائهما للشيوعية . ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان لكلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعية ولكنهما يحاربانها لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية اما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

فعندما تكون الديجولية هي الحاكمة والسائدة فان ذلك يبشر ببداية عصر جديد هو عصر الأمل ، ولسوف تولد فرنسا من جديد ولسوف تعود الى صورتها الحقيقية . ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما اوضح مالرو ان يتعاون الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدؤوا بناء وطنهم من جديد وفقا لاساليب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو في الوزارة بجوار الجنرال ديغول بصفته وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديغول في الاستفتاء بعد احداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث في المرة الاولى تبعه وزيره وصديقه الحميم في عزله دون اى تفكير او تردد .

وهكذا ينتهى فصل من حياة ديغول الحافلة ويسدل الستار على تدخله في تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التي لن تنسى . ويشرح ديغول بنفسه الدور الذي لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان بينى وبين فرنسا عقد ( . . . ) لقد كان عقداً دون ما سند من حق ورائى وبدون استفتاء وبدون اى شىء على الاطلاق ، لقد كتب على ان آخذ على عاتقى الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع عن مصرها ، ولقد استجبت الى نداءها الصامت والامر الذي لا يحتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند ( . . . ) . لقد تزوج ديغول من فرنسا قبل زواجه من ايفون فاندرو » . (٧١)

ربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسى لهذا الاتفاق القوي الذى لم يشهد اى صدع ولم يمر بفترات فتور والذى جمع بين الرجلين العظميين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذى بدأ منذ مقابلتهما الاولى في عام ١٩٤٥ . وتعتقد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت اشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعان بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفر موهبة التنبؤ لديهما ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤى . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

( ٦٨ ) محاضرة القاها مالرو في ساو باولو ، يوم ٢٦ اغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ اغسطس ١٩٥٩ .

( ٦٩ ) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ - ١٨ .

( ٧٠ ) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ .

( ٧١ ) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ٢٠ .



عادى بالعظمة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذه العظمة وبفضل ذلك كانا متشابهين « (٧٢) وينسب « بيردى بواديفر » اسباب هذا التوافق والانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « عزلة متشابهة وشغف متشابه بالافعال التي تتسم بالعظمة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الارادة وقوة الاحتقار . (٧٣)

• • •

على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بان العزلة المشتركة هي التي قربت بين الرجلين . فمن جهة كان شارل ديغول يقف وحيدا في عالم التاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو « بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد ان يضمهم الى عالم التاريخ هذا » . (٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتى عندما كان في وسط الزحام وهو يناضل مع الآخرين ، وحول هذا المعنى تقول جانين موسوز « ان انضمامه الى هذه المارك كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحة كان الهدف من اقحام نفسه في قضية اجتماعية هو ان يتحدى الموت وينكره ويتغلب عليه . وهكذا نظرا لعدم استطاعته ان يمزج اهدافه باهداف الآخرين فقد ظل وحيدا وسط الجماعات الاكثر التثامسا ، والحشود الاشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التي جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرى مشتركة ايضا بينهما هي الحلم بالعظمة والرقى وهي صفة تعتبر من اشد عوامل تفاهمهما . ومصادقا لذلك نجد ان مالرو كتب في الالامذكرات « الذي يهمنى ( . . . ) في اى رجل عظيم هي الوسائل التي توضح عظمته وطبيعة هذه العظمة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصية الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخر نفس الموقف الاخلاقى تجاه الاحداث التي دافع عنها بقوة . وحول ذلك تقول جانين موسوز ان « كلا منهما قد جمل من الارادة التي بمفردها تساعد على الفعل مبدا اساسيا » . (٧٧)

لقد وجد كل من ديغول ومالرو عند الآخر تجسيدا للامال والاحلام التي كان ينشوها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فتقول « لقد قابل اندريه مالرو رجلا ( نقصد ديغول ) على الرغم من انه كتب فانه قد نجح في فعله واوصله الى النهاية المرجوة ( . . . ) ومن ناحية اخرى فقد قابل ديغول رجل افعال استطاع ان يجعل من اعماله الروائية عالما مطابقا لعالم القرن العشرين » . (٧٨)

Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7

( ٧٣ )

- Mossuz (j.) op.cit., p. 55

( ٧٤ )

Ibid, Loc. Cit.

( ٧٥ )

( ٧٦ ) مالرو ، الالامذكرات ، ص ٢٠ .

Mossuz (j.) op.cit., p. 55

( ٧٧ )

Ibid, p. 56

( ٧٨ )

لقد بدا ديجول بالنسبة لمارلو منذ اول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « أما بالنسبة لمارلو فقد اكتشف رجلا عظيما » . (٧٩)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقد عزا نقاد آخرون قاموا ببحث أسباب التفاهم التام بين مارلو وديجول الذي كان ماثرا للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية أو الستالينية.

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءا مما كتبه مورياك في جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) في الخامسة والعشرين من عمره ممثلا لحزب بولنجيه بمدينة نانسي كان دوره يتلخص في ان يقوم باتباع حصان اسود ورجل ذى لحية شقراء يرتدى الزي العسكري ، أما مارلو وهو في عنفوان الشباب فنجدته يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسي فحسب بل ايضا على منع تحقيق طماع ستالين في اوروبا .

في الواقع ان كفاح هذا الرجل الذي يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط بأي سن او زمان كان كفاحا موجها قبل كل شيء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغي ان اقول ما افكر فيه صراحة ؟ انني اعتقد ان اندريه مارلو كان يتميز بشيء من الكبرياء للدرجة انه يعتبر ديجول ورقة تمضد لعنته » (٨٠)

هذا ورأي نقاد آخرون في المعاونة بين فانسان برجييه ( Vincent Berger ) وآنفر باشا في رواية « شجر الجوز في اللاتنبرج » تجسيدا مسبقا لما سوف يكون عليه التعاون بين مارلو وديجول بعد ذلك .

ف نجد برجييه يقول في رواية **شجر الجوز في اللاتنبرج** « انه من الصعب علينا الآن نظرا لقوات الوقت ان نؤثر على الاحداث لهذا لا يمكن الا استخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا ان يكون آنفر باشا » . ( ٨١ )

ويعلق جايتان بيكون على ذلك قائلا « علينا ان نستبدل اسم آنفر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مارلو بالامس » . (٨٢)

اما بيير دي بواافر فيقول ان مارلو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجييه » آنفر باشا ، وذلك لكي ينتزع من ايدي افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة في الجمهورية الرابعة فرنسا التي كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

Ibid, loc. cit. ( ٧٩ )

Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques.- p. 14 ( ٨٠ )

( ٨١ ) مارلو ، شجر الجوز في اللاتنبرج ص ١٤٦ .

Cite par Gaillard (p.) Les critiques.....p. 109 ( ٨٢ )

Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 20 ( ٨٣ )

وبالنسبة لجورج مونان فمن رايه أن مالرو قد وجد في ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التي كان يحلم بها لكي يلعب الدور الذي قد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذي أعطى الى بركن في رواية الامل تلك الصرخة الصادرة عن شخصية انسان ذي طموح بسكالي : « اريد ان اترك اثرا على هذه الخريطة » والذي يمكنه أن يفهم شخصية الرجل العسكري الذي كانت كلمته الأخيرة في مؤلفة حد السيف تعد مدحا وتعظيما لاصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سببا للحياة سوى أن يتركوا آثار بصماتهم على الاحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكري التام بين الرجلين بأساطير القسرون الوسطى الشهيرة وبالصدقة التي تربط الامير بشاعره والسيدي بفارسه . وسوف تتغلب الصداقة والتفاهم المتبادل بين ديغول ومالرو على جميع العقبات ، وسوف تواجه الفشل وخيبة الامل والمصاعب بشتى انواعها ، ولسوف يظل مالرو وفيما على الدوام لديجول ، وكان الاخير وانقا كل الثقة أنه اذا تخلى عنه الناس اجمعين فسوف يبقى مالرو على الدوام بجانبه ولن يتخلى عنه أبدا .

لقد قرن مالرو وديجول مصيرهما معا ، وذلك لانهما أرادا ان يجسدا مصر فرنسا ، وفي اعتقادي ان السبب الحقيقي للصداقة والتفاهم والترابط بينهما يكمن في هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بعد زيارته الطويلة لديجول في كولبى في ديسمبر ١٩٦٩ « ايها الليل اهبط ببطء تحوطك زوبعة الثلوج . هذه هي نهاية زمن هذا الرجل وزماني . نهاية زمن مسيرة غاندى نحو المحيط ليجمع الملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)



اذا خطر لنا ان نحاول اكتشاف الجنرال ديغول في اعمال مالرو لوجدنا انه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد ان الكاتب حاول في كل مرة أن يحدد ملامح القائد وتعبيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال ديغول من خلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الاولى خلال اللقاء الاول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو » في عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التي سجلها الكاتب في الالمدكرات عام ١٩٤٨ . اما المرة الثالثة فقد وقعت في ديسمبر ١٩٦٩ . ولحق ان النقاد قد اعطوا اهمية كبيرة لصورة ديغول في اعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاسا لصورة الجنرال في مخيلة الكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التي سوف يبدو بها ديغول في كتابات مالرو ولم يخيب الظن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل اى تجاوز » . (٨٦)

وفي الفترة التي امتدت من لقاءهما الاول في عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وتعطى لنا نموذجا للجنرال ديغول في صورة حية ومعبرة وجذابة في نفس الوقت .

Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques.....p. 109

( ٨٤ )

( ٨٥ ) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ص ١٤٩ .

Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

( ٨٦ )

قبل اللقاء الاول بين الرجلين لم يكن ديجول في نظر مالرو الا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، وفجأة يتجسد بطل الاسطورة امامه فاراد مالرو لاول وهلة ان يثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ في ذاكرتي بصورة محددة من وجهه فحوالي عام ١٩٤٣ اراني رفائيل ( Ravanel ) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبراشوت ولم تكن نعرف ان الجنرال ديجول كان طويل القامة لهذه الدرجة ( . . . . ) فحتى عام ١٩٤٣ لم تكن نعرف وجه الرجل الذي نحارب تحت قيادته » (٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغيب شيء عن نظره وبعد مفاجأة الملاحظات الاولى حاول مالرو ان يكتشف الشيء الذي يميز وجه الجنرال فكتب « لم أكتشفه ولكني اكتشفت الشيء الذي يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الفم في الحقيقة اصغروا الشارب اكثر سوادا ونجد ان الذي اثر بشدة في نفس مالرو هو « النظرة النفاذة المركزة » . (٨٨) ثم تزداد الصورة اكتمالا باضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك في المقابلة الثانية التي تمت في عام ١٩٥٨ فنجد ان مالرو يعود بذاكرته الى ديجول الذي قابله في المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التي طرات على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شاربه الذي ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى الدفن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) لقد ترك الزمن بصماته على ملامح القائد هذه الملامح التي زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة ( . . . ) . كانت كلماته وتعليقاته تنم عن الدوق وحيانا عن روح الدعاية وعندئذ كانت العين تصغر وتلمح وتستبدل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين الفيل بآبار » (٩٠)

ثم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال ديجول نتيجة المقابلة التي تمت في ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « ان عناء الايام الاخيرة من الحكم قد اختفى ( . . . ) كانت قامته الطويلة التي انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الحجر الصغيرة التي كانت تدفئها النار المشتعلة في المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لادق التفاصيل ولم يفته شيء ونجده يضيف « لقد اكتشفت وانا أشد على يده الى أي حد كانت يدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرتين ودقيقتين » (٩٢) وقد جعله هذا الاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونج اذ حسب قوله كانت « ايدي ماو المحترقة من الماء المغلي تبدو كأنها ايدي شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الاول في عام ١٩٤٥ الذي سجله مالرو في الالامذكرات وحتى اللقاء الاخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح ديجول وصورته تفرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

( ٨٧ ) مالرو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

( ٨٨ ) مالرو ، الالامذكرات ، ص ٢٥ .

( ٨٩ ) مالرو ، الالامذكرات ص ٢٤٢ .

( ٩٠ ) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٥٠ .

( ٩١ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

( ٩٢ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

( ٩٣ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

هذا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن أراد أن يعرفه لنا كما عرفه هو واحبه فنجده يكشف لنا عن جوانب شخصية دييجول من خلال أقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذي يبدو أكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال دييجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبة لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد أن طباعة وأخلاقه هي الأخرى سوف تتطور من لقاء الى آخر أو على الأصح من حديث لآخر .

نجد في عام ١٩٤٥ أن شخصية دييجول فرضت نفسها على مالرو بسبب ما أسماه « شكل صمته » ( ٩٤ ) ففي أثناء هذا اللقاء لم يتكلم دييجول بل كان يوجه الأسئلة ولكن ليس بالأسلوب الفاتر العابر الذي يميز الاستجابات بأسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « أنه يجب دقة الفكر ويمكن أن نتكلم بخصوص دييجول من نوع من البعد الداخلي لم أجده فيما بعد إلا عند ماوتسي تونج » ( ٩٥ ) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكأنه تساؤل موجه الى محدثه . وقد ثبت في ذهن مالرو منذ اللقاء الأول ذكرى هذا البعد الداخلي فكتب عنه يقول « هذا البعد الغريب كان يبدو وكأنه ليس فقط بينه وبين الشخص الذي يتحدث اليه ولكن بين قوله وطبيعته هو أيضا » ( ٩٦ )

لم تكن أقوال دييجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما أسماه مالرو بالحضور المركز وهو ما لم يجده الا عند « الشخصيات الدينية العظيمة ( ... ) ولهذا السبب فكرت في المتصوفين عندما تحدث ( دييجول ) عن الثورة » ( ٩٧ ) كان دييجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه » الوزن الذي تعطيه المسؤولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا « ( ٩٨ ) .

ان كل هذه التعليقات التي دونها مالرو بعد اللقاء الأول لا تكشف شيئا عن ذاتية دييجول ، فهي لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الأسطوري .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال المعيشة لمدة طويلة بجوار القائد أن « يتعود على بعض السياق الفكري وعلاقة دييجول نفسه بالشخصية الرمزية التي يسميها دييجول في مذكراته أو بالأصح التي كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل أبدا ( ٩٩ ) فقد حرص دييجول على أن يخفى حياته الشخصية ، وعمل على أن يظل دائما الجنرال دييجول الرجل الأسطورة وذلك حتى بالنسبة لأقرب المقربين اليه من زملائه وأعوانه ومساعديه ، فلم يكن باستطاعة المحيطين به أن يدهوا أبدا أنهم يعرفون « الرجل الخاص » الذي يمكنه أن يتحدث عن موضوعات شخصية ، إذ لم يكن يترك أبدا شخصيته الأسطورية أي الجنرال دييجول . وعن ذلك الأمر يقول مالرو في الالمذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما عدا أفراد أسرته كصورة مهذبة لشخصيته الأسطورية ( ١٠٠ ) ولقد عمدت

( ٩٤ ) مالرو ، الالمذكرات ، ص ١٣٤ .

( ٩٥ ) مالرو ، الالمذكرات ، ص ١٢٤ .

( ٩٦ ) مالرو ، الالمذكرات ، ص ١٢٤ .

( ٩٧ ) مالرو ، الالمذكرات ، ص ١٢٤ .

( ٩٨ ) مالرو ، الالمذكرات ، ص ١٢٥ .

( ٩٩ ) مالرو الالمذكرات ص ١٥٠ .

( ١٠٠ ) مالرو الالمذكرات ص ١٥١ .

مذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا ديجول فقط ، والسبب في ذلك في رأى مالرو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التي شكلت شارل أما القدر فهو الذي شكل ديجول (١٠١) . فشارل اذا انسان عادي صنعته الحياة بطلوها ومرها كأي انسان آخر ، أما ديجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الاسطوري الذي أعده القدر وشكله ليتحمل المسؤولية الضخمة مسئولية تغيير مصر فرنسا وانقاذها .

لقد لاحظ مالرو أثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ أن ديجول يمتاز بالروح العسكرية التي تتبعها فكرته عن الفعل . وفي رأيه أن تكوينه العسكري قد أثر على فكره والدليل على هذا أنه ينظر الى الحكومة « كأداة نضال في سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخر يميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعته في صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله عن الوقت الذي صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك أن حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما في تشكيل شخصيته كقائد اسطوري .

ثم يلتقى الرجلان وجها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم في التاريخ لا يمكن أن ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والقذوة والمثل الذي يحتذى ، وظل على رأيه هذا طوال حياته ، ويحاول مالرو في هذه المرة الثالثة والاخيرة أن يسجل هذا اللقاء أيضا في عمل أدبي لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « ان هذه الصفحات تكشف أكثر من أي اعترافات عن ديجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحه كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مالرو ذلك شخصيا وذلك في مقدمة كتابه « ان كل ما يقوله الجنرال ديجول هنا يكشف عن شخصيته وأحيانا من نواح سرية (١٠٥) لقد أراد مالرو هنا أن يصور لنا لأول مرة ديجول الرجل وليس ديجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد أراد كما صرح فيما بعد « أن يعطي صورة من الجنرال ديجول داخل التاريخ وخارجه ... لم اهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التي رواها لنا مالرو أكثر ألفة ، فقد كشف فيها ديجول جانبا أكبر من طبيعته الذاتية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض الذكريات العائلية ، ورغم كل ما ذكره ديجول نجد أن مالرو يستخلص في نهاية الأمر أن المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع ديجول فيقول « لقد كان يعبر عن مصر فرنسا وكان لا يزال يعبر عن هذا المصير حتى عندما كان يعلن عن انفصاله عن هذا المصير . ان الألفة مع ديجول

(١٠١) مالرو الالمذكرات ص ١٥٢ .

(١٠٢) مالرو الالمذكرات ص ١٥٥

(١٠٣) مالرو الالمذكرات ص ١٥٥ .

(١٠٤)

Grosjean (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٥) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ص ١١

لا تعنى جواز الحديث عن شخصه لأن ذلك يعتبر موضوعا محرما على العكس من الحديث عن فرنسا ( . . . ) أو الموت « (١٠٧) » .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوة الجنرال دييجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقوة الجنرال دييجول يأتى من أعماله وقت الحرب والمقاومة وهو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تسجيل هذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال دييجول قدوة ومثلا للبطل القومي الذى يجب ان يحتذى ، فهو وحده الذى استطاع ان يواجه العدو بجرأة وشجاعة دون خوف أو موارد ، وهو الذى استطاع على حد قول مالرو ان يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ أو مراوغة منذ اليوم الاول » (١٠٨) .

لقد أحس مالرو بحساسيته وشفافيته منذ اللقاء الاول بينهما عام ١٩٤٥ أنه قد اكتشف أخيرا الشخصية الحقيقية التى كان دائما يحلم بلقاءها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كان دييجول يمثل وقتئذ أسطورة الوحدة الوطنية للعظم الفرنسيين ، وكان بالنسبة لمالرو يمثل شيئا أكبر ، وفى ذلك تقول جانين موسوز عن دييجول « كان يمثل اسطورة ولكن لديه أيضا سمات الأبطال الذين فتنوا مالرو طوال حياته » (١٠٩) .

لقد رفض دييجول الاحتلال والعدوان الالماني من اليوم الاول وهب بشجاعة منقطعة النظير للدفاع عن وطنه الحبيب فرنسا الذى كان يشن من ضربات العدو المجرم . لم يقبل دييجول أن تموت فرنسا أبدا فكيف تموت وهى غنية برجالها من حوله . منذ الأيام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون ألا تموت فرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيل الذى كان يعد حلما فى ذلك الوقت غامر دييجول بكل شيء وضحى بالنفس والنفيس فى سبيل وطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هى شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج دييجول من فرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصيرها .

لقد تجسد أمام مالرو أثناء اللقاء الاول مذكره بوضوح فى اللامذكرات حول دييجول فوصفه بأنه « الرجل الذى أراد أن يتحمل مسؤولية مصير فرنسا وهو رجل تسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المصير الذى استطاع ان يكتشفه وأراد أن يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بسهولة ويسر أن مصير فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذى التقى

(١٠٧) مالرو ، شجر الزمان الذى يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تايين ص ٢٦ .

(١٠٩)

Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٢٥ .

به في اول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هذا اللقاء بحق لقاءً تاريخياً انعكست آثاره على الصداقة التي ربطت بينهما بعد ذلك .

ثم تمضى الايام والسنوات مليئةً بالمحن والخطوب ، ها قد مضى ما يربو على العشرين عاماً على اللقاء الاول وبدء الصداقة بينهما فنجد مالرو يتساءل عما يمثله دييجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضاً ، ثم يجيب أن دييجول كان يمثل بالنسبة للفرنسيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رايته « أحد الرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، أما بالنسبة لشعوب العالم الثالث التي تكافح الاستعمار وتتطلع الى الاستقلال فقد جسد دييجول الاستقلال ( ٠٠٠ ) لقد أعاد فرنسا الى صورتها التي أحببتها في الماضي دول كثيرة ( ١١١ ) لقد بدأ دييجول بالنسبة للاروكت تحقيق للأمانى التي كان يحلم بها كل الفرنسيين ، فهو بطل من أبطال التاريخ كما أن « مجده مرتبط بالمشاعر التي جمعها » ( ١١٢ ) .

يتضح لنا من أعمال مالرو القيمة أن دييجول كان واعياً تماماً لنفسه ولقيمة عمله فنجد أنه يقول لمالرو « لم يكن ما أقوله هو المهم بل كان الأمل الذي أحمله معى هو المهم لقد أعدت وجود فرنسا لأنى أعدت أمل العالم في فرنسا » ( ١١٣ ) ومن هذا المنطلق فقد سعى دييجول الجزء الأول من مذكراته « مذكرات الأمل » .

لقد كان شارل دييجول يمثل دور المنقلب بالنسبة لفرنسا الذي حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقلبين مسئولية أتباعهم . ولقد بدأ هذا الرجل وكأنه رائد لحركة دينية فقد أعاد بناء فرنسا ابتداءً من العقيدة ، وفي ذلك يقول مالرو « أن أى عقيدة تشتمل على إرشاد ربانى في سبيل المسيح أو في سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، أن إيمانه بفرنسا لم يكن كافياً ليصبح الجنرال دييجول ولكن بدونها لكان منتصراً دخيلاً على المنتصرين الحقيقيين ، أو مهزوماً تميز بشيء من البسالة » ( ١١٤ ) .

أن رجل ١٨ يونيو يبدو في نظر أندريه مالرو مثلاً للمفكر صانع الأحداث الذى استطاع أن يفكر ثم يحقق عملاً عظيماً ، وقد تطابقت أفعاله مع أفكاره ونجد أن « الرجل ذو الشخصية » الذى يتحدث عنه دييجول في كتابه « حد السيف » هو نفسه الذى سيصبح قائداً لفرنسا الحرة بعد ذلك .

أن إعجاب مالرو بدييجول كان لا حد له ، كان دييجول يمثل أعظم شيء بالنسبة له وفرنسا فقد جاء فيه في مؤلفه « شجر الزان الذى يقطع » أنه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » ( ١١٥ ) وهو يجد مكانه في صفوف أعظم رجال العالم ولقد كرر مالرو عدة مرات مكانة دييجول بين الرجال العظماء في العالم فيقول مرة « كان الجنرال دييجول الرجل الوحيد الذى يمكنه

( ١١١ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠ .

( ١١٢ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠ .

( ١١٣ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٢٣ .

( ١١٤ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ٣١ .

( ١١٥ ) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٥١ .



ان يأخذ مكانا بعد غاندى وماوتسى تونج وآخرين فهو وحده الذى يمثل الاسطورة القومية » (١١٦) وهذا الشعور نحو ديغول هو ما أحس به مالرو منذ البداية . ففي عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب في جريدة التجمع « منذ ثمانى سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الاصوات التي ادعت انها اصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التى تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) وأخيرا نجد في اللامذكرات بعد لقاءهما الأول ما أحس به مالرو وأعجب به وشده يرباط لا ينفصم الى ديغول فيقول « لقد كان مطابقا لاسطوره » (١١٨) .

ان الشيء الذى كان يضابق دائما العديد من قراء اندريه مالرو الذين كانوا في وقت ما من أشد المعجبين بأدبه وبأعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسي R.P.F. ثم اشتراكه في حكومة الجنرال ديغول التي كانت بعيدة في نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه ايمانويل مونييه Emmanuel Mouniea في مجلة الفكر عام ١٩٤٨ عن هذا الموضوع فقال « حقا اذا كان مالرو كما يؤكد في كل مناسبة وكما تدل قيمة أعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فان موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد في فرنسا وقتئذ ان مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا في سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلي عن الافكار التي جعلته يشترك في كفاح المناضلين بالصين وأسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بأنه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وأنه انضم الى « الحزب المضاد » وكان البعض قاسيا ومتطرفا في حكمه على مالرو الى حد ادانته بالاتجاه في طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والاثر الغريب الذى زاد من قسوة اتهامهم له هو ان اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط ان يدحض هذه الافتراءات والشبهات التي حامت حوله ، ولم يحاول أبدا أن يبرىء نفسه أو يدافع عنها وهو ما نراه غريبا في رأينا .



بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بان التطور الايدولوجي عند الكاتب يمكن ان يتصف بالاتصال وليس بالقطيعة كما ادعى البعض من أعدائه . وذلك لأن الاتجاهين اللذين سلكهما في التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على أوجه تشابه لا يمكن تجاهلها وانكارها ، فاذا ما قمنا مثلا بمقارنة مبادئ الشباب بمبادئ فترة النضج الفكري نجد ان هناك اشياء كثيرة تدل على الاخلاص الفكري لمبادئه فعندما أصبح اندريه مالرو المتحدث ( الشاعر ) باسم تجمع الشعب الفرنسي ونظمه ، وعندما انضم كلية للديجولية لا يصح أن نقول انه قد قطع اتصاله بمثالية شبابه . ونجد أن اليساريين الذين كانوا في فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتعاونيه مع الجنرال ديغول . ويعود سبب هذا الفهم الخاطئ الى الصورة غير الصحيحة التي كانت مأخوذة عنه واعتباره رجلا ثوريا في البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن في رأينا ان اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل أبدا في طريق الماركسية المظلم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض افراده خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

( ١١٦ ) مالرو شجر الزمان ص ١٥١ .

( ١١٧ ) جريدة التجمع Le Ressemblment عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

( ١١٨ ) مالرو ، اللامذكرات ص ١٣٥ .

Cite par Moossuz (j.) op.cit., p. 264

( ١١٩ )

لم يكن مالرو أبدا خائنا لعهد قطعته على نفسه تجاه الشيوعيين كما أنه لم يحنت أبدا بهذا العهد وعندما صار ديغوليا لم يتخل عن آماله وأمانيه التي عبر عنها في أعماله « قدر الإنسان » و « الأمل » . وفي رأي أن جابتان يكون كان محقا في قوله عن هذا الموضوع « في حالة مالرو تبدو لي القطيعة مع الشيوعية وكأنها توصل الى الوحدة والمخاطرة وليس للسهل ( . . . ) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين في الوقت الذي كان فيه من الصعب على المرء أن ينضم اليهم ، ولقد تركهم في الوقت الذي كان فيه من السهل على المرء أن ينضم اليهم » ( ١٢٠ ) .

ان محاولة مالرو للشيوعية لم تكن في يوم من الأيام صدى أو انعكاسا لليمين الكلاسيكي فلقد انفصل هو نفسه عن تجمع الشعب الفرنسي عندما أصبحت تسيطر عليه أغلبية من اليمين . كما يمكن القول ان محاربته للشيوعية لا تشبه محاربة « القوة الثالثة » لها ولا يمكن أبدا تلخيصها في مجرد ادانة الحزب الشيوعي الفرنسي . ويرجع السبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية الى انها لم تعد تعمل على تحرير الإنسان كما كانت تدعى ، فقطع صلته بها أي أنه قطع صلته بأيدولوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه في نفس الوقت لم يتخل أبدا من مبادئه الأساسية وظل محافظا عليها ومتمسكا بها .

وهكذا يبدو لنا أن أفكاره في مرحلة الشباب لا تتناقض مع أنكاره في مرحلة نضجة بل تكملها وعن ذلك تقول جانين موسوز « من وجهة نظر مالرو تبدو الديجولية في صورتها التي يشعر بها وبدافع عنها وكأنها تحقق ثلاثة مطالب هي الحرية والإخاء والسلطة ( . . . ) فالديجولية هي وحدها التي تسمح باقامة الحرية الحقيقية ( . . . ) وتعني الديجولية الإخاء أيضا ( . . . ) الإخاء بين المواطنين المتحدين والمتجمعين في صورة شعب واحد . وأخيرا فالديجولية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة في المكانة الاولى على مسرح الاحداث ، وأن السلطة التي تعطى لرجل هي الوحيدة التي يمكن أن تكفل حرية الافراد ، وهي الوحيدة التي يمكن أن تقدم المثل الأعلى الذي يجب أن تعمل من أجله كل الطاقات ( ١٢١ ) اذا فقدت له الديجولية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظ على الإخاء بين أفراد الشعب الفرنسي ، وقد بدأ ديغول لمالرو كالرجل الوحيد القادر على « اعادة بناء فرنسا » اذا فلم تكن الديجولية الا مسيرة الإخاء التي تجمع رجالا احرارا يقودهم قائد الى تحقيق هدف عظيم . اما في مرحلة كفاحه ضد الاستعمار والتي اثارت جدلا كبيرا فقد كان هدفه في الهند الصينية وفي كفاحه ضد الفاشية في فرنسا والمانيا وروسيا هو دائما خدمة قضية الحرية ، ولم يكن هدفه أبدا الدفاع عن العقائد المتطرفة التي كانت تسعى بكل قواها للسيطرة على العالم . اذ لم يعتنق مالرو وببني الأيدولوجية الماركسية وحول ذلك تقول جانين موسوز « لقد كان التزامه محددا بقيمة ثمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدة الشيوعية التي كان ينتمى اليها بعض المناضلين » . ( ١٢٢ ) وعندما سافر الى برلين مع أندريه جيد André Gide بصفتها مندوبين عن الحزب الشيوعي الفرنسي للدفاع عن ديمتروف لم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الإنسان . وكذلك عندما سافر الى موسكو بعد سفره الى برلين ببضعة أشهر مدعوا من قبل مؤتمر الكتاب السوفييت لم تكن الكلمات التي القاها في هذه المناسبة تتضمن مديحا للنظام القائم في الاتحاد السوفييتي ، بل كانت تتضمن مطالبة عنيدة مصررة بالحرية .

- ( ١٢٠ ) PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques.....p. 110  
( ١٢١ ) Mossuz (j.) op.cit., pp. 244-245  
( ١٢٢ ) Ibid, p. 246

لسوف تبقى الحرية دائما بالنسبة لما روجها معبرا ونبيلا لا يمكن أن يمحي باى حال من الاحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدباء وهذا النوع من الحرية غير موجود في الاتحاد السوفييتى . فالفن مثلا خاضع للنظام الستالينى وعندما يضطر الفنانون أن يصمتوا على مفسى أو يخضعوا للقوانين الظالمة خوفا من الهلاك نجد أن مالرو يثور باسم الحرية .

وهكذا نرى لزما علينا الانشوء أو تتجاهل الدافع الانساني والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المميز للالتزامه السياسي ، وسوف يجدها الالتزام ضالته المنشودة في الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جانين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٣) ويبدو وكأنه وجد أخيرا « نجمة الثابت » الذى كان يبحث عنه وهو الجنرال ديغول . وبناء على ذلك فإذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن أن ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف في خط سير فكره السياسي ، فقد كانت الديجولية كما اتضح لنا تلبية لمطالب مالرو الأساسية والمستمرة وهي الحرية والاخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا أن نستخلص أن التزام اندريه مالرو السياسي بالديجولية لم يكن دليلا على الاخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا أن نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مالرو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر أو سنوات هارئة في حياته بل اعتنق والتزم الديجولية كنهاية لمطافة الفكرى والسياسي ، وعندما وجد فيها بغيته نجد أنه تحمل بشجاعة

مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا في الحكم الديجولي . ولكن يجعل هذا الحكم الحبيب الى نفسه فعلا وحتى تجعل الديجولية من المطالب الأساسية الثلاثة الحرية والاخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزما على مالرو أن يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مالرو يناضل على الدوام في جميع مراحل حياته من أجل قضية نبيلة كانت لها أهمية أساسية في نظره وهي قضية الانسان . ونجد هذا واضحا في التصريح الذى أدلى به في عام ١٩٤٦ حيث قال « ان المسألة التى تطرح نفسها علينا الآن هي معرفة ما اذا كان الانسان قد مات أم لا على هذه الأرض القديمة أوروبا ... ان الانسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الإجابة على ما أراد أن يفعل وليس فقط ما يريد أن يفعل بل أيضا على ما يعتقد أنها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول أن مسيرة مالرو الفكرية والسياسية لم تكن الا محاولة منه للإجابة على هذا السؤال .



أخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبدا من أن نسوق للقارى عبارة لجانين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من أن تحول مالرو من الشيوعية للديجولية ، ثم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فتقول « ان الديجولية التى انضم اليها اندريه مالرو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتغير الا وهو ايجاد الانسان الحر في عالم الاخاء . لقد اتخذت محاولات مالرو صورا مختلفة وبدأت أحيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى ارادة الاكتشاف عنده » (١٢٥) .

Mossuz (j.) op.cit., p. 273

( ١٢٣ )

Ibid, p. 286

( ١٢٤ )

Mossuz (j.) op.cit., p. 287

( ١٢٥ )

### قائمة بأسماء المراجع التي ورد ذكرها في البحث

#### I. Oeuvres de MALRAUX :

#### أولاً - أعمال مالرو

1. *Les Conquérants*, Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
2. *La Condition Humaine*, Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)
3. *L'Espoir*, Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
4. *La lutte avec l'Ange*, I-Les Noyers de l'Altenburg, Editions du Haut Pays 1943
5. *Antimémoires*, Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
6. *Les Chênes qu'on abat*, Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.
7. *Oraisons Funébres*, Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

#### II. Etudes consacrées à Malraux :

#### ثانياً - أبحاث عن مالرو

1. Biosdeffre (Pierre de), André MALRAUX, Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XXèmesiècle)
2. Gaillard (Pol) André MALRAUX, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
3. Id. ; *l'Espoir de Malraux*, Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)
4. Id. *Les critiques de notre temps et Malraux*, Paris, Garnier, 1970, 191 pages,  
Cette ouvrage comprend des articles de :  
—Beri (Emmanuel) : *L'Intellectuel et La Révolution*.  
—MAURIAC (Francois) *Le Romantisme au pouvoir*.  
—Picon (Gaetan) *La Rupture avec le Communisme*.  
—Bor (Claude) *Le Marxisme de Malraux*.  
—Stéphane (Roger) *Les silences de Malraux*.  
—Trotsky (Léon) *La Révolution Etranglée*.
5. —Harris (G.T.), André Malraux, *L'Éthique comme fonction de l'Esthétique*, Paris, Minard, 1972, 153 pages.
6. —Mossuz (Janine) André Malaurax et le Gaullisme, Paris, Armand Colin, 1970 313 p.
7. —Picon (Gaetan) *Malraux par lui-même*, Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages
8. —Id. André Malraux, Paris, Gallinard, 1945, 127 pages.

## چوزين جودت عثمان

### مالرو، سنجور وحضارة الانسان

#### أندريه مالرو ، وليوبولد سيدار سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التي تربط بين هذين الاسمين ، وما مدى أوجه الشبه أو الاختلاف بين أدبيين يتمتعان بمكانة خاصة في تاريخ الفكر المعاصر .

فألى أى حد تصل المقارنة بين أندريه مالرو وليوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على النقيض في أول وهلة . فقد يبدو من العجيب أن نتحدث عن نقاط الالتقاء أو حتى مجرد التشابه بين مؤلف « **القدر الانساني** » (١) أى مالرو وبين مؤلف « **اغاني الظلال** » (٢) أي سنجور .

ذلك أن مالرو كاتب فرنسي بمعنى أنه أوروبي ، أما ليوبولد سنجور فهو شاعر أفريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما أكثر من عنصر ، مما يجعل المقارنة بينهما هامة ومثمرة ، الأمر الذي سنتناوله في بحثنا هذا .

---

La Condition Humaine

{ ١ }

Chants d'Ombre

{ ٢ }

لم تتح للكثير من الناس في التاريخ - تلك الفرصة التي يتحدث عنها الشاعر الفرنسي «شارل بودلير» الا وهي : « ان يعيش المرء حياة يقترب فيها العمل بالخيال » .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل في حياة وانتاج مالرو ، كما اقترنا في حياة وانتاج سنجور وهناك أكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكري ايديولوجي (Ideologique) ولقاء فني استيتيكي (Esthetique) واخيرا لقاء اخلاقي روحي (Ethique) .

١ - الالتقاء الذهني الفكري : الذي يتركز على الإيمان المطلق بافريقيا الغد ، والاعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديغول .

٢ - الالتقاء الفني الاستيتيكي : الذي يقوم على مفهوم معين للفن ، الا وهو اصدق وسيلة لتحقيق الذات للنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفني عند مالرو اساسا هي : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هي : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتي من أن كل عمل فني هو خلود للانسانية ووسيلة مقدسة لقهر عقبات القدر وانطلاق الانسان .

٣ - الالتقاء الروحي الاخلاقي : الذي يتلخص في موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للانسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الارتباط الاخوي ، والانتماء الى الجماعة التي نعيش فيها ، والاعتقاد في ضرورة مزج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهي الحضارة الانسانية (٣) . فالحضارة في المجتمع المعاصر لا يمكن ان تكون الا حضارة قائمة على مزج الحضارات المختلفة للانسان عبر العصور المختلفة وعبر الأجناس والأديان والقارات ، مما يؤدي بالضرورة الى ايجاد موقف اخلاقي معين يسلكه الانسان اينما كان تجاه اخيه الانسان في أي مكان وزمان .



## ١ - الالتقاء الايديولوجي :

« ان المرء ليس ما يخفى وانما المرء ما يفعل » .

تلك العبارة وردت على لسان (Vincent Betger) « فانسات بيرجييه » بطل قصة مالرو « اشجار الجوز في الانتيرج » (١) ويتصد مالرو بهذه العبارة ، أي بلفظة « الفعل » : اقدام المرء

( ٢ ) كلمة الانسانية Humanisme توضع وتميز معنى اعتبار الانسان ركنا رئيسيا في الفلسفة وهي - تختلف عن كلمة الانسانية (Humainite) التي استعملها معظم المترجمين ونحن متفقون مع الدكتور محمد غلاب استاذ الفلسفة بالجامعة الاهلية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه من علاقة الاسلام بالثقافة والانسانية في عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الاسلام » ( دار الشعب ) .

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مالرو هو الذى يحدد الانسان تماما ويميزه عن غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مالرو الذى مارسه فعلا في حياته كما مارسه في انتاجه .

ان حياة مالرو معروفة للجميع ، كما نعرف ايضا نشاطه السياسي وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الذى لعبه هذا الكاتب الديجولى في المقاومة الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية .

واذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبل الاربعينات رأينا : مالرو شابا نثيا أى في الثالثة والعشرين من عمره ، يكثر من رحلاته الى الشرق الاقصى وينظم حركات تضامنية تحريرية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « آنام الفتية » فبلاد الانام هذه - وهى جزء من الهند الصينية - كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مالرو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به في اعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته ان تلك الحياة ما هى الا استجابة لاحداث توالى عليه . كما ان انتاجه الفنى ما هو الا تلبية لنداءات ومحاولة اجابة عن تساؤلات في فترة تتميز بكثرة الاحداث الفنية والسياسية التى اشترك فيها بالعمل وبطريقة ايجابية . فحياة مالرو كما يعلم الكثير منا - تعتبر مسيرة من تاريخ سياسى الى تاريخ الابداع الفنى ، وانتاجه الفنى ما هو الا لقاء الانسان بالقدر . بمعنى أن كل ما كتبه أندريه مالرو هو تعبير حقيقى وفعلى نتج عن موقفه وفعله تجاه الاحداث التى طرحها عليه القدر . واعمال مالرو الادبية تحليل شغوف للمصير البشرى الذى طالما راود فكره فكتب عنه الكثير ، ولا تكون مقالين لو قلنا انه كتبه .

يمكن ان ننسى انه مؤلف « القدر الانسانى » .

ودور مالرو الذى لعبه بجانب الوطنيين الاسبان في المقاومة الاسبانية يظهر لنا بجلاء في بعض اعماله الادبية خاصة روايته « الأمل » (٥) .

وأخيرا لا يقل نشاط مالرو في المجال الثقافى والفنى البحث عن دورة في المجال النضالي .

فاعمال مالرو الفنية تكاد تكون لاحصر لها . ونذكر منها أهمها : -

- اللامذكرات : (٦) .

- الجبل والفيضان : (٧) .

---

L'Espoir	( ٥ )
Les Antimemoires	( ٦ )
La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tele d'Obsidienne Lazare	( ٧ )

- الذى يتجزأ الى : -
- زوار ماريق .
- اشجار الزان التى نقطعها .
- رأس السبج البللورية .
- عازر .
- مرثيات (٨) .
- اغراء الغرب (٩) .
- عطار ( ساتون أو بحث عن الرسام جوياس ) (١٠) .
- أصوات الصمت (١١)
- المتحف الخيالى ( ويشمل عدة أعمال فى الفنون التشكيلية ) (١٢)
- تحول الآلهة (١٣) ويشمل : مابعد الطبيعة
- اللاواقعية (١٤) .
- اللازمى (١٥) .

وفضلا عن كل هذه الأعمال فهناك نشاط ملحوظ ومستمر للارو فى المجال الثقافى نفسه ،  
فما أكثر ما كتبه من أبحاث ومقالات ومحاضرات عن مفهوم الثقافة ودلالاتها ودورها فى حضارة  
القرن العشرين ، وما يمكن ان تقوم به من دور خطير فى تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ فالإنسان  
فى مفهوم مالرو انسان شامل متكامل ومزيج من مختلف حضارات البشر .

وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر القارة السوداء ليوبولد سنجور ، ومفهومه عن الثقافة والانسان .

وليوبولد سيدار سنجور وان كان غنيا عن التعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر أولا وقبل ان  
يكون سياسيا ناجحا وزعيما مناضلا . فرئيس جمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

Oraisons funebres	(٨)
La Teutation de l'occident	(٩)
Saturne (Essai sur Goya)	(١٠)
Les Voix du silence	(١١)
Le Music Imaginaire	(١٢)
La Mitamorphose de Dieux	(١٣)
L'Fuier	(١٤)
L'Intemporel	(١٥)

( ١٦ ) ولد ليوبولد سيدار سنجور يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٠٦ فى قرية « جوال » على بعد حوالى مائة كيلو متر  
من جنوب العاصمة السنغالية دكار . وبعد ان حصل على شهادة الاجريجاسيون من باريس بدأ حركة نضال من أجل  
استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسى واستقلال دول افريقيا كما ناضل من أجل مكانة الرجل الاسود فى العالم المعاصر  
وخلق هو رفيق نضاله وفكره الشاعر الماريتيكي ايمى سينير - مفهوم « الزنوجية Negritude » كما  
اشترك سنجور اثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومة الفرنسية ضد الفزوز النازى .



تحرير بلاده واستقلالها الذي ناله عام ١٩٦١ وانما كرس كل جهوده في تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث ( Negre Nouveau ) الذي هو اساسا عضو هام في المجتمع المعاصر فهو يشغل مكانة لها اهميتها في الانسانية الحديثة حيث الانسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السوداء .

وبعبارة أدق فالانسان الجديد في مفهوم سنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذي يضعف وتتلاشى فيه قيم ومعان حضارية بدات تضمحل تحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثة تطعيمه بدم الرجل الاسود ، دم القارة الفتية الذي سيحيى البشرية بقيمه وتراثه الحضاري الاصيل .

يجوز لنا أن نقول عن مالرو كما نقول عن سنجور أن كليهما « شاعر » مناضل وفنان مؤمن بالانسان كما سنرى في بحثنا هذا . فلا عجب في أن نرى مالرو يكتب أول ماكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكعيبي » (١٧) ، ولا عجب أيضا أن نرى الشاعر الأسود يعمل بالمقاومة ويناضل طول حياته من أجل استقلال الشعوب السوداء فكل ما فعل وماكتب محوره هو تكامل الحضارات والأجناس وأحياء أمجاد وتراث الجنس الاسود عن طريق استرداد الرجل الاسود لمكانته الحقيقية في المجتمع المعاصر . كل هذا يظهر ويتلخص في شعر سنجور في فكرة العودة الى الوطن الأم - ( افريقيا ) .

**ولكن الذي يقرن اعمال سنجور باعمال مالرو عاملان : -**

**اولهما : نظرية تكامل الحضارات ومزج الأجناس لخلق الانسان من جديد .**

**وثانيهما : ايمانهما برسالة الفن كعنصر أساسي يرتكز عليه المجتمع .**

فان سنجور عندما يتحدث عن تجربته الشخصية يتفنى أيضا بكل آمال وطموح وآلام أبناء جنسه ، وبالتالي فهو يعبر بصدق عن تجربة حقيقية تعرض لها : ألا وهي بحث الانسان عن ذاته وعن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيم الحضارية الاصيلية ، وهذا فعلا - كما سوف نرى - ما يصبو اليه مالرو من خلال تجاربه في الفن والسياسة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسالاته الحضارية القيمة كعنصر أساسي يرتكز عليه مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيم الثقافية العريقة التي تخلق الانسان ، بمعنى أن الانسان هو الذي يسيطر على العالم ولا يخضع لسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة في المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الاليمة على مالرو وعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بمجتمع السلام والبناء والقيم الحضارية بدلا من مجتمعات الخراب والدمار واستغلال الشعوب بعضها البعض نتيجة لهذه الايديولوجيات المزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة ، ودكتاتورية تتحكم في مصير البشرية جمعاء وتذيقهم المهانة والذل فتتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الملامح

الإنسانية . ويؤكد مؤلف « الالامذكرات » هذه الحقيقة في إحدى مقالاته وذلك عندما يطرح بجديّة هذا السؤال : « ماهو الفن » ؟

فإن السؤال الثاني يأتي على الفور الا وهو : « ماهو الإنسان » ؟

فمفهوم الفن اذن عند مالرو هو تعريف للإنسان ، ودلالة على كيانه البشرى الذى يصنع القدر ويتمرد عليه حينما يخالف معايير ومقاييسه وطموحه لتحقيق ذاته .

الفن اذن ليس خضوعا للقدر ولكن بفضل يتغلب الانسان على القدر وعلى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقا لطموحه وآماله ، وبذلك يصبح هذا الفن السلاح المقدس الذى يغزو به الانسان العالم وأن لم يستطع الغزو الفعلى المادى الملموس فعلى الاقل يتحرر من الاغلال والقيود والسيطرة ايا كانت ، وينطلق انطلاقة الحرية معبرا عن ذاته فى أعماق اعماقها ؛ وماعمل سنجور الشعرى الا صرخة انطلاق .



لقد كانت اول مقابلة بين مالرو وسنجور فى بداية عام ١٩٦٦ وفى مدينة داكاز بالسنگال وقد ترك هذا اللقاء فى نفس مالرو انطباعا عن شخصية سنجور ومن أفريقيا عامة ، أوضحه مالرو نفسه فى مذكراته حيث يقول فى احدهما : ( ١٨ ) .

« داكاز مارس سنة ١٩٦٦ .

قدم الرئيس ليبولد سنجور ، رئيس جمهورية السنغال فى داكاز مع مجموعة من النحت الافريقى الموجود فى أفريقيا ، وهى تتكون من ستمائة قطعة .

وهناك أيضا قالب القناع الشهير الذى يظهر الفن الافريقى لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولفنانين كثيرين غيرهم . وقد أقيم المعرض فى المتحف الجديد المصنوع من الزجاج والصلب الذى اتم الرئيس بناءه مؤخرا .

ولقد ذهبت أمس الى المعرض لأننى أعرف بالخبرة انه لا يمكن رؤية شيء اثناء الافتتاح ولا اعتقد أننى شعرت يوما الى هذا الحد بمدى تحول الآلهة حتى عندما كنت أعمل فى المتحف الخيالى للنحت ؛ أن متحفنا هذا للإنسان وماهو الا معرض لعلم الاجناس وفيه تقص الآلهة لبعضها البعض قصة الوهيتهم وعلى بعد بضعة كيلو مترات من هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهى تتميز بالاكواخ المخروطية الشكل .

Hotes de passage ( ١٨ ) لوار مارين

( ١٩ ) رسام فرنسي ١٨٨٠ - ١٩٥٤ ( Derain ) .

( ٢٠ ) رسام فرنسي ١٨٧٦ - ١٩٥٨ ( Vlaminck ) .

ولا تصبح الالهة أبدا تماثيل بهذه الدرجة الاخذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا من ذلك يكونون عادة من الاجداد ، أن للفرب قدسية وللصين موتاهما اما أفريقيا فلها أصنامها ؛ وقد أشرت منذ بضع سنوات في احتفالات تحرير السنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديغول التحرر لبلاد أفريقيا الاستوائية القديمة من السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية أفريقيا الوسطى ، الكنفو ، وجابون ، وقد كانت أفريقيا الاستوائية هي أفريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف كونراد - وهي أيضا الإدغال تترصده للعواصم . وفي تشاد ... في فور لامي عند رحيل ليكلارك كان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم أصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ، وعندما أردنا الرئيس تومبالباي وأنا الذهاب من قصره الى مربته الكاديلك وطولها ٢٠ مترا ، كان علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا أجسادهم باللون الأزرق ، وفي الميدان الكبير كان - هناك عشرة آلاف من المنتمين الى القبائل تهزهم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية - ما عجب هذا التناقض بين أفريقيا الماضي وأفريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ما قبل التاريخ وأفريقيا اللانهائية التي رأيتها من الطائرة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام في وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالامس كانت كلمة تشاد تعني بعض الوظائف المتناثرة في عزلة الصحراء البعيدة ، أما الآن فتشاد تعني كل هذه الجموع التي لا أدري من أين أتت . ويبدو لي هنا في أفريقيا الظاهرة نفسها التي شاهدتها في آسيا من قبل فمن أي سافانا برزت هذه الجموع التي منذ الآن وصاعدا تبدو كأنها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباي أن يقيم دولة من هؤلاء الراقصين ، المطلية أجسادهم باللون الأزرق ، وحاملى الأقنعة والفرسان الكارو لنجيين (٢١) اسلام أفريقيا السوداء ووثنياتها وعلى امتداد الطريق من دكاكر الى برازافيل ترتفع المباني الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تعلو الرقص العريق وتعد الأمم الصاخبة بقيام الدولة ...

... كان رفاقي يرقبون انزال علم فرنسا ورفع علم تشاد بغضب مألوف لم أشاركهم فيه . فقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة ١٩٢٥ بدافع من كراهيتي للاستعمار الذي عرفته في الهند الصينية .

أحد المحافظين الفرنسيين الذين حكموا تشاد في الآونة الأخيرة ويدعى مارسيل دو كوبيت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « اندرية جيد » لزيارة تشاد . وتكفيني هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع أن تعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى ؛ ويرجع

لنا الفضل نحن الديقوليين في أن كل هذه الأعلام القومية ترفرف على سماء أفريقيا فقد نفذنا ما وعد به عبثا خصوصنا منذ أمد طويل ، وإذا كان أسلافنا قد أنبهروا بالامبراطوريات فقد أنبهرت أنا بالمغامرة التي قادتنا الي الميادين الأفريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون المطلية أجسادهم ، قادتنا أيضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدث الرجال السود بعضهم البعض أمام المتفرجات المنبهرات في زيهن القومى كما يحدث في قرطاجنة (٢٢) .

فكما رأينا بادىء ذي بدء هناك لقاء أندريه مالرو بأفريقيا السوداء فمالرو تعلم أن يكتشف أفريقيا من خلال زيارته لها .

« فبين الزيارة البروتوكولية للرئيس سنجور وبين افتتاح متحف الفنون الزنجية بذاكار، ذهبت الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ أمد بعيد ، ربما بسبب تغنى سنجور بهذه المنطقة التي تعرف بمنطقة الجزر » (٢٣) .



وفعلا هناك قصائد عديدة للشاعر الأسود تغنى فيها بجنوب السنغال اى الكازامانس . تلك المنطقة الشبه استوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة، وخاصة غابات - النخيل الذى هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المقتطفات من ديوان « حبشبات » وعنوان القصيدة : « رسائل الى الاميرة - الماركيزة دانييل دى بيتفيل » ( ٢٤ ) :

« وصلتنى رسائلك يا اميرتى، في قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الاجداد القدامى ... » .

ولكننا لانستطيع أن نتحدث عما كتبه سنجور عن أفريقيا ، لان كل ماكتبه سنجور هو أفريقيا ، فهي الامل والحلم والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومة والانوثة والحب في مؤلفات شاعر أفريقيا الاسود .

#### ويستطرد مالرو حديثه قائلا عن القارة الشابة العريقة : -

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمناظرها الخلابة : جزيرة جوريه التي توحى بأجمل اللوحات الفنية ، وتوحى بشهامة الماركيز دى بوفليير (٢٥) ومغامراته الماطفية العديدة ، والنساء اى سيدات المجتمع « السنيار » (٢٦) بملابسهن

( ٢٢ ) زوار ماريين : Hotes de passage

( ٢٣ ) زوار ماريين

( ٢٤ ) والدة زوجة الرئيس سنجور .

( ٢٥ ) الماركيز دى بوفليير كان فارسا في القرن السابع عشر عين حاكما بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام دكار في المحيط الاطلسي وهي مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى أوروبا وأمريكا .

( ٢٦ ) السنيار : كلمة تأتي من اللغة البرتغالية بمعنى سيدة من طبقة عالية .

الزاهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية المنعش كان يهتف على ليل افريقيا .... » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا في قصائد سنجور الا وهى « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : -

« جوال » :

أننى مازلت أذكر ....

مازلت أذكر السيدات السينار فى ظلال الشرفات الخضراء ، السينار ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطئ ... » (٢٨).

وعندما يتأمل مالرو من بعيد منظر جزيرة جورية هذه التى تطل على شواطئ داکار فهو يتذكر بالآخرى كل ماكتبه سنجور عن تلك النقطة، فنافذة الشاعر فى مكتب قصره بداكار تطل على نفس المنظر ، وكم من مرة نظر الشاعر واستلهم أجمل ماكتب من تلك المناظر الاخاذة ...

ويحذق مالرو النظر لعله يعيش ثانية هذا العهد الذى انطوى مع قرون مضت والذى طالما تحدث عنه سنجور وأثر على مالرو حتى أنه أصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خلال ما كتبه .

وترد على خاطره صور السيدات الجميلات بأطرافهن الناعمة التى تتالق تحت ظلال الخضرة الوارقة والورود الحمراء ، بملابسهن الهفافة الرقيقة ... ولكنه لا يشرح بخياله فقط وإنما يعيش أيضا من خلال اعمال سنجور واقع السنغال الحالى، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال عن الشاطئ والغاية والبشر والقرية والتخضر والتأخر ( اذاً جاز لنا هذا التعبير بمعنى المنظر التقليدى للبلاد ) فيعجب مالرو بالطقوس والعادات - والتقاليد فى نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذى لم يعد له سوى دور روماني ، وعن ملوك القبائل الذين يجتازون كل انواع التحديات حتى يفوزوا عن جدارة بمناصبهم ... فمثلا يضرب حتى الموت ، فان نجح فى الصمود يصبح ملكا ، أى ان هناك قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام مازالت حية وقوية فى ادغال القارة السوداء تسترعى انتباه مالرو بل تثير إعجابه وتقديره .



وقصة لقاء سنجور ومالرو ترجع الى امد بعيد ، ولكن الالتقاء هو أعمق ، وطالما وجد فى فكر وعمل كل من الكاتبين . فما أكثر لقاءات سنجور بمالرو الفعلية ولعل أهمها هو أولها ، حضور أندريه مالرو لافريقيا السوداء من أجل افتتاح أول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيم فى داکار عاصمة السنغال فى سنة ١٩٦٦ بمناسبة اعياد استقلال السنغال .

( ٢٧ ) الرأس الاخضر : رأس من الارض ممتدة فى المحيط الاطلسى فى منطقة داکار .

( ٢٨ ) من اغانى الغلال .

**ويجب ان نتوقف لحظة عند هذه العبارة الاخيرة اى استقلال السنغال .**

**فقد يتساءل القارىء ، ومعلقة هنا بذلك ؟ اى معلقة استقلال السنغال باندرية مالرو ؟**

الواقع أن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة ورجل النضال اندرية مالرو في عهد شارل ديغول وبين مولد دولة ناشئة في افريقيا السوداء السنغال فربطت نفس المبادئ بين قارئتين متناقضتين في الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك الا وهى أوروبا وأفريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثير من أجل بلاده : شارل ديغول وعلاقة مالرو بالجنرال شارل ديغول لا تخفى على أحد ، والدور الذى لعبه مالرو سواء في الكفاح مع ديغول في احياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، أو كوزير لديغول في المجال الثقافى ، فكان اندرية مالرو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضارات وتقوية الصداقة والاخوة بين مختلف الاجناس والشعوب .

فما من احد لا يعلم الكثير عن وطنية الجنرال ديغول وما فعله من أجل احياء فرنسا المعزقة المهزومة في مستهل الحرب العالمية الثانية ضد الالمان ، وما من احد يمكنه أن يتجاهل الدور البطولى الذى قام به ديغول في صنع فرنسا الحديثة ، وما من احد من قراء مالرو يمكنه أن ينسى ما فعله مالرو ، وكاتب **الامل واشجار الجوز بالانامبرج** في هذه الحرب الشعواء التى طالما مزقت وهددت كيان أوروبا وتسببت في قيام حركات النضال من أجل استرداد الحرية على الصعيد السياسى فكانت حرب المقاومة ، كما كانت كانت سببا أيضا في قيام حركة فكر واسعة الابعاد عنها نشأت فلسفة العبث مثلا على ايدي البير كامو واندريه مالرو وآخرين .

**وعلى ذكر العبث ، فمن العبث فعلا أن تتجاهل فرنسا في الثلاثينات وما بعدها حقوق الشعوب السوداء في الحرية والاستقلال في تقدير سنجور .**

فرنسا بلد الحرية التى طالما كافحت من أجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك على حد تعبير ديغول ومالرو نفسه حتمية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التى تحمل مشعل الحرية أن تترك لبلاد افريقيا السوداء حق تقرير المصير ، ولذا ايضا وعلى يد شارل ديغول كان اللقاء التاريخي بين سنجور وديغول الذي امر عن استقلال السنغال .

اما اعجاب الرئيس الشاعر سنجور بديغول فيمكن ان نلخصها من خلال رؤية لشخصية ديغول نفسه والذي أطلق عليه الشاعر الاسود اسم « الجيلوار » اى الفارس الهمام باحدى اللغات السائدة في السنغال وهى الولوف .

**وترجع قصة سنجور مع ديغول الى عهد الحرب العالمية الثانية** حيث أسر سنجور كجندي في الجيش الثاني للفرق الاجنبية التى كانت تحت اللواء الفرنسى ضد الالمان ، واصبح الشاعر اسير حرب في معسكر مدينة اميان بفرنسا لمدة ثلاث سنوات تقريبا ذاق خلالها ألوانا من العذاب هو وأمثاله من الرجال السود الذين على حد تعبير سنجور نفسه « قدموا أنفسهم قربانا لكى تعيش

فرنسا . وكان هذا الموقف ينجم عن اعجاب سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فبينما رفضت قوات ساحل العاج أن تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجندوها ودماء أبنائها الشهداء الذين يصنفهم سنجور في ديوانه « القرابين السود الذى ظهر في عام ١٩٤٨ في قصيدته المعنونه : « Assassinate » على هذا النحو : -

« هاهم ممددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثة .

هؤلاء ، أشجار الحرر المشوكة .

تمائيل الآلهة السوداء ملتفين بغلاف براق من الذهب .

هؤلاء شباب السنغال الاسرى الممددون تحت تراب أرض فرنسا . . . . . »

كتبت هذه القصيدة في معتقل رقم ٢٣٠ اثناء الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور مع رفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان في الازمات والشدائد يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكف يقف وقفة واحدة ويذا واحدة في مواجهة الصعاب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا في موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول في قصيدته الشهيرة « الى الجيلوار » التى كتبها في معتقل اميان في عام ١٩٤٠ وهى استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنسا مقابل وعد منه لتحرير بعض دول افريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسى الذى تم فعلا في حضور مالرو نفسه ! .

« جيلوار » ! (٢٩)

لقد انصتنا اليك ، واستمعنا اليك باذن قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا في قلب ليل السجن الذى نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الغاب وكم انتفضنا حرارة واستجابة في ذل السجن ومهانتة ! .

اننا كصغار العصافير الذين سقطوا من عشهم ، اجساد محرومة من الامل تتعرض للاذى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطومة الاظافر ، جنود بغير سلاح رجال عراة .

وها نحن نتخبط ونتوه كالضربير الذى لا يجد الايدي التى تساعد .

اشرف الاشراف قد ماتوا : لانهم لم يقدروا على ابتلاع خبز العار في الاسر .

---

( ٢٩ ) كلمة الجيلوار : وهى باحدى اللغات القومية في السنغال تعنى الفارس المقدام الهمام الذى اشتهر في حفارة افريقيا السوداء باصالته وشهامته في الحرب وفي حماية المرأة والطفل والشيخ وهو الفارس الفوار الذى يمثل به كل شاب في القبيلة والعشيرة ويتمنى ان يصل الى مرتبته في الشجاعة والكرم ونبل الاخلاق .

وها نحن واقعون في الفخ ، في قبضة يدوحشية تبدو فيها كالحشرات ، فالمجد العربات  
المصفحة والدبابات وقنابل الطائرات ! .

لقد بحثنا عن مأوى ، عن سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا  
عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن رفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع أن نتعرف  
على فرنسا .

وصرخنا ليل الآمنا ، ولكن ما من صوت أجابنا . أسياد الكنيسة قد التزموا بالصمت  
وأسياد الدول قد أشادوا بعظمة الضياع الحقيق .

هل هذا هو وقت الزوج ؟! أهذا وقت الرجال ؟! لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى  
أوروبا ! .

جيلوار !

ان صوتك ينطق بالشرف والامل والنضال ، وترفرف أجنحته في أعماق صدورنا .

ان صوتك سيعلم لنا الجمهورية التي سوف نشيدها في مدينة المستقبل في اليوم  
الأزرق . في مساواة الشعوب الشقيقة وعنداذن نرد عليك :

« نعم يا جيلوار ! ها نحن بجوارك ورهن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر اصدق تعبير عن اعجاب سنجور بديجول وعن موافقه كصديق  
وكاخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشى ، دنس ارض الوطن الحبيب .

فالصديق لا بد ان يسعف صديقه في وقت الشدة . ولعل اصدق مثال على ذلك هذا البيت  
من شعر شوقي في قصيدته « دمشق »

« كلنا في الهم شرق » !

وهكذا سمع ديجول النداء ووفى بوعده وتحررت السنغال وعلى أيدي مالرو نفسه !

ولكن اعجاب مالرو لافريقيا لا يقف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شديد الاعجاب  
بترالها الفنى السخى المعبر ، وبدا نصل الى نقطة اساسية تجمع بين سنجور ومالرو ، اى الالتقاء  
الاستيتيكي ( الفنى ) :

• • •

## ٢ - الالتقاء الاستيتيكي :

كثيرا ما يتعرض مالرو لامر يرجعه الى حد كبير ، فهو يروى ان الفن في المجتمع المعاصر  
اصبح ذهنيا ، اى اننا عندما نرى في اى متحف اى تحفة فنية نراها باعينا فقط ونقميها



بمقاييسها الجمالية التى اعتدناها واتخذناها معايير لقوانين الجمال ، ولكن أين معناها الحقيقى ؟ أين جوهرها الذى يتضمن المعانى العميقة ، والفلسفة دينية كانت أو روحانية التى من أجلها خلقت هذه التحفة ؟ .

ان الأمر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائى أو الفن فى أقصى الشرق والحفارات القديمة وافريقيا السوداء ، حيث ان الفن كما يشرحه سنجور ما هو الا تعبير عن ذات الانسان البدائى بغض النظر عن المعايير الجمالية والمقاييس الاستيتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفنى من خلال رؤيته هو للواقع ، فالفن عبادة وتعبير وليس أداة جمالية وانما أداة للوصول الى المقدسات وعالم الارواح والاتصال بالعالم العلوى . وعلى هذا الاساس فالعمل الفنى مثل القناع أو التمثال أو الاصنام أو أى تيمة من هذا القبيل انما هو فى حد ذاته تعبير واتصال روحانى مع الآلهة والاسلاف والاجداد ومن ثم فصانع التيمة أو القناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية أو معايير استيتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معانى ورموزا معينة تعبر عن فلسفة محددة ومفاهيم معينة لاناس ينتمون الى قبيلة أو عشيرة لها معتقداتها ومقدساتها ، وبالتالي فان هذا العمل الفنى يعبر عن مشاعرهم تجاه تلك المقدسات والمعتقدات ويجسد افكارهم واحاسيسهم .

**والفن فى افريقيا السوداء كما يقول سنجور ملتزم ، بمعنى انه لا يوجد هنالك فن جمالى بالمعنى المألوف . ولكن الفن له شكل وظيفى أى انه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من أجل غرض معين وكل انسان فى القرية فنان ، وان كانت هنالك درجات مهارة تتفاوت فى الأداء . ولكن أى شخص فى القبيلة يستطيع ان يخلق قطعة فنية أو تيمة أو قناع أو يقوم برقصته ، لان المقصود من أداء العمل الفنى هو الاتصال بالاجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويحققون الأمنية المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر عن طريق العمل الفنى نفسه ، فالفن اذن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل أى اعتبار آخر . فالرنجى يلمس ويحس العالم المحيط به عن طريق حواسه التى يعبر عنها فى كل عمل فنى .**

وهنا يتقابل فكر مالرو بموقفه سنجور الذى ما زال يعيش فعلا ما تمناه مالرو ، أى إعادة الأبعاد المقدسة والمعانى العميقة لكل عمل فنى .

وهذا هو سر الصداقة والامعجاب الذى كان يربط مالرو بالرسام العالمى بابلو بيكاسو Picasso الذى يعتبر أيضا صديقا للشاعر ليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور ببيكاسو وطيدة وقديمة نذكر عنها هذه القصيدة المهداة لبيكاسو من ديوان « أغاني الظلال » وعنوانها « قناع زنجى - الى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هى هادئة فوق طهارة الرمال .

كومباتام (٣٠) نائمة تستر نخيلة خضراء شعرها الأحمر وجبينها النحاسى

الجفن مغلق والحاجب والمقلة الى الأبد .

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداء الرقيقة أين منها الآن ابتسامة الأنثى المتواطئة الحنون ؟ .

ورقة الخد ، ورقة الدقن ينشدان توافق الخط والرسم في متحف

يا لك من رأس نحاسية كاملة يصقلها الزمن ،

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولا تجاعيد ولا علامات للدموع أو للقبلات .

يا لك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تنفرج بحنان حتى لا تثير شهوى .

اننى أعبلك يا جمال بمين « أحادية الوتر »



اكتشف بيكاسو الفنون الزنجية في حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى تشابها الى حد كبير بين اسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجية . فاولا يعتبر بيكاسو شديد الاحساس بأشكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جمجمة الموتى » « منكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس » و « جواد الموت » ونستطيع ان نرى هاتين الأخيرتين في لوحة بيكاسو المشهورة « جرنیکا » Guernica .

وبذلك فان أعمال بيكاسو تنادى عبر القارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدسة بأدغال إفريقيا التي تجذبنا بسبب مالا نعرفه عنها تماما مثل تماثيل الآلهة في مصر القديمة التي لم تعد بالنسبة إلينا تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهة سومر التي لا نعتقد فيها الآن ، أو آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الأقصى أو حتى القديسين الذين لم نعد ندعوهم ، أو الأقنعة والأصنام التي لم تعد بالنسبة إلينا أرواح الأجداد ، ان كل هذا الآن لا يحمل لنا المعاني نفسها التي كان يحملها لأولئك الذين ابتدعوه ، ولكن يكمن في كل عمل فنى مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويستمرى أعجابنا .

وفن بيكاسو يتماشى بل يلتقى مع الفنون البدائية ، فبيكاسو يحيى تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه أساسا يحطم بفنه كل التقاليد ، ولا يعترف بأن هناك شيئا يسمى استمرار اسلوب أو مذهب . فيقول مالرو على لسان بيكاسو (٣١) :

« فليسقط الاسلوب ! هل كان لله اسلوب ؟ ان الله خلق القيثارة والكلب والقط والبوم واليمام ، مثلى . والفيل والحيوت ، نعم ، ولكن الفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، أى خلق من العدم ، وها أنا أيضا أخلق من العدم ، وخلق الله أيضا فن الرسم ، وأنا أيضا » .

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال في الفنون الزنجية فان الخلق الفني يأتي من أعمق أعماق اللاشعور ، وباطن الانسان بكل ما هو قريب منه اعتاد عليه والف ، وبكل ما هو غريب يجهله الانسان ، ومن هنا يأتي الشعور بشيء مالا نعرفه ، أو بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول أن تملأه بمعتقدات أو تقاليد أو مقاييس ولكن بقي هذا الفراغ الروحاني في القرن العشرين بل ترايد . فبينما ناشد الفن الكلاسيكي سعادة الانسان في الطبيعة والتوازن بين المرء والأشياء وجمال الكون ونظامه ، وبينما ناشد الفن المسيحي عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ، نرى الفن في القرن العشرين يحث الانسان على التمرد على الاوضاع وتدمير المعتقدات الزائفة والتقاليد الخائفة ويدمونه الى التعبير الصادق لما يعرفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد بالحرب والدمار في عالم دون معونة الله .

ولعل سر أجمل عمل فني هو قابليته للتغير ، بمعنى ان كل واحد يرى فيه شيئاً يختلف عما يراه الآخر . وكل مذهب أو مدرسة فنية تكتشف فيه أبعاداً جديدة وأسراراً جمالية أو فلسفية أخرى ، قد تتعارض مع الاكتشافات السالفة ولكن يستمر العمل الفني ويفرض نفسه فرضاً على الزمن وعلى المفاهيم والنظريات المختلفة التي تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتالي فهو قائم بذاته مستقل عن الذي خلقه وعن الذين يشاهدونه عبر الاجيال والعصور .

#### ويضرب مالرو امثالا عديدة في هذا الشأن نذكر منها الآتي : -

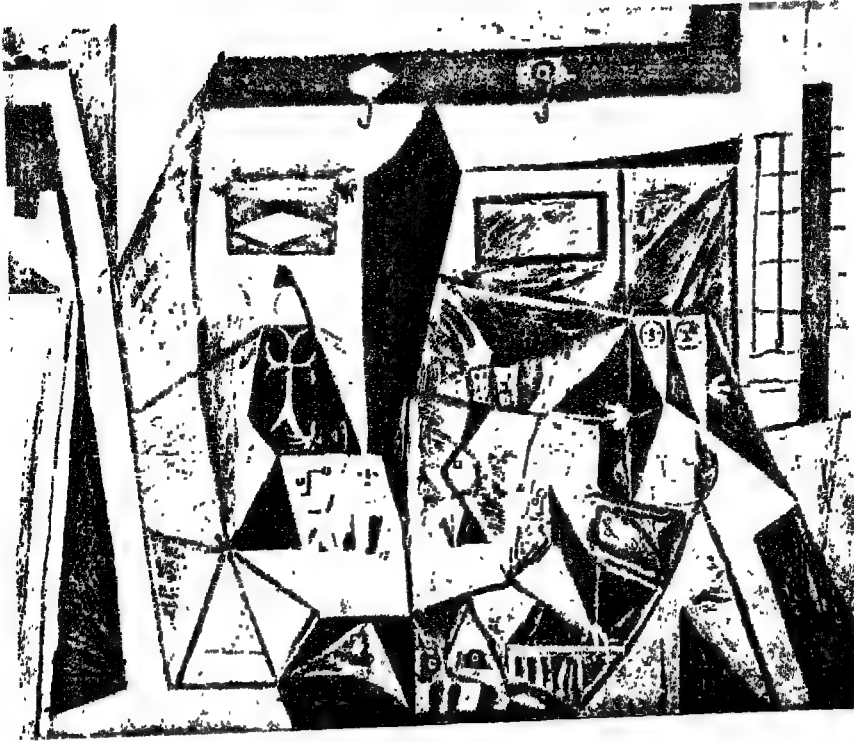
ان الرسام العالمي « رامبراندت » (٣٢) مثلالم يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوخ » (٣٣) لم يعد يفهم بنفس الطريقة التي كان يفهم بها ويقيم في زمن دولا كروا (٣٤) اذ ان دولا كاروا كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التي كان هو نفسه متأثراً بها ، أما فان جوخ فقد رأى فيه كل عناصر المدرسة التأثيرية التي ينتمي هو نفسه اليها .

ويعتقد مالرو ان ميزة الفن الحديث انه لا يحاكي الطبيعة ولا يسرد ولا يحكى مثل الفن الكلاسيكي أو الرومانسي ، وإنما هو يحطم الشكل المألوف ويعبر عن رؤيته الخاصة للعالم الخارجي ولا حاسيس الفنان شخصياً ، ومن هنا يلتقي بالفن البدائي ، فالفن الحديث حطم الشكل التقليدي وخلق لنفسه معايير شخصية للإبداع الفني ، مثلما هو الحال في فن بيكاسو مثلاً . وكما هو مبين في نفس اللوحة التي رسمها الفنان الأسباني الكلاسيكي Velasquez « فيلا سكوير » وبعدها رسمها بيكاسو والمسماه « المنين » (Les Menines) (٣٥) .

ويتضح اختلاف الأداء في اسلوب الرسم في معالجة نفس الموضوع .

---

Rembrandt	( ٣٢ )
Vau Gogh	( ٣٣ )
Delanoix	( ٣٤ )
Les Menines	( ٣٥ ) المنين : هكذا تسمى كل سيدة تصاحب اميرات اسبانيا كوصيفات الشرف او مربيات .





ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر ليكاسو يوما ما أن تهتم مشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Baoule ، كما شاء القدر أيضا لابولينير أن يتغنى بأصنام الخشب الزنجية كي يغير الغرب نظرتة للفن ويوافق بعد ألفى عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية اننى ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقى بتاريخ تطور الفن ، ولكننى اعترف أن فننا الزنجي هذا انما انبأت عنه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى عن قدومه ، حضارات لها ميزة خاصة فى اكتشاف كل ما هو وراء الطبيعة من الطبيعة ، وكما تكون افريقيا منطلقا فى التعبير الفنى بالنسبة لمدرسة بيرنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استبدلوا بمنطق الرؤية منطق اللبس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لافريقيا السوداء فى ايجاد فن معبر قبل أن يكون خاضعا لاي معيار جمالى آخر ، وهذا الفن شديد الحرية فى تعبيره اذ أنه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجى وعلى حسب منطقته وفلسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا اضاءة خاصة ولا أحجام ولا خطوط ولكن رموزها معاييرها ومفاهيمها ودلالاتها المختلفة عند كل رجل زنجى عندما يرى هذا العمل .

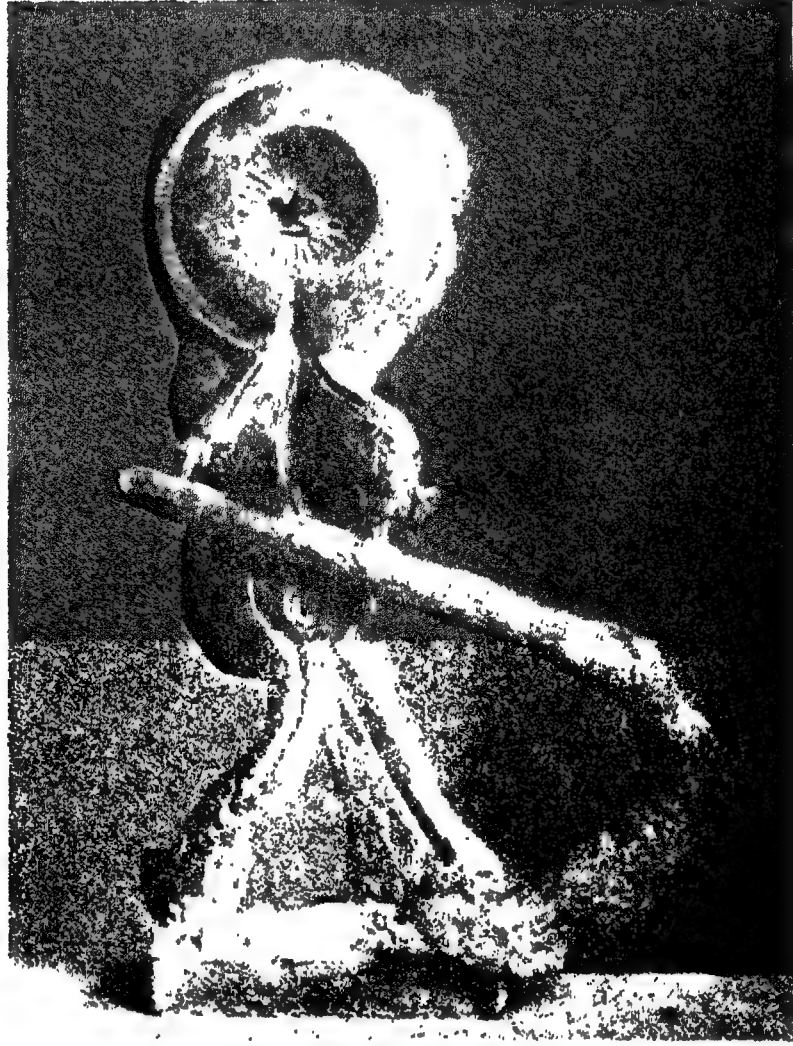
والمدرسة التكعيبية والسريالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل ادركتا أيضا أن أهم سمة للرسم الحديث على قرار الفن الأفريقى يكون التعبير والانفعال ولعل سر نجاح المدرسة السريالية بمختلف تشعباتها وبأسمائها الالامعة يرجع أيضا الى هذا الاتجاه فى الانفعال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتححر المطلق عن الخطوط والألوان والأحجام التقليدية .

وهكذا يدعى الفن الواقع تدعيرا كى يعيد بناء العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الأفريقى بالنسبة للفنون المعاصرة . فالفن منذ اكتشاف الغرب لفنون افريقيا السوداء فى بداية القرن العشرين لم يعد أسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهباً ولكنه هو فن مجرد بلا أى تعريف آخر . ان الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجى لأنهم رأوا مثله فى ما وراء الطبيعة ، أى كل الأبعاد المقدسة والخفية التى تربط الواقع بما وراء الواقع ، أو ان شئت هذا الذى سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية الذى لا نراه » . فكل الأشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) أصبحت طليقة ليست حبسة الأشكال التقليدية كما هو مبين فى هذا التمثال الخشبى الذى نحتة بيكاسو مثلا . وقد أسماه بيكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التى تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفنى من أى معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وانما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائى وخاصة الزنجى .

( ٣٦ ) باوليه : قبيلة من افريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بمهارتها فى النحت وصنع الاقنعة الذهبية .

( ٣٧ ) « زوار مارين » ص ٣١ .

( ٣٨ ) رأس السيج البلورية .



من هنا يلتقى هذا الاتجاه الحديث في الفن بخط المقدسات فيبدأ بينهما الحوار ، وهذا ما يحدث بالفعل في الفن الزنجرى . فالفن يأتى بمقدساته أيضا وهى كامنة فيه مستقلة به لأنه يحمل الحقيقة الداخلية لكل انسان ، ولكن ميزة الفن الزنجرى انه لا يؤدى الى العزلة بل يؤدى الى الاتصال بالآخرين فبينما يعبر تصوير الأشياء في الطبيعة في الفن الاوروبى فقط عن مقدرة الفنان في الرسم فان تصوير الأشياء في الشرق الأقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا ؟ لأنه كما يوضح مالرو سواء كان في الشرق الأقصى أو في افريقيا فالأشياء تعبر عن رؤية الفنان لها وعن احساسه بها ، بمعانيها المقدسة له ، وبذلك يلتقى بالمظهر الخارجى للأشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل أبعاد المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضع سنجر مرارا نفس الفكرة ، هناك عملية مشاركة وجدانية ومشاركة كلية بين خالق الشيء أى الفنان ، والشيء نفسه حتى انه يصبح هناك أيضا في المرحلة التالية عملية سيطرة وتملك من قبل الأخير على الشيء ، فالفنان عندما ينحت التيمة أو القناع انما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشيء ومن ثم يسيطر على عنصر من عناصر الطبيعة المحيطة به فيقلب عليها ، ومن هنا أيضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر في الفنون في افريقيا السوداء وفي أقصى الشرق وعند قدماء المصريين .

فكما رأينا فان مالرو شديد الإعجاب بكل فن بدائى لأنه معبر ولأنه يعيد الأبعاد المقدسة لعملية الأبداع الفنى . وربما هذا هو الذى شده نحو الفن الزنجرى بالذات الذى غير مفهوم الفنون في القرن العشرين . ورأينا كم كانت نظرة سنجرولتلقى بأمال مالرو بالنسبة لمقدرة أحياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول الى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالي إعادة تكوين العالم الخارجى على حسب أعمق أحاسيس ورغبات الانسان . ومن ثم فهي عملية سيطرة الانسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، ورأينا أيضا سر الفنون الزنجرية واقترانها للعالم الحديث . فالفن في افريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعوالم الخفية ، يحمل معه قدرته الفريدة في الدوام ، ويحمل معه أيضا أبعاده الدينية ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع أو ينقص من قيمته لأنه مثله واثق بأنه يحمل في نفسه مصدر الخلود ، وان كان طبعاً خاضعاً الى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه في عملية تغيير الواقع وإعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق في التعبير عما يبحث عنه الانسان في أى مكان في عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب اذا رأينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب أيضا ان نرى عمل كراسي الملك العجوز للفنان « روه » (٤٠) يشبه الى حد مدهل ملوك الداومى في افريقيا السوداء .



والملاحظ بالنسبة لمالرو كما هو الحال بالنسبة لسنجور أن هناك أيضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي ( Statique ) التاملي والديناميكي ( Dynamique ) الحركي عندما يتأملان أي عمل فني .

• • •

### ١. - النمط الديناميكي :

ان الشيء الغريب والهام الذي يجمع بين مالرو و سنجور في هذا المجال هو أنهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للاقدام على الفعل ، على الحدث في الحياة ، ويؤمنان بأنه بفضل الفن يقبل المرء على الاقدام على الفعل ( الحدث ) في صنع التاريخ . فبالنسبة لمالرو رأينا كيف لعب الفن دورا في حياته ورأينا كيف ذهب الى أقصى الشرق كي يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا في « الطريق الملكي » ( ٤١ ) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك ( Claude Vannec ) يغامر بحياته بحثا عن تحف فنية في الأدغال ، تلك التماثيل التي ترجع الى عهد بعيد في حضارة الخمير ( Khmer ) بالصين .

اما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل اسود لا يتخذ أي خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير او انفعال للزنجي انما هو اتخاذ موقف في الحياة من خلال الفن ، أو بعبارة أدق كلما يحتاج المرء الى الفعل او الحدث عبر عن هذا في عمل فني ، نحت أو رقص أو شعر .

وارتجال الشعر هو أكثر الفنون للرجل الأسود وهناك العديد من أنواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر وحث الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والاقدام على الحرب ، والتشبه بالاجداد .

وكل هذا ينعكس في شعر سنجور نفسه الذي يترجم كل حدث الى شعر غنائي أو حماسي ....

حقا يمكننا أن نقول أن الزنجي يفنى حياته .... » ( ٤٢ ) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مالرو :

« هل تعلم يا صديقي أن فلاحينا في السنغال اخترعوا رقصة لخطبة التنمية وأن موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية ؟ وفي النهاية أستطيع أن أقول أن كل فن زنجي ليس الا شعرا » ( ٤٣ ) .

من هنا يمكننا ان نقول ان الفن الزنجى اساسا وقبل كل شيء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الاخرى لانه اساسا وقبل كل شيء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية في محاولة للسيطرة الانسان على الطبيعة وصهرها في قالب يناسبه ويجعله يتواءم مع واقع حياته .

ان الموسيقى والرقص شيان في دم كل زنجى يولد بهما وتجريان في عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو في هذا الصدد على النحو التالى فيقول سنجور لمالرو :

« ان اندريه جيد يقول ان اغانيكم الشعبية بالنسبة لاغانينا تبدو في غاية الفقر والبداية ، وأذكر ان القس المسكين الذى كان يعلمنا التراويح الدينية في صبانا في الكنيسة ، ياله من مسكين ! انه كان يتعذب ! لانى انا واصدقائى كنا بالفطرة نرقص ونثب ونلهو على ايقاع الايدى وانغام الجاز ! .. »

والآن بدأت أوروبا تكتشف أسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنجية الايقاعية مثل الطبول والتام تام الذى سبق كل آلة في الوجود .

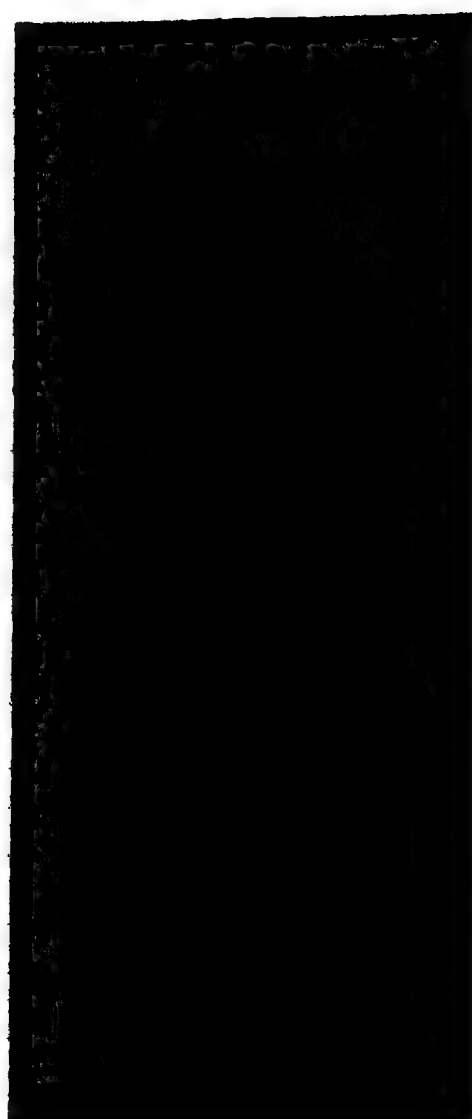
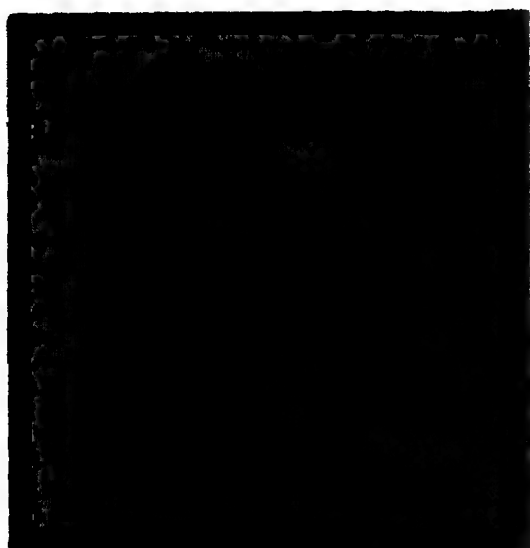
هل تعرف ما هو روح الموسيقى عندنا ؟ انه الايقاع بالضرب بالأيدي أولا ! .

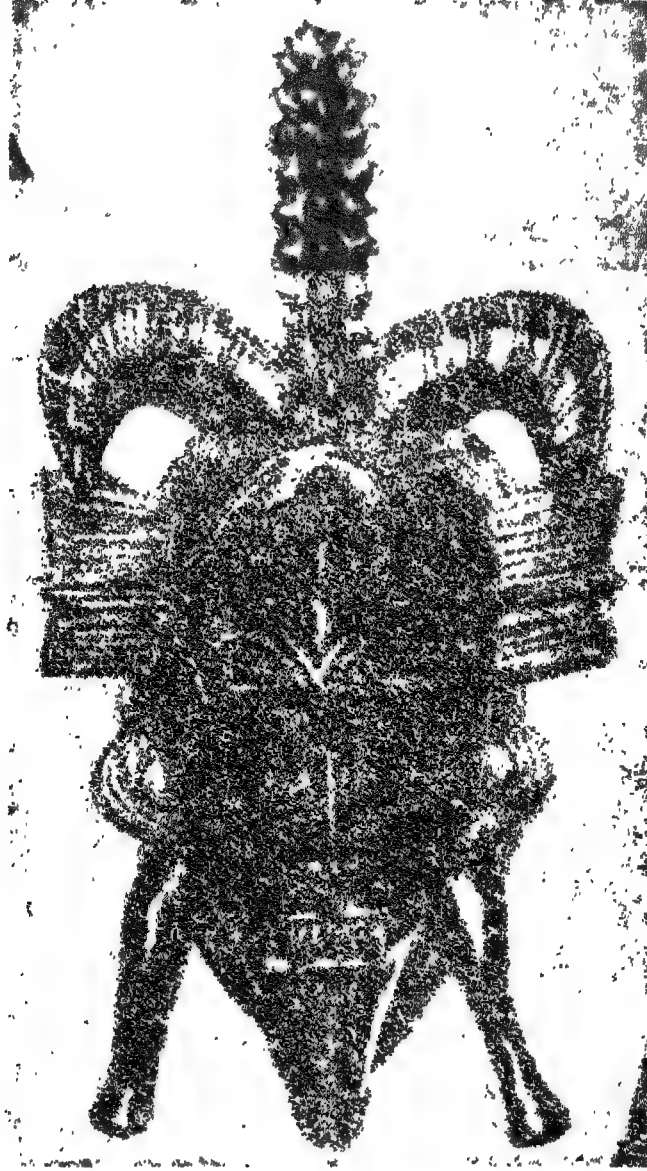
ويكمل مالرو الحديث قائلا : —

« ان لديكم أيضا موسيقى غطت العالم بأسره اعنى موسيقى « البلوز » في الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لاجيال من الالم والعذاب للجنس الاسود .

ويجب علينا هنا ملاحظة ان كانت كل الفنون تتساوى طالما هى تعبر عن الغرض الذى من اجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الاطلاق مثل الرسم الذى لا يعرفه سوى الفن الحديث في افريقيا مثلا ، أما الفنون التقليدية التى تعبر عن التراث الحقيقى لافريقيا السوداء فهى كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الاصنام والاقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص والحرب والاعياد والمواسم يلبس افراد القبيلة قناعا معيناً ملائماً للمناسبة ويشترك في الاحتفال فيتخذ هذا الاحتفال شكلاً دينياً يتقمص فيه الفرد بشخصية ومعالم القناع الذى يلبسه ، كى يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف او الكوارث الطبيعية او المرض او العقم او ما الى ذلك ، وبالطبع هناك اقنعة لارواح شريرة كما هناك اقنعة لارواح خيرة واقنعة لالهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعايره ويتخذ شكل القناع احجاماً مختلفة . فمنها الذى لا يبلغ طوله الا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة امتار ، واحياناً يظهر القناع وحده ، واحياناً يركب القناع على جسد تمثال بأكمله كما هو مبين في هذه الاشكال في فن قبيلة الدوجون (Dogon) في وسط افريقيا السوداء .





فالقناع حاضر وموجود في كل مناسبة تقليدية لانه يعتبر الأداة الرئيسية في الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « أغاني الظلال » نذكر مطلع هذه القصيدة للشاعر الأسود : « يا قنعة يا اقنعه !

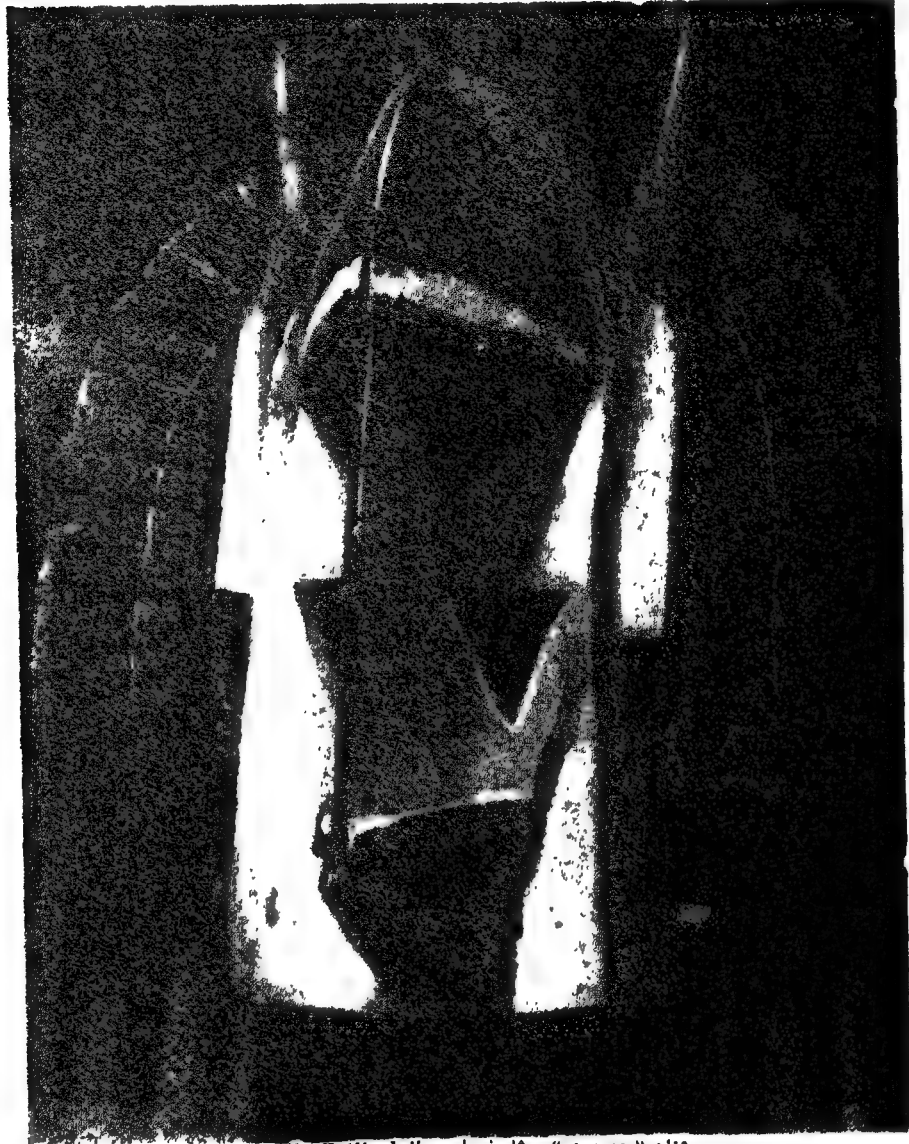
انت ايها القناع الأسود وانت ايها القناع الأحمر ، وانتم الأقنعة ذات اللون الأبيض والاسود ايها الأقنعة في الانحاء الاربعة الي تفتح منها الروح تحيا اليكم في السكون .

تحية اليكم في السكون !

وتحية خاصة اليك يا جدى ايها القناع ذورأس الاسد « ( ٤٤ ) .

ففضل القناع اذن نأى روح الجد وتنطق في علامات ودلالات معينة يكشف عنها عراف القرية الساحر عن ارادة الجد باسخاذ موقف معين نجاه مناسبة معينة او حل نزاع او اسكال او ما يعادله ، فبفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرضون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك انواع عديدة من الأقنعة فمنها الذى يصور الأسد او الثور او السمك ، أى حيوانات مقدسة لها ميزتها كظلم في القبيلة ، ومنها ما يجسد شكل احد افراد الاسرى المونى الغدامي، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال او التمر او الخصوبة او الحصاد الخ ...



قناع « دوجون » يمثل نوعا من انواع الفزلان المقدسة



نمط من الكونغو الغربية

فن نيم من الكونغو خاصة بمراسيم الزواج



قناع خشبي يمثل « ناميا لاية السيدات الحوامل في افريقيا  
السوداء »

وهنا يلتقى فكرا مالرو وسنجور حيث أن مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقي للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما راينا فى أفريقيا السوداء والذى افتقدناه فى الحضارة الحديثة ، اذ أن فى كل متحف نرى الاقنعة العديد من اقصى الشرق ومن ادفال أفريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليست عاطفية ، او بعبارة ادق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال فى المكان الذى صنع به القناع ، وكثيرا ما تحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات فى المتحف الخيالى وفى اصوات الصمت فأشار الى المعنى الاساسى للقناع بالنسبة للذى يشاهده ، وأشار الى المقاييس الجمالية التى يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور نفسه من هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات أخرى مثل حضارة الشرق الاقصى ، حيث ان الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وانفعالية مع الفنان وتحفته ، او بعبارة ادق وماخلق . فلا يوجد فى أفريقيا فن جيد وفن ردىء ، وانما هو الفن بمعنىا المقدس المطلق ، اى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشيء يحدث فى حضارة سومر القديمة وفى الشرق الاقصى ، فهى عملية الخلق بعينه ، على غرار الخالق سبحانه وتعالى وماخلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه وينتق من هذا المظهر المقدس وهذا العمق الدينى الذى يجعله يوحى للانسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والابعاد التى ترتقى بالانسان الى اسماى واعلى معانى الرؤية الجمالية ، فان كانت الملامح تختلف تماما والمقاييس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والاستيتيكية عامة فالتحفة الفنية فى هذه الحالة تخلق مناخا واحدا ، وينبعت منها احساس واحد مثلما نستطيع ان نتأكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التى تبعد كل البعد فى هذا الشكل الموضح ادناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق الخصبة فى المرأة كالبطن والثدى .

راينا كيف ان النحت يعبر فى مظهره السائد فى افريقية السوداء أى ان نحت القناع ونحت التماثيل له فلسفته وله أهمية بالغة فى حياة القبيلة .

وراينا ان لكل مناسبة فننا الذى هو لفتها ووسيلتها للتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والطهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى ان الشاعر الأسود يقول فى هذا الصدد بيت شعري صار خالدا :

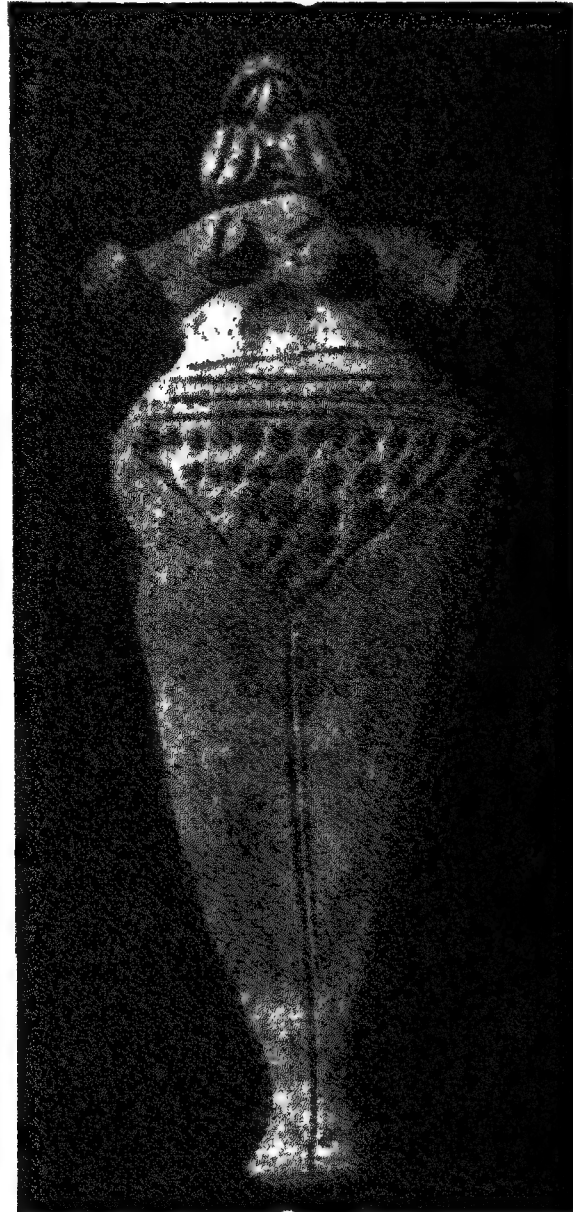
« اننا رجال الرقص ، الذين لا تثبت خطاهم الا اذا ضربوا الأرض ضربة قوية بأقدامهم فتنتطق ! » ( ٤٤ )

( ٢ ) - النمط الستاتيكي التأملى : هناك شيء آخر وهو موقف الفنان نفسه من اى عمل فنى آخر ومدى تأثيره به ، وهو الوضع التأملى التعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

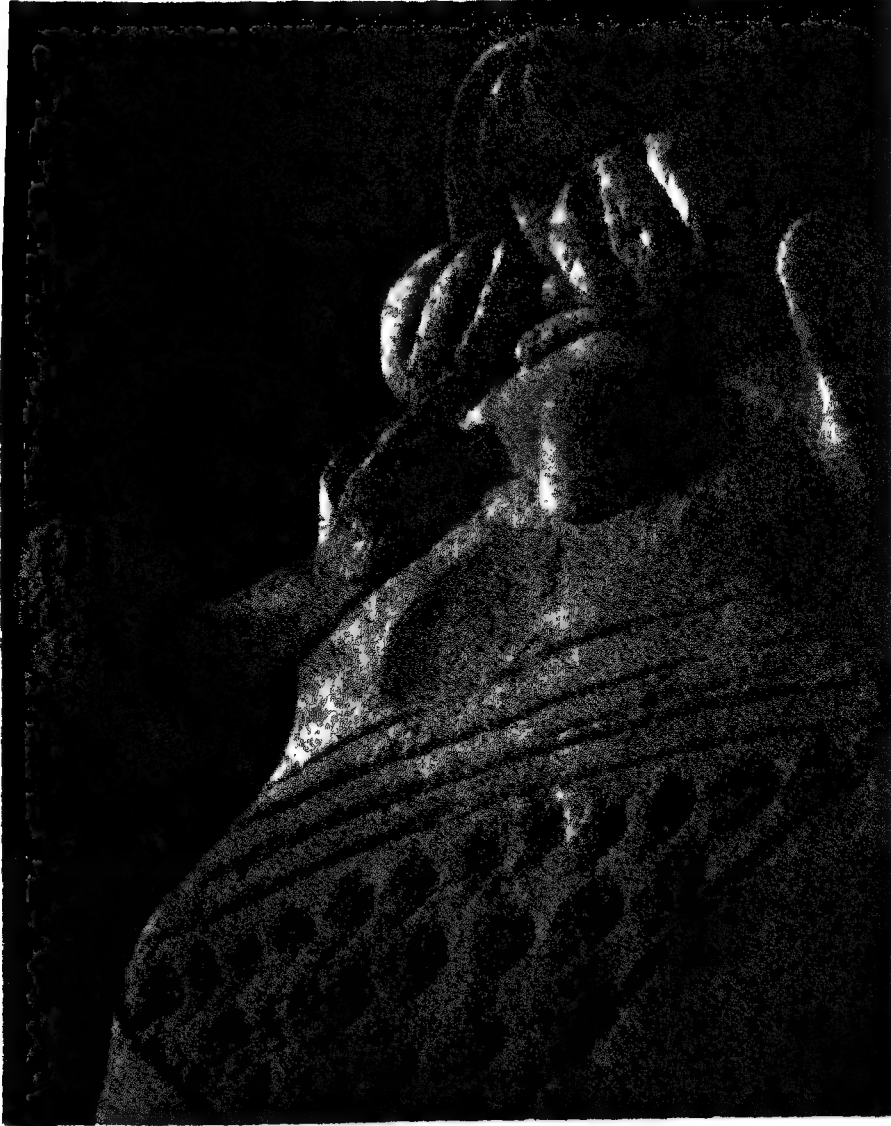
( ٤٤ ) من ديوان الغنى الطلال قصيدة « لتصحبنى آلات الوترية ... » .



بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة عن فلسفة الفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن ( ٤٥ )  
 بالبعيد حيث يحدق ويتفحص مالرو كل تحفة فنية يراها أو يتمنى أن توجد بالمتحف الخيالي  
 من نحت ورسم وقطع زجاجية وفسيفساء وصور فوتوغرافية ... الى آخره ... ومن هنا بمرّة  
 انتاج مالرو في فلسفة الفن وإيجاد العلاقات والصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة في حضارة ما بين النهرين القديمة  
 ( منطقة العراق الحالي )



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذي كثيرا ما يتأمل القطع الفنية فتوحي له بالتراث الق والتفاخر مثلما نراه بشاهد القناع الذهبي الشهير « الباولية » حيث يتفنى الشاعر في فعال بالخطوط والرموز والايقاع لهذا القناع المشهور .

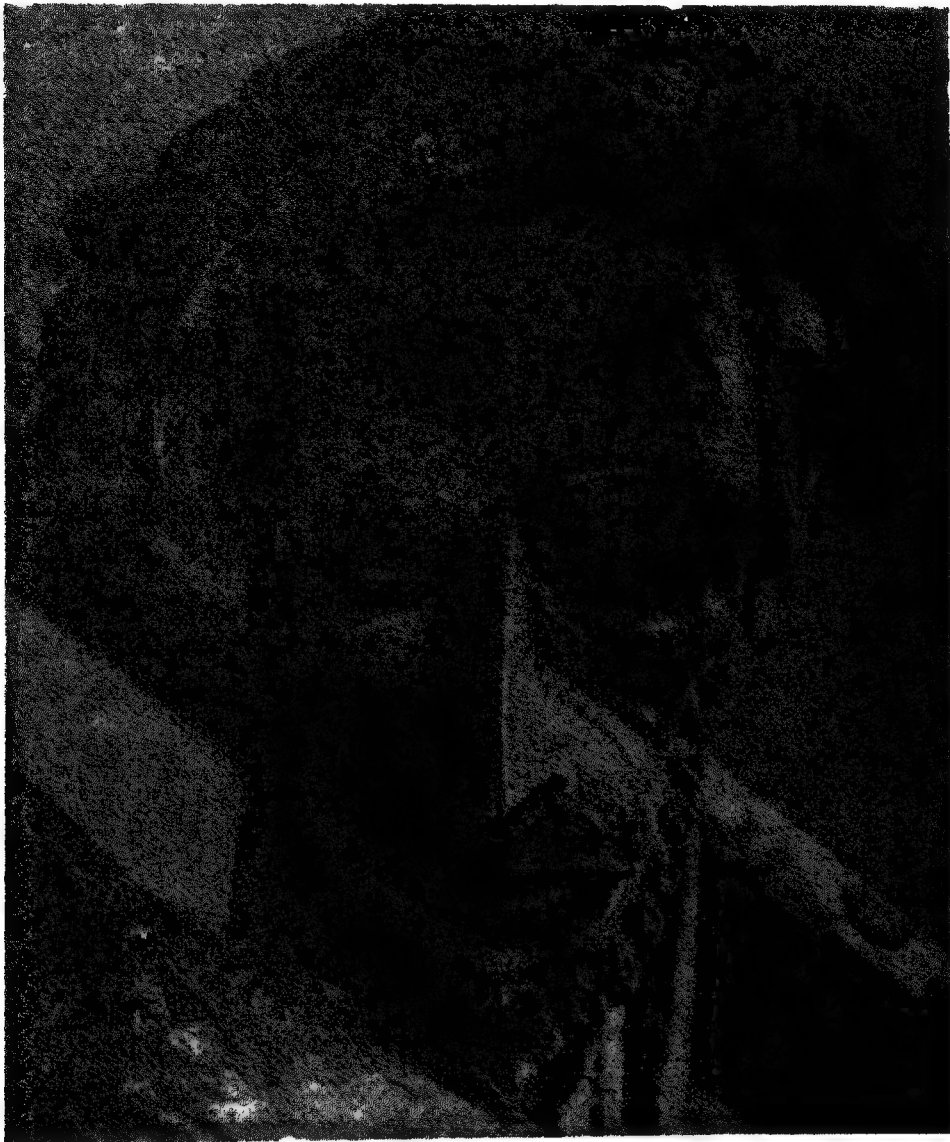
ويستطرد مالرو قائلا ان علاقتنا بالفن منذ اكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بح ، فتتخذ الاتجاه الذهبي البحث اكثر فأكثر .

فمعلوماتنا اكثر من احساسنا الفني التلقائي- وبالتالي فالزائر الذي يقوم بزيارة لمتحف ال مثلا يعلم تماما انه عندما يشاهد رسومات جوبا ، او مايكل انجلو فهو لا يشاهد سوى تحفة من اعمال هؤلاء العباقرة وانما وجدانيا وعاطفيا ، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال الم ع

الذى احس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذه التحفة مجرد صورة تعكس اول انطباع فقط للأحاساس الحقيقى الذى حاول أن يعبر عنه الفنان والمساءر العميقة التى هزته حينما خالق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الأمثلة لمثل هذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الأحساس بالرهبة العظيمة والتقوى التى تملك الفنان عندما قدم لنا « المسيح التقى » المعروض بمدينة برينيوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع أن نلمس الى اى حد يمكن للفنان أن يعبر عن احساس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحساس الينا نحن الذين يشاهدون هذه التحف الفنية من خلال القرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالاعجاب ونشترك سويا فى دنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة اعجاب لا تكفى وانما نستطيع ان نقول اننا نشارك وجدانيا وعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



أن مالرو شديد الأحساس بالرسم والنحت . أما سنجور فهو شديد الأحساس بالموسيقى والنحت . ولكن الذى يجمع بين الاثنين هو الربط بين الأحساسيس والانطباعات التى تنتج من رؤية منظر معين فى الطبيعة فيترجم كل هذا الى ابداع فنى بمعالجة فنية ترتكز على تأثير كل منهما لفن من الفنون او لاكثر من فن ، فالحياة عامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع ان ناتي بمثل لما نقوله من رواية « الأمل » لمالرو عندما نرى أن احد الابطال وهو لوبيس (Lopez) النحات لا يرى الواقع الا من خلال فنه ، حتى أنه عندما يصف رجل الكنيسة يسترعى الانتباه فيه أنه مهمل المنظر ، لحيته يضاء قبيح المنظر ولكن « يتمتع بيدين يستحقان الرسم » .

والحرب بالنسبة لنفس « لويز » تعنى فرصة المرء لكى يسخر الفن فى خدمة النضال الوطنى فيقول : -

« لقد نعطى الجدران العارية للرسمين يا صديقى وهيا ارسم وأرسم ، ان الذين يمرون أمام هذه الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لا يمكن أن يخلق فى جماهيرى عندما لانجد شيئا نقوله للجماهير . ولكننا يمكن أن نناضل سويا ونفعل حياة سويا نضغ أسسها معا ، وفى هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سويا » .

اما موقف سنجور من الفن فما علينا الا ان نتذكر أن كل مظاهر الحياة بالنسبة للشاعر الأسود هى فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لا يتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى أن طبول التام تام نفسها تعتبر لغة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الأدغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما يتحدث سنجور عن الموسيقى والرقص الزنجي أو يتأمل أيا من الأعمال الفنية ، زنجية كانت أو من حضارة البحر الأبيض المتوسط العريقة التى طالما تفاخر بها سنجور على أساس أن هذه المنطقة منبع الحضارات والمدنية ، نستطيع أن ندرك الى أى مدى تتقارب أفكاره مع أفكار مالرو ، فالتحفة الفنية تلعب دورا عاما عند هذين الكاتبين حيث تجعلهم يتأملون طبيعتها ومعدنها ومدى صلتها بالفنون الأخرى أو بتراث آخر .

ومن ثم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تأملية هامة ، فيتأثران به وينفعلان معه ويوحى لهما بعلاقات بعيدة ومثمرة بين مختلف الشعوب ، ومن هنا تأتي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التى تؤدي بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

ان الفن فى مفهوم سنجور ومالرو طليق ليس حبيسا او مرتبطا بمنهج سياسي او اى انتماء آخر غير انتمائه لقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن أن يخدم فكرة او مذهباً او فيما برجوازية او اشتراكية او شيوعية او ما الى ذلك .

وطالما أن الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينفد على ايدى مؤمنة بقيمه بل مؤمنة بقدرسيته ويحتكره الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فانه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يستحق أعجابنا وتقديرنا

مالرو ، سنچور وجفارة الانسان

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصرى القديم وفن الصين وسومر والفن الزنجي ، لاننا نستطيع أن نرى أن الابداع الفني يلتصق فيه كما رأينا من قبل بأسمى معانى العبادة في الدين ، بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات في محاولة لاكتشاف أسرار الكون .

فما الفن المسيحي في تقدير مالرو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان في وسط الكون ، أما اذا أخضع الفن الى عوامل أخرى مات واضمحل وفقد معانيه .



هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت اتجاهه الديني المعبر واتخذ الشكل الأكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي تخليد لويس الرابع عشر مثلاً . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت قلم مالرو حتى يصل الى الفن المسخر في خدمة البروليتاريا ، المترجم بمبادئ الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط الالتزام الذى يجب أن يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الإنتاج المتزايد بالجملة والرغبة في الارضاء لرغبة العميل الذى يشتري الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الابداع الفنى وبين الإنتاج الفنى الضخم الذى يرضخ الفن بسببه لمقتضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراه في أوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث السريالى فعاد بالفن الى أصالته فاصبح لا يرضخ لشخص معين ولا كنظام معين ولا يوافق ولا يتملق العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة الدواقة ، وانما يعبر اصدق تعبير عن مأساة الانسان الحديث وبأسلوب يبعد كل البعد عن الأساليب المتبعة في الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن أصالته ويتصل مباشرة بكل فن بدائى تلقائى زنجي كان أو غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سنوى رؤية الفنان البهتة . ويستطرد مالرو في شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا أقول أن براك (Braque) (٤٦) يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا نتدارك تلك السمات المميزة للفن في حد ذاته فانه بأسلوبه التحرورى أعاد لبصرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افتقدناه . وكذلك الحال بالنسبة ليكاسو كما رأينا .

ان زمن الفن لا يطابق زمن الأحياء . فالكوت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لا يفنى عبر الدهر والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو أن الفنان بصفته رجلا يفنى ولكن بصفته فنانا لا يرحل أبدا من هذه الدنيا لأن عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والأجناس ، فمما يكلل

« أنجلو » و « روفائيل » و « بولدليز » و « بيكاسو » و « مالرو » نفسه وغيرهم ان كانوا رحلوا عن هذه الدنيا فبفضل أعمالهم يعيشون ويخاطبون الشر، وهذه هي أهم وأسمى رسالة للفن ، أى إيجاد الحوار على أعلى مستوى ، وهو المستوى الوجداني والعاطفي في الإنسان مع نفسه أولا ومع الآخرين ثانيا .

### وكما يقول الشاعر شارل بودلير :

« ان الروائي ، والالوان والاصوات تتقابل » على أساس ان كلا من حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخرى ، وتجعله أكثر حساسية لنوع معين من مظاهر الطبيعة ، فبالنسبة لمالرو اقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والأنفعالات التي تعود به الى الوراثة في حياته هو او في حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف في ذاكرته بنفس القوى والتعمق ، ولشدة حساسيته بفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الأشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس أو اضاءة جانبية يشغل مكانا هاما في تحديد المنظر في كل رؤية ، ويؤثر كل التأثير على البطل بحيث انه يتخذ القرار او يقدم على الحدث تحت تأثير مشهد انعكاس الضوء على الأشياء المجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الأشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به في واقعها ، فمثلا في رواية « الطريق الملكي » (٤٧) تعكس الشمس نوعا من الضوء الباهت على شاطئ جزيرة سومطره فتبدو المياه عكرة وتبدو أشجار النخيل من بعيد كأنها سور رهيب من الوحوش المفترسة السوداء ، فيعلا النفوس كآبة ورهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذي يلعب دوره في تكوين الاحداث ، وهكذا نرى ان الضوء هو طريقة المعالجة الفنية الأساسية في ابداع أندريه مالرو الروائي .

ويأتي النحت في المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الاحساس بحركة الأيدي بهيئة الجسد ، كما يشده دائما احساس عميق بشكل الأشياء . اما بالنسبة لشاعر « أغاني الطلال » فاحساسه بالضوء لا يعتبر أهم معالجة من الابداع الفني ولكن هو الاحساس بدفع الضوء ، أى بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الألوان ، ألوان طبيعة السنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقترنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورود التي تتالق مع بريق الشمس على أرض أفريقيا ، فيأتي الاحساس بالنبات قبل مظهره وأساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت أي بين الجفاف والحصاد .

فالرسم لا يسترعى انتباه سنجور في المقام الاول وانما الذي يستند عليه في معالجته الفنية هو أولا الإيقاع ونعني بالإيقاع ايقاع الطبيعة في الدرجة الاولى مثلا كالإيقاع الثنائي لليل والنهار ،

والجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائري ، ايقاع الفلك الذى تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع اللمس والشكل واللون بجانب ايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هى المقومات الأساسية لكل فن زنجي وكل زنجي يعيش العالم الخارجى بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحراسه لا بمنطقه ولا بعقله » .

واخيرا فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالنبات ، وحب الاشجار التى تربط الانسان بالبيئة وتوصله باجيال مضت وبواقع مشحون بالاحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل أو الشاعر مع الاحداث .

#### ونجد نفس الشيء فى معظم روايات مالرو : -

واكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة ، وبين منظر الاشجار التى توحى اليهم باحاسيس معينة . وفى كل الحالات فهم لا يمكنهم أن يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط فى قصة « القدر الانسانى » : حيث نرى ان جيوزو ( Gisors ) والد البطل كيو Kyo بعد وفاة ابنه لا يستطيع أن يتحمل الالم ، ولكن الشيء الوحيد الذى يساعده على الصمود أمام مآسى الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى ، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالفرق فى مناهات الافيون الذى يتناوله ولكن ينسى جروحه وفشله فى الحياة . ومنظر الطبيعة هو ما يمكن ان يراه من خلف النافذة من اشجار النوير التى تنشده انشودة الربيع بالرغم من ان كل شيء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد ان هناك تشابها فى كل افكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الانسان بالمكان الذى يعيش فيه ، فالطبيعة تلتصق به ولا يمكن أن يبتعد عنها أو يتجاهل وجودها .

وفضلا من هذا الارتباط فهناك ايضا ارتباط وثيق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الأخرى التى تترجم فى معظم الاحيان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .



**وطريقة مالرو والمسلك الطبعم الذى يسلكه فى قصصه هو تجميع للأحاسيس العام فى احساس معين مركز يتجسد فى لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر فى المشهد المذكور تماما .**

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالآخر بحيث يشكل بناءا متكاملًا ويجب كل عنصر منه على الآخر . فهو يختار الاشخاص والابطال - فى عملية الخلق الأدبى تبعًا لتطور الأحداث وطبقًا لما يعطى له الواقع من مناظر ومشاهد ، ولكن الشيء الذى يهمنا هو ان كل بطل يعيش العالم . عند مالرو كما كان سنجور - فى الشعر من خلال احساسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التى تجعله مثل الفهد أو النمر أو الأسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو أساسا بهذه القدرة الفائقة على خلق الجو المناسب للبطل وإيجاد هذه الإحاسيس والانفعالات التي تعطي المناخ المطلوب لمتابعة القصة ومعايشة الأحداث من وجهة نظر البطل أو الشخصية التي يسلط عليها الضوء .

أما سنجون : أيمن أن ينسى أنه ابن الأدغال ؟ وأنه لا يصف الشيء إلا من خلال إحاسيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكون هذا هو الربط الحقيقي بين الإنسان والطبيعة ، فالأشجار مثلا هي الصلة الوثيقة التي تربط بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها ، ففيها يرى الماضي بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والغد بشارته .

فعندما يقف الكولونيل بيرجييه (Berger) (٤٨) الذي هو مالرو نفسه ويتأمل ، يحس أن كل شيء تحت الأشجار « من بذور ، وخشب ، وجلد ، أو قش » فرائحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجييه وتتغلغل إلى أعماقه ، وحفيف أوراق الشجر يجعله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الخضرة الخصبة الخلابة ، فيأتي أيضا بهدير من أجيال مضت ، آتية من أعماق الظلام الحالكة » . وربما هذا يعني قدرة الأشجار على الاستمرار في الحياة من الجذع حتى القمة ، تحمل معاني كثيرة بين أوراقها وفروعها . وأول هذه المعاني الصلابة وثانيها الجمال ، وثالثها الصبر والجلد .

وهكذا نرى أن شجرة الجوز المتقلص كما تبدو لا تحمل ثقل الدنيا وإنما « تترعرع » وتردهر في حياة لا تنقطع .

وهناك أيضا ذلك المنظر الذي يراد فكمالرو فيظهر لنا مرتين الأولى : في الالامذكوات ، والثانية : في الأمل ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناضجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا إلى إمكانية تطور ، أو نهضة ، فهذا المنظر يقترن بوجود القس على منبره بالكنيسة وهو يردد في صلاته : —

« وأنى الموت لكل شيء ، وأنى مولد كل شيء وأنى سكون الأشياء الخفية ... »

وأثناء هذه التراتيل كان البطل بيرجييه يفكر في حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة في منطقة الألزاس ، وكان يبدو له وكأنه حلقة أناس أحياء ملتفين حول جسد يحترق ببطء يمنح الحياة ...

ويستمر دائما في مخيلة مالرو — أو بعبارة أدق لبطلان روايات مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينة تتعلق بأحداث تحدد موقفا إنسانيا ، وهكذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والإنسان ، بل كل عناصر الطبيعة بالإنسان .

فمثلا أن صرخة الغراب تأتي من أعماق الهند حيث يسرخ الكاتب بخياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الأشجار المقدسة التي يلتف من حولها الرجال مثل منقود الفاكهة الذي



سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف تارة في بناريس لتخيل هذا المنظر المألوف لديه ، وتارة يعود به الخيال الى سبورج اللتانبورج بالالزاس حيث تبدأ للحياة اول البرام من فوق الجوز الميت منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى ان هناك عند الانسان هذه الرغبة في الدوام وفي الاستمرار وقهر الزمن وتحدي الطبيعة . ويرمز الى ذلك منظر اشجار الجوز بالالتانبرج واشجار التفاح ايضا في رواية الامل وحتى منظر الرجال الملتفين حول حلقة النار بيناريس في الهند تدل ايضا في هذه الحركة الدائرة التي تكون هي ، وفي الوقت نفسه تتغير في كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائري ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذي يطوق الاشجار ، كل هذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتفسير بصفة مستمرة ولكنها في جوهرها كما هي ، وهذا هو سر الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا في مشهد آخر من نفس رواية اشجار الجوز بالالتانبرج حيث نرى احد الابطال « مولبيرج ( Mollberg ) يتحدث بحماس بالغ مع الآخرين بينما يسترعى انتباه بيرجيه فجأة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جدوع اشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة امام مبنى البلدية المدينة بالالزاس ولكن هذه الحركة ايضا لم يكن يفعلها ايضا رجال القرون الوسطى في الغابة المقدسة بينما كانت النافورة في وسط المدينة يماهاها تنعش المساء ؟

وهذه الجدوع ، والخطايون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هذا الشعور بالامالة الذي يحمله الانسان تجاه مرور الزمن .

نفس الحركة انما تتكرر منذ قرون مضت واجيال سلفت وستتكرر في المستقبل .

وهكذا تصبح القرون الوسطى حاضرا مستمرا وتنتقل تذكرة الدوام البشري من الجدوع الى الاشجار المليئة بالحياة ، اشجار الجوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالالتانبرج فيصفها الكاتب على النحو التالي : -

« ان كثافة الاشجار العريقة تنبثق من كتلتها الممتلئة ، ولكن هناك احساس بجهدا المستديمة لاستخراج فروعها باوراقها الخضراء من هذا الخشب المعوج القديم ، الثقيل الذي يبدو وكأنه يفرس غرسا في باطن الارض ويثبت فيها لا يخرج منها هكذا يعطى الاحساس بالارادة القوية أولا ، وبالتغير المستمر ثانيا ، فيجسد شجر الجوز لغنان بيرجيه الرغبة الاساسية بلوغ الابدية .

ونفس الشيء يتكرر في رواية الامل ، في مشهد اثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فيرد على خاطره ان ثمرات التفاح لم تجن بعد ، ولكنها وقعت ولتلف من حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يذوب شيئا فشيئا مع النجيل . وكانت شجرة التفاح فقط هي التي تنبض بالحياة في وسط الحصى والحجارة التي تكسو الجبل ، فالنبات وحده ينبض بالحياة التي طالما تتجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجي للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائري للطبيعة وبالأحرى المدار الدائري للنبات الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً وثيقاً، بل يبدو هذا أوضح وأهم في شعر سنجور حيث الإنسان الأسود تقتزن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعة - وترتبط ارتباطاً وثيقاً بحلول الفصول أولاً وقبل كل شيء .

فدائرة الفصول هي التي تتحكم في حياة الأفريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث رأى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصاً انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز الى معان كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذي يرفض ان يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » ( اذاجاز هذا التعبير ) الذي يعيشونه في افريقيا .

وعلى أية حال فما هو أبيض في أوروبا يكون أسوداً في أفريقيا ، والعكس ، بمعنى أن فترة الجفاف في أوروبا ، أي جفاف البرد القارس توازي فترة الخصوبة في أفريقيا السوداء ، وبالعكس ففترة جفاف الأمطار في أفريقيا توازي فترة الخصوبة أي الربيع والصيف في أوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير الى اختلاف الفصول وقدموها في معادها الدائري .

ولذا نراه يحس بقدم الربيع بمجرد شمه لرائحة الخضار : خضار الاوراق والنجيل من قبل أن تورق الأشجار أو تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى مالا يسمع ويرى الآخرون من الأوروبيين .

فقدوم الربيع مثلاً يأتي له وهو في أوروبا على هيئة هففة النسيم القادم ببشائر القارة السوداء الدافئة فيعيش بأحاسيسه دفء أفريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطي أوروبا ، ولا نبالغ عندما نؤكد أن كل حياة ومشاكل وأحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرية للفصول الأربعة .

فكل مناسبة هامة أو حدث أو إحساس مرتبط بموسم الحصاد أو موسم الجفاف أو موسم الرياح حتى أنه عندما يحدد ميعداً يصل به الى أنه لا ينظر الى المفكرة الأوروبية المألوفة المكتوبة في جيبه أو على مكتبة ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

**وأحاسيس سنجور بالنبات** يكاد يكون محور كل ماكتب وتحدث عنه لأنه يقرن دائماً النبات بالمرأة بتربة افريقيا عامة في فكرة الخصوبة والانجاب والتفتح ، فالبدور تنبت وترعرع وتثمر وتحصد ، والأرض تثمر وتستفل فتزرع وتمزق بطنها ، أي تربتها الخصبة بعمل الرجل الذي يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماماً مثلما يقتزن الرجل بأنثاه في فكرة الحب والانجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة في النبات عامة ولكنها تتضح أكثر في الأشجار . فكل شجرة تلخص معانٍ كثيرة وتوحي بفلسفة الحياة بعينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلاً عن أنه يمثل أيضاً الظلال والحياة في المناطق الصحراوية الشاسعة في أرض السيفال .

فالأشجار أولا تعنى التفاف الجماعة من تحتها فى النظام القبلى للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون أسفلها للتشاور فى أمورهم فى رطوبة المساء وسكونه ، ومن هنا يأتى الارتباط بين الإنسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذى يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التى يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتى المكانة الخاصة التى تلعبها الشجرة فى حياة أفريقيا السوداء . حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضا تعنى الجمال : بقامتها الفارعة المشوكة كالنخيل والحوار ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنن والزان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار البواباب المعروفة فى أفريقيا السوداء والتى هي دلالة مميزة للمناطق الاستوائية والمدارية فى القارة السوداء .

والشجرة أيضا تعنى الخضرة أى الحياة لتلك المناطق الوحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلا لها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وشراسة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا نحصل منها على الثمار ، فتطعم وترطب وتروى ، فبالإضافة الى قيمتها الجمالية فهي ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا - وهذا هو الأهم - فالشجرة توحى بفلسفة فى الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسى « بول فاليرى » . (Paul Valery)

« الصبر .. الصبر  
الصبر فى الأفق الأزرق

فكل ذرة من السكون  
فرصة تفتح زهرة ونضج فاكهة ... »

فالنبات أيا كان يوحى بالصبر الأزلى طالما عرفه الإنسان : فهو يزرع ، ثم يروى ويتتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هي الحكمة الكبرى فى حياة البشرية وهي حكمة النبات الذى يمثل دقة الطبيعة فى مدارها الدائرى الذى لا يخلف الميعاد .

وحكمة النبات تتجلى أيضا فى استقرار الحياة ، منذ الجدور الممتدة فى باطن الأرض وحتى القمة الشامخة التى تشق زرقة السماء .

وسنجور كشاعر ، يتتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الأوراق ، وكل نوع يوحى إليه بأحاساس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تفيض بالأنوثة وكذلك أشجار المانجو ، والجمال المشوق يتمثل فى النخيل السنغالي وفى شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظر الأشجار على أحاسيس الشاعر نفسه ، فإذا كان تميميا فيحس بأشجار البواباب الضخمة تتلوى من الألم ، وإذا كان - يرتجف من البرد فى أوروبا فيرى الأشجار ترتجف بردا ، أما إذا كان سعيدا منتعشا فإن الأشجار تضحك معه .

وهكذا نرى أنه بينما يشد مالرو منظر معين في الطبيعة كما راينا في مشهد الأشجار فالاحساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور في ذهن سنجور في حاسة الشم واقتران اللون الأخضر والأحمر والأصفر أى ألوان مظاهر الطبيعة في السنفال نفسها . وهنا نقف لحظة لنأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو- وملكته الفنية النابعة من بيئته الأصلية بمعنى أن كل فنان يخلق لنفسه في عمله الذى يقدمه لنا مناخا معيناً يستوحى منه الإلهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والآن لنتناول دور الفن في فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند سنجور موقف أخلاقى يؤدى الى سلوك الإنسان المعاصر تجاه أخيه .

• • •

### ٣ - الالتقاء الأخلاقى (Ethique)

وهناك يأتي على الفن أن يقول :

« اننى لم اجد كى اعطى لكم الجزء الالهى الذى أتمتع به ولكنى جئت كى يسترد الإنسان مكانته الصحيحة فى الكون وبصوت خافت أهمس له بعظمته » .

أن الفن الحديث سمح لنا أن نرى كل الاشكال فى العالم المحيط بنا بحرية تامة لاتخضع لاي اعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذى ينبع منه ويتفرع فيه عبر تراثه الثقافى .

فالفن فى مفهوم مالرو هو اللاقدرية لأنه المجال الوحيد لاختيار الإنسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف أخلاقى ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل انسان ، أى رفض القدرية والمحتوم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذى نستسلم له لأن الفن يعتبر تجربة وانطلاقاً من كل مايجول فى النفس البشرية ، عن كل ما هو كامن ومكتوب وموقف الانسان من القدر فان فكرة الانسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الانسان احياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو «(سيكولوجية الفن)» (٤٩) محاولة لأبراز اعظم مظاهر الانسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة أسئلة فى هذا الشأن ولعل أهمها السؤال الآتى : « كيف يمكن للمرء أن يتفق مع العالم الخارجى » سؤال حير البشرية من قبل ، أما اليوم فنزيد عليه سؤالاً آخر كيف يمكن للمرء أن يتفق مع نفسه ؟ على مدى التاريخ نرى أن الانسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذى يتخطاه دائماً ، فإذا كان المرء اليوم يمتقدان لاشيء يتخطاه ، وأن الالهة لم تعد أى شيء سوى إثبات لقدرته الفائقة فى الإبداع فكان لزاماً عليه إذن أن يجد فى نفسه ، ونفسه فقط ، هذا التوافق بينه وبين نفسه .

مالرو ، سنجور وحفارة الانسان

فان آلهة المتحف الخيالي في مخيلة مالرو هو « الممكن » (Le Possible) وأهم ما يتسم به هذا المتحف هو الكفاح من أجل الحياة ، النضال ضد الموت ونقصه هنا مع مالرو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل انسان يرحل عن الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذي يلاحق البشرية فيقضي على كل سماتها الانسانية ، ولكن الامر الذي يعنيه مالرو هو ذلك الشعور بالانفعال الأساسي الذي ينتاب المرء أمام الحياة ، بادئا في اول الامر بحياته الذاتية أمام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من الا يوجد شيء ؟ » ذلك هو السؤال الذي حير مالرو أمام الحضارات القديمة التي تلاشت عبر العصور ، او بعبارة أدق انقرض الدين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم أثر سوى هذا التراث الغنى يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا عن انه يحيي لنا هذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية في تقدير اندريه مالرو هي ليست توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت اليها كل حضارة بتراتها الانسانية وكل ثقافة بمعاملها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراتها الانسانية وعواطفنا ووجداننا بأعمق معانيها السامية الجمالية والروحانية .

يعتقد اندريه مالرو الذي يرفض معونة الأديان وخاصة المسيحية أن عظمة الإنسان ومجده هي في أن يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون أي استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك انه يمكن ان يقيم عظمتة أي معونة أخرى غير تلك التي تنبع من نفسه .

ويصبح في وجه الصحفيين :

ان الانسانية لاتعنى أن نقف ونقول :

« ان الذي فعلته لايمكن لاي حيوان في العالم أن يفعله » .

لا ، بل ان الانسانية هي أن أرفض ما يمكن في نفسى من حيوانية وأن أقول أنني أصبحت انسانا بدون عون الآلهة :

ولكن مازالت المشكلة الأساسية غير محلولة بالنسبة له الا وهي « من هو الانسان وماجوهره ؟ وهل هناك أي دلالة أو مفهوم يمكن ان نرسي أو نقيم عليه تعريفا للانسان ؟ وكل انتاج أندريه مالرو الفني والأدبي بل وكل حياته أيضا وماحقق في مجال السياسة والثقافة ما هو الا محاولة إيجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح بشغف بل بقلق شديد من كاتب « القدر الانساني » .

**هل مات الانسان حقا ، ألم يبق منه ما يشير الى معالم الانسانية ؟**

ففي محاضرة ثقافية في قاعة السوربون يصيح فينا مالرو محاكيا لـ Nietzsche الفيلسوف الألماني الذي تحدى العالم في يوم ما حينما صرح « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الانسان قد مات بدوره « ألم يعد هناك انسان ؟ »

وهذا التساؤل المحير في الواقع لا يقتصر على أندريه مالرو ولكن كثيرا من الكتاب يتساءلون بنفس الطريقة ، والمقصود بهذا السؤال طبعا القيم الإنسانية التي لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين التي خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل المأسى ، مثل الحرب واستعباد الآلهة للانسان الذي لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار في الحياة ككائن حر مدركا وواعيا .

وهنا يتأمل مالرو مصير القارة الأوروبية فيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها في قيمها مما يؤدي الى انشقاق فطبع بين الانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي عن هذا الانقسام .

ان القرن العشرين مبصوم ببصمة «القدرية» على النقيض من القرن الذي سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة بلغت بنا هذه القدرية الى حد يحتم علينا ان نسيطر عليها ما ان نستسلم لها فنموت» .

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحده هو « بروميثيوس » Promethee بطل أسطورة الاغريق الذي سرق سر النار من الآلهة فيرجع له الفضل في تقدم البشرية .

والمقصود هنا بروميثيوس هو الانسان الماركسي المعاصر الذي يصنع التاريخ ويغير وجهة تنمية امكانياته المادية والتكنولوجية فقط ، ولكن فيما بعد لم يعد مالرو يقتنع لا بالذهب الشيعي ولا بالماركسية لأنها لم تشبع متطلبات أخرى روحانية في أعماق نفسه ، ولذا توجه الى نواح أخرى : فبدأ يعجب بالأساطير والتاريخ، والثقافة والفن وبالتالي بدأ يقترب من « أبولو » (Apollon) إله البطل الاسطوري الأغريقي الآخر على النقيض من بروميثيوس ، ومن ثم فرجل أبولو هو الذي يثور على استعباد الآلهة والتكنولوجيا الحديثة ، وهكذا يصل المطاف بأندريه مالرو في أهم مراحل فكره الى ردع حتمية التاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو أهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن إيا كان الانسان المعاصر ، بروميثيوس كان أو أبولو فعا من شك ان المنطلق واحد عندهما الا وهو تأليه الانسان ، هذه الفكرة التي وردت على لسان أحد أبطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٥٠) .

ومن هنا جاء المدلول الجديد لمفهوم الإنسانية الحديثة في عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب إنما كانت تكفي لتغطية الإنسانية في النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة للواقعة الفن الذين يكتفون بتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الأمر تغير وأصبح يشمل مضمون كل البشرية في انحاء الكرة الأرضية على مختلف الأجناس والبلدان والأديان والقارات ، وبالتالي كلمة « حضارة » الآن يجب أن تعني شمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارة في العالم عبر عن الانسان في أي ركن من الدنيا .

ويتساءل الكولونيل « بيرجيه » ( ٥١ ) الذى هو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وأنا اكتب سوى الانسان ؟ . . . . ان أبى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدأت هذه الفكرة تسيطر عليه ، فكرة لغز الانسان التى تسيطر على اليوم والتى تجعلنى ربما أبدأ فى فهمه ، وهناك شيئا جعلا فنسان بيرجيه ( أو ان شئت مالرو ) يفهم البشرية ، أولهما ايجاد قيم انسانية ( ٥١ ) جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التى لخصها مالرو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى ان أجعل المرء يعى ويدرك مدى انسانية اليوم » ، وثانيهما ايجاد حوار الفن والانسان .

#### ١ - البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصعد به دائما الى أسمى وأعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه ان ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعيسة لمصيره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال أقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحه تسمح له بالتغلب على القوى المضادة التى تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مالرو فى الفكر بأنه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يعرضها كاتب الأمل للانسان ؟

يسردها مالرو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته **الفرازة** : ( ٥٢ )

« نعلن ان القيم هى : -

ليس الاشعور بل الادراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الارادة - ليس شحن الرؤوس ولكن الحقيقة . . . . .

وأخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا نكملة بهذا السؤال : « الى أين » لأننا لا ندرك شيئا عن هذا ، ولكن نتساءل من أين نبدأ تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فأمام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف أخلاقي جديد لنفسه او الانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى او الانتحار بوسائل اخرى : الذهنى أو الروحانى الذى يفرض على المرء ان يقبل مدلة مصيره فيخضع للقدرية او ان يهرب منه ليخلق لنفسه اللهو عنه بشتى الطرق ، ولكن مالرو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بركن » (Perkan) فى الطريق الملكى .

وبعد كتابة ست قصص أى بعد أكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وبأسلوب واقعى عن مشكلة الغرب وفى هذه المرة لم يكتف بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد أبرز مالرو فيما كتب « أصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه الإنسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله أولا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى أدركته أخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة أنه لا شيء ، أو يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الإنسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى أنه لم يكتف بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى أعماله الأولى بل أعطى ، أو على الأقل ، عرض حلولا من خلال أعماله .

فالإنسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند الاقدام على صنع الأحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى أى الأبداع . فالفن وحده اذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الإنسان الحديث لانسانيته .

وفى الأبداع الفنى سبيل أعمق لاتصال الإنسان بأخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، فاذا كانت الثقافات والحضارات تنهار أو تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث وتعبّر عنه ، وأخيرا وهو الأهم تثبت لنا دائما استمرارية قدرة الإنسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجى .

كيف يعيش الإنسان فى عالم عابث به ، ليس له أى معنى ؟ بل يعيش الإنسان كى يعطى لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به وأهم رسالة للإنسان المعاصر هى ان « يعطى معنى للامعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسى الشهير « مونية » (Emounier) .

ويبدأ مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على العدمية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يدفعه الى الاقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تتبلور فكرة الانطلاق من العدم للوصول الى الانسانية التى هى الايمان بالقيم الإيجابية للإنسان فتترك وراءنا عالما بأكمله من معتقدات وافكار وتصرفات وايدولوجيات ، ولنواجه أمامنا مصيرنا عاريا مجردا من أى اعتبار آخر . والملاحظ هنا ان تركت تلك القيم الحضريّة والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لإبطال رواياته ، ان مالرو نفسه ترك أوروبا الى الغرب وذهب الى أقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الإنسان قيمه وعالمه الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتأمل فى هدوء وفى إعجاب عوالم أخرى ، والملاحظ أيضا ان إبطاله على غراره هم يبحثون عن أنفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون أيضا الى حضارة الشرق أو البلاد القريبة عليهم اينما كانت ، فلا سبيل اذن لخلق قيمهم لانفسهم بعد ان يواجهوا مصيرهم بشجاعة وبقطة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون انه لا مفر لهم سوى الاعتماد على أنفسهم فقط كبشر .



ومن ثم أصبح لزاما على المرء ان ينظر لمصيره نظرة متفائلة بناءة من لحظات يأس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا ان مصيره يكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه ايضا ان يعتقد في دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) احد أبطال القدر الانساني فيقول :

« انكم تعتقدون ان هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الإطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومالرو بفكره يؤكد هذه الحقيقة ، فهو لا يؤمن بدوام الانسانية في الحاضر وفي المستقبل فحسب بل يؤكد بها بالنسبة لماضي في كل حضارة قديمة وفي كل مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

وبكل أحاسيسه وجوارحه يبحث مالرو مع بطله عن هذا الشيء الذي يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذي قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الأزمنة والأجناس حتى انقذ الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم ايجابية نابعة من الانسان نفسه ، ولا تستند على أي شيء آخر سواء بقدراته وامكانياته لمجابهة واقع مصيره ، وهكذا تؤدي فلسفة العدم الى فلسفة الايمان بالانسان أي الانسانية .

هناك بين كل الثقافات التي سبقتنا ترابط وثيق فنحن نعلمنا الآن أن نرى بأعيننا وبأذهاننا وبكل عواطفنا ، وبفضل فكرة المتحف الخيالي لكل الفنون نستطيع ان نقارن ونقيم ونكشف العلاقات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، « فنوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في رواية الطريق الملكي حيث يسترد البطل كلود فانيك (Claude Vannec) حديثه في هذا الشأن قائلا :

« ان المتاحف بالنسبة لي انما هي أماكن حيث تصبح كل الأعمال الفنية الماضية أساطير تنام حياة تاريخية طويلة في انتظار أن يوقظها الفنان من جديد ويأتي بها الى الحياة الحقيقية ..... » .

فنكون كالمكفوفين اذ لا نرى أمام هذا المشهد ما تحمله هذه الأعمال الفنية من قيم حضارية وانسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم بأكمله تلدوب خصائصه في خصائص كل البشر .

وهنا تتسع فكرة الأخوة والجماعة وتشمل أخوة المجتمعات بأشملها ومحاولة التعمق في العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمي وإلى الحضارات المختلفة التي تجمع في معنى واحد هو تعبير المرء من جوهره بفضل تعبيره الفني الصادق ، ولعل هذا الذي يسميه مالرو « الانسانية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى ان الفنان ، والبطل والقديس يتغلبون « بفعلهم » على القدرية ، ومن ثم يؤكدون أنفسهم كبشر في المجتمع المعاصر .

**وكلتا التجربتان للارو وسنجدون تلتقيان في نفس المجال : المعيشة لأحداث الحياة -** فالفن مثل الثورة كل منهما مجال شاسع أى حقل واسع النطاق الى أبعد الحدود . فهناك صورة تأتي من الفن وهناك صورة تأتي من الحياة ولكنهما تلتقيان وتلتصقان التصاقا وثيقا في مخيلة المؤلف .

ولنأخذ مثلا على ذلك في رواية الامل : ونذكر كيف أن « مانويل » (Manuel) أى البطل كان أثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صورته مارلو « كان ذات الجسد الممتد مثل الرسوم البارزة على المباني العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة الشير الأزلية منذ بدأت هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **اشجار الجوز بالالتانبرج** « هو الذى يعبر عن فرحة جموع المساجين والصحة وعلامات السعادة التى كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تماما هذا الشعور في رسومات يروى ( ٥٣ ) .

ويأتى هنا دور المتحف الخيالى كما كان يروق للارو ان يتخيله . فأى متحف في العالم هو من أكثر الامكنة التى تعكس عظمة الانسان . فهو يفرض على المرء أن يتساءل عن معانى هذه التحف الفنية التى تعرض في المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء عن رسالة الفن نفسه .

والمتحف الخيالى الذى بدأ في مخيلة مارلو بدأ فعلا بجسده قبل وفاته عن طريق افتتاح متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والخزف .

والمتحف المثالى هو الذى يشمل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الاساسية الرد على المتطلبات الجمالية المختلفة الكامنة في أعماق البشر والتى تعبر عن تراث عريق في كل مراحل البشرية ، وهل هناك أجمل واسمى من تعارف الشعوب عن طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بونابرت في ايطاليا لم تستطع ان تحضر الى فرنسا سقفاً فيه الفاتيكان الى اللوفر - بينما أن مجرد عرض الموناليزا ( أى الجو كوندرا ) لليوناردو دافنشى في اللوفر مثلاً جعلت حضارة النهضة الايطالية تزدهر وتترعرع في عقول الفرنسيين عبر الأجيال حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفنى مثلاً .

ونضيف هنا نحن مثلاً آخر : ان ما تركه معرض توت هنخ آمون المتنقل في أوروبا وأمريكا منذ سنوات قليلة من تأثير وأعجاب وتقدير في نفوس كل الذين شاهدوه أكثر بمراحل من دوى أى انتصار عسكري ، أو حتى ما يعمل به النشاط الاعلامي والسياسي على الصعيد الدولي من أجل معرفة مصر ، ومتابعة قضاياها .

---

( ٥٣ ) بروجيل ( بيير ) (Purrr Brueghel) رسام فلامنكى من القرن السادس عشر مشهور بألفاته للوحات الجماعية التى تعبر عن مشاهد فليعة ودهية تتخبط فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرا في العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها من بعض وبالتالي فرسالة الفن هي اسمى معاني الرسائل ، وتأتي في تقدير مالرو في المرتبة الاولى قبل الديانات السماوية وقبل الايدولوجيات السياسية ، لانه اصدق تعبير حضارى عن العمق الانسانى في البشرية .

ولذلك يتعين ان يكون الفن الحديث حلقة تربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كي يصل الى المفهوم العصرى في تكامل الحضارة العالمية .

فنظرنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب ان تكون نظرة احترام وتفتح واعجاب لان كل ما يعبر بصدق عن بيئته يستحق ان يعامل باحترام وتقدير وهذا هو الأهم ، يستحق ان نقف عنده فنأخذ منه ونعطى له في حوار مثمر اخوى مثمر انساني .

ان كل ابداع فنى يكشف عن امكانية البشر في تخطى العصور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختفت او ماتت فان فنها لم يمت . فمثلا كما يقول مالرو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصرى القديم او الفراعنة لكننا نعلم الكثير ونتجاوب فعلا مع الفن الفرعونى القديم ، فنجد التماثيل المصرية في متاحفنا بفرنسا » .

وهكذا نرى على حسب نظرية مالرو ان الفن يخلق لنفسه قيمه الاساسية بل قيمه المطلقة . ولعل اهم هذه القيم هي كما ورد مرارا على لسان مالرو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالن يرفض العدم والعبث الذى يهدد الانسان في العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والأشياء في عالم جمالى مستقل ، متماسك ومميز .

وهكذا فان الفن ما هو الا بعث وهو الشيء الوحيد الذى يمنح للانسان في هذه الدنيا فالقدر يكرس ، والزمن يغير ، أما نحن البشر فبفضل الفن فنختار وندوم فنحيي انفسنا من جديد خلال اعمالنا الفنية ....

ان الثقافة في تقدير مالرو في اوسع نطاق لها هي تراث فكرى فنى وخلقى ويصفها مالرو كالآتي : -

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالمية تبدأ في الظهور لنا في شكل مغامرة تماما كعلم الفيزياء الذى هو مغامرة لغزو العالم الحديث . فلندكر ان علم الفلك عاش قرونا بأكملها بينما قيل في قليل من الوقت ان الارض لا تدور ، كذلك الحال بالنسبة للثقافة الحالية التى ولدت لنا تساؤلات موجهة تنبع منها ارادة قوية في ازدياد تدارك الانسان لمعنى حياته على الارض » ( ٥٤ ) فالانسان هو اللغز الاساسي في الكون .

ويمكننا أن نقول أن مالرو قطع أكثر من نصف الطريق بحثا عن الإنسان ، أما سنجور فقابله في النصف الآخر الذى قطعه هو كى يلتقى بالوجه الآخر للإنسان المعاصر أى الإنسان الغربى فأكد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الأسود أنه لا يمكن أن تقوم حضارة إلا إذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصا تلك التى نعرفها بالحضارة الغربية والتى على شبه النقيض من الحضارة الأفريقية ، ولكن هذا هو سير الكون نفسه الذى يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالإبيض على النقيض من الأسود ولكن لا بد من وجودهما فى الحياة سويا

والليل عكس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضادة لازمة لتكوين الكون فى مداره وفى فلكه وفى حركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : —

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٥٥) .  
( صدق الله العظيم ) .

وهذا بالضبط ما يعتقد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث عن نظريته ، أى السكينة التى يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فالزنجى بطبيعته كالرجل الشرقى لا يعرف القلق والضيق فى الدنيا لأنه يتلاءم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذى خلق السموات والأرض وكل ما عليها وأن كان يحدد بالضبط اسم الله سبحانه وتعالى باسم « مونثو » الأعلى ومونثو يعرف عند الرجل الأسود بكونه أعظم رجل وأكمل الرجال خلقا وشكلا ولهذا فهو يستحق العبادة وهو أقوى الكائنات فخلق كل شيء وكل شيء فى مكانه ويؤدى وظيفته على خير وجه . فلا تمرد ولا انشقاق ولا قلق فى حضارة الرجل الأسود حتى جاء اليوم المشؤم الذى سحق فيه الرجل الأبيض كل شيء واقتحم البلاد واستغل أخاه الأسود أسوأ استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث ، فدنس المقدسات وحطم الحضارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوما أن ينجلي ولا بد من نقطة شعوب إفريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فتبنى الحضارة الجديدة للإنسان المعاصر هذا هو بعينه خط سير الشاعر الأسود حتى يلتقى فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

إذا كان أندويه مالرو قد رحل كثيرا بعيدا عن بلاده باحثا عن مفهوم جديد لحضارة الإنسان المعاصر فإن الجواب على بحثه يوجد بإفريقيا حيث تعلم أن الفن يعبر عن الإنسان ، حيث تعلم الإنسان أن يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده فى هذه الدنيا .

« لا يجب أن يبدأ نحائونا فى نحت اقنعة حديثة على ذوق أوروبا ، انك على حق ! ولكن الشيء الذى يجب أن يكون هو أن يحس نحائونا أنهم فى منتهى الانطلاق ، فى مجال الفن العالمى

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا أن قوة الانفعال والتأثر بالشيء ( التى هى اصدق تعريف لكلمة افريقيا نفسها ) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ، نقطة امتيازهم عن الآخرين فى مجال الفنون . ان الاقنعة سوف تموت يوما ولكن افريقيا سوف لا تخضع أبدا الى الفن الاوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك فى الطبيعة وفى كل بقعة بها وجود للانسان وسنتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

» فى ذات يوم انزعج سرطان البحر (٥٧) العجوز « كوكروفو » من زوال الحكمة فى العالم ، فلا أحد يعير لها الاهتمام الكافى ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كوكروفو » ان تجمع كل الحكمة ويضعها فى حبة قرع كبيرة ثم يصعد بها الى أعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكى الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كوكروفو » من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده المضخم ولذا فالتقى بحبة الفرع من فوق الشجرة فانكسرت الحبة وتبعثرت فى ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة أو اقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تعلل درجة حكمة الشعوب ورفيها واصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص فى امرين : -

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ، والايمان بالانتماء المطلق الى ارض الاجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكى يكمل الحكمة المطلقة التى هى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية اخرى .

**فموقف سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين : -**

**الشق الاول :** الانتماء الى الاصل العريق للانسان الاسود بكل مظاهر هذا الانتماء الساسى ، الفنى والفلسفى .

**الشق الثانى :** هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر . وراينا ان كل ما كتبه سنجور هو افريقيا ، أى أن انتماؤه مطلقا على الصعيد السياسى ، والايدىولوجى ، والوجدانى والفنى ...

وبوفاء مطلق استمر الشاعر الاسود على مدى اكثر من اربعين سنة فى نشر حجته ، غير مبال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر - فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة فى بلد متخلف وفى قاره فتية خضعت قرونا طويلة للاستعمار الاوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والامية ، والأمر من هذا ذل الاستعمار ؟ كيف يكون استرداد

(٥٦) زوار مارين ص ٣٤ .

(٥٧) ويعرف بالفصحى باسم « السلطعون » .

الكرامة وتم استعادة الحرية وحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل الا في الثقافة أولا ،  
فالثقافة سلاح الرجل الاسود ولكن اية ثقافة ؟ الثقافة التي تعتمد على تكامل وشمول الثقافات  
وبالتالى ايجاد الفرصة للرجل الاسود لاسترداد مكانته الصحيحة في المجتمع العالمى المعاصر الذى  
يعلمه الكثير ولكن ايضا يستفيد منه اكثر .

فلا يمكن لمجتمع يناشد العالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة  
ومجلس الأمن وما الى غيره أن يتجاهل الغرب مثلاً وجود العالم الثالث التى تعبر القارة الافريقية  
أهم عنصر فيه . هذه القارة التى حتما ستلعب دوراً هاماً في مسرح التاريخ القادم على الصعيد  
الحضارى كما تنبأ بهذا اندريه مالرو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديراً هائلاً مدوياً يأتي من أركان الأرض سوى أوروبا ... » وفي نفس  
الوقت يعلن من جنازة عالم قديم ترى هل ينبىء بقدوم افريقيا ... ؟

افكر في طائرتى عام ١٩٥٩ التى كنت أجوب بها فجراً مستنقعات التشاد الشاسعة ؟ افكر  
في الجندى الاسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا  
يوم ١٤ يوليو بتوزيع اعلام اتحاد دول افريقية المستقلة ... افكر في الرئيس سنجور - وفي  
النزوحيه التى كان يعلنها على الملا ...

... أن سنجور ايضا تنبأ بالدور الذى سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ في عام ٢٠٠٠  
هل سيقف العالم الثالث امام الحضارة التى تغزو القمم وتضيع شيئاً فشيئاً بها ؟

ان مالرو اذن مثل سنجور لا يمكن أن يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين الا وهي  
تكامل الحضارات ومزج الاجناس المختلفة التى فعلاً تنادى بعضها البعض بسبب هذا التناقض .

ان عطاء الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وتفتحها ويوجد السكينة والسلام في  
سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التى طالما تغنى بها سنجور في شعره ، لم  
يعد من الممكن ما يعتقد سنجور انه حتى على الصعيد الداخلى لاي بلد أن نتجاهل بعض  
الحقائق الخاصة بالانسان المعاصر .

« ... أن ندرس الانسان في ماهيته فقط فلا نعود الى أصله وجنسه وتاريخه وبيئته  
وجغرافيته ، فهذا موقف خاطيء ومائع وغير واقعى أن كارل ماركس عرف الانسان على حسب  
نظرية العلم الحديث بانه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون في الطبيعة وبواسطتها في  
المجتمع المحيط به وبواسطته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه واخذ به دائماً في أنه يعيد الرجل الاسود على كل  
المستويات الى الجماعه الاساسية التى ينتمى اليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذى كان العدو الاول والذى أصبح أهم صديق . وبذلك تتحقق في افريقيا نفسها اولاما ينادى به مالرو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » ( L'Africanite ) خليطا سعيدا موفقا بين الزنوجيه ( Negritude ) والعربية ( Arabite ) والخطوط التالية هي تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من أن تعطى وتمنح دائما حتى ايامنا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من ارض افريقيا .

آن الاوان اذن أن تمتنع افريقيا الآن بثروتها أولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزهده فنونها العظيمة لتعرف للعالم اجمع انها اصدق تعبير للانسان في البحث عن ذاته وعن وضعه في العالم ، ثم تأخذ من الحضارات الغربية ما يلائمها وما يتواءم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولا تحاكي ولا تقلد تقليدا أعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار « الثقافة » أن أبشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الدهنى الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد . »

وكثيرا ما يحذر سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع في هذا الفخ المريع الذى ينصبه لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت متفتحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتلطح علينا لطخا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولا تراعى البيئة والظروف التى نعيش فيها ولذا - يصبح الرجل الاسود عبارة عن مجرد دمية هزيلة تقلد تقليدا أعمى كل ما يفعله الغربيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرها لا يتلاءم مع هذه الحضارة . ثم أن هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ في الاعتبار فحتى اذا حدث أن قلد المرء شخصا آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحتقار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسى اصله لا أصل له على الاطلاق ، وبالطبع يصبح موضع سخرة واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا في مجتمعه الاصلى ولا في المجتمع الجديد الذى يحاول أن يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال في افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصا منها عندما تدارك الموقف في صباه وحس بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه اسود وأن موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تتلخص في الآتى : -

أن سنجور شاعر اسود ورجل ثقافة فرنسى . . .

**والثقافة هي شغل سنجور الشاغل** فهو مؤمن تماما بأن الثقافة هي التى تصنع الشعوب ، وتكون الرجل ، وبالتالي يصنعها الانسان وانتصر بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الآخر ، ونذكر انه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ بأصالته « وطعمها بثقافة الفرنجة » وربما هذا الذى انقذه هو أولا الاعتزاز بأصالته

وثانيا تفتحه المطلق على كل حضارات العالم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هي أنسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير في هذا الشأن .

**ولقاء الانسان بالانسان يكون اولا مع ابناء الجنس نفسه ولكن يمكن لعنى الاخوة ان يمتد فيشمل رفاق النضال في ماساة واحده وضدعدو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى في هذا الموقف من روايته « المصير الانساني » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسه للآخر ولكن يتم لقاء الاخوة في همسة أو لمسة يد ، وهذا هو ما نراه في قصيدة سنجور : البحر الابيض المتوسط : (٦١)**

« وردد اسمك : ديا للو !

ويدك تشد على يدي ، وافكارنا تتلاقى في نصف الليل ، ليك ، ليل لغيتنا الشقيقتين .

كنا في البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الاجناس الفاتحة وزرقتة لم تر عيناي مثلها في المحيط وأبتسامته على مليون شفة من الضوء الناصع ...

... وكنا نتحدث عن افريقيا وكان النسيم الدافئ يأتى لنا برائحة الخلاصة اكثر دفئا من روائح المرأة السوداء ....

كنا نتحدث عن الوطن الاسود في المساء على الجبال وكتفانا تتجاوران في اخوة ومحبة فكانت افريقيا تعيش هنا على مرسى الافق بوجهها الاسود المضيء ... وكنت اردد اسمك : ديا للو .

وكنت تردد اسمي : سنجور »

ان فكرة الاخوة في افريقيا السوداء عريقه منذ الازل ، وهي مرتبطة بالتراث المعنوي والديني والروحاني ومفهوم الاخوة في الشرق الاوسط او بمعنى اصح في البلاد العربية توغل عن طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقيا السوداء وهذا المفهوم مرتبط بنظام الحياة البدوى القبلى ، فالانتماء الى القبيلة يقوى روابط العم والخال والقريب والنسيب ... ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التعرف على شخص بمجرد أن يذكر أنه ينتمى الى شخص آخر معروف لدينا . فالتفاخر بالنسب والانتماء القبلى والارتباط الاسرى والاحساس بالاخوة وكل معانى الرجولة والشهادة ، والسعى لنجدة الآخرين في وقت الشدة في كرم : كل ذلك يعتبر من العلامات المميزة للتراث الحضارى الافريقى وكثيرا ما تغنى شاعرنا سنجور بهذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصباور فيق الكفاح : الشاعر ايميه سنزير (٦٢) يقول له في قصيدته الشهيرة : خطاب الى شاعر :

S : La Nigritude est un humanisme

( ٦٠ )

S ; Hostes Nories (Mediterrance)

( ٦١ )

( S : Chants d'Ombre Letter a un poete )

( ٦٢ ) الهانى اللال :



« الى الاخ الحبيب والصديق ... تحية وسلام جاد وأخوى ... »

سأنتظره - ..... »

ان معنى الاخوة يتخذ اقصاده عند سنجور حيث يشعر الشاعر بأتمائه الى أبناء دمه في المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كل أصدقاء الاسر ايا كان لونهم او جنسهم او عقيدتهم .

فالتضامن الانساني لمواجهة موقف صعب او محنة هو الذى يربط بين المرء واخيه ، وهو الذى يميز الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتد احساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم أو نظام قامع غاشم : ولذا يرى سنجور في معنى الاخوة أعمق الابعاد فيقول عن رفاق الاسر :-

« مختلفى الملامح والهيئة والملبس والعادات واللغات ، ولكن في عمق الا عن نفس أنشودة الالم تحت الجفون المريضة .

فالكافر والكاييل والصومالي والموريتاني والغاني والفيني والبابامباره واليوبو - والماندياجو اخوة .

وليد الرعاة وعامل المناجم والفلاح والحرفى والطالب والقناص وكل العاملين البيض في النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستورى، وعامل الميناء يلغريبول واليهودى والمشرى من المانيا ودويون ودويوى وكل أبناء سان دونى» (٦٣) نفس الموقف الانساني ينجلي ويتبلور في اعمال مالرو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين (٦٤) في السجن .

فعندما مات كيو على ايدى قوة الصينيين عرف كاتوى معنى اليأس والرعب فكان يتخيل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم ايضا ما بشاعة مصيره هو ايضا والزلاء الذين التقى بهم في هذه الزنزانة الكثيبة السوداء الضيقة فبدأ يشعر بالوحدة المريعة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد أن يفعل شيئاً من أجل هؤلاء الذين يتقاسمون معه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئاً ولكن يحسن بوجودهم من أنفاسهم المضطربة فقط . فكان يرجع انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة في الزنزانة ولذلك قرر ان يتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسه من المصير المحترم الا وهو جريمة الزرنيخ التى كان يحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان يأتى الجنود

فينفذوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من أن يوقظ انتباه الحارس فهمس لسوان وهو الوحيد الذى كان يعرف اسمه قائلا هيا ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرمة الزرنيخ الخاصة بى فور أن تصل يدك الى جدى كن حذرا فليس عندى الا لائنين فقط .

وهكذا ضحى كانوى بنفسه فى سبيل انقاذ اثنين من التعذيب المهين والهلاك فقدم نفسه للهلاك بدلا منهما واعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايديولوجى وبين معاشية حياة الجماعة . ولذلك فما اكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع اى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الاخوة مطلقا وملموسا .

فبينما يرى « كيو » ( Kyo ) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامة نجد أن هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة لـ « كويننج » وهو بطل آخر فى نفس القصة - المذلة والاستبعاد وبينما يرى الابطال الآخرون « بيه » و« هملريسن » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » أن هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والتعصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب - السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالفرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتقار » ( ٦٥ ) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحائط فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء اخويا يأتى اليه من أى مكان ، ولذلك أيضا نستطيع أن نقول أن تلك الضربات إنما ترمز الى ايمان مطلق بالاخوة البشرية .

وعندما يسمع فانسان بيرجيه (٦٦) رجال الاعداء يتحدثون فى الظلام فأصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه أصوات الالمان ، ولكن تعنى صوت البشر أجمعين .

« ولأول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع أبو الشعب الالمانى الشعب فقط ، وبما الرجال أى البشر » .

فالدلم الذى يربط بين الدين يتحدثون والدين ينصتون ليس دم قومى وإنما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتلاشى امامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبت منه شعور القلق وشعور الاخوة معا ويلتقيان دون فصل بينهما بانطلاق الى أبعد الحدود يأتى من أعماق أعماق الدهر .

وبهذه الطريقة يكشف لنا مالرو عن مفهوم الصداقة او الاخوة التى يلتقى فيها المرء بأخيه فيشعر انه انسان أمام لا انسانية القدر . ويتمثل ذلك فى هذه الرواية ( اشجار الجوز بالتنبرج ) فى اطلاق الفاظ السامة على العدو وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن ، وهاهنا نجد الرمز القوى الذى يرمز الى صلابة الشعور بأخوية الانسان يتجسد لنا فى شماخة اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدية بذلك كل التحديات ولذلك نجد أن بطل الرواية - فى نفس اللحظة - يتذكر تلك الاشجار العريقة التى تحيط به - فى الريف - من كل مكان والتى تكتسب دائما صفة الابوة حيث أنها لا يتحدد عمرها بالسنوات فهى نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وأن كانت تحتفظ بلمسات الرق عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تتحدى الدهر فى شموخها ومنابتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مالرو من ناحية - معلقا عن موقفه من الصداقة والاخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الوفاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المعلقة على مجرد موقف سياسي » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الاسود سنجور الذى يرى أن معنى الاخوة ليس فقط رباطا وثيقا بأهله وأبناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى أنحاء العالم وذلك يبدو واضحا فى موقفه وعمله السياسي وخصوصا شعره حيث نجد أكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رأينا .



ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومالرو لتحقيق الذات وعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القدر والزمن والظلم ، والظلم والعبودية ، فالن لغة الشعوب جمعاء ، تربط بين كل حضارات الكرة الأرضية ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمع ثقافه متحضر وانسانى .

وبالتالى تستطيع القول انه اذا كان عمل مالرو الفنى يسمى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » أى انه التعبير الوحيد عن حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقدر فى معظم ظروفها فإن الشاعر الاسود هو الآخر يعتبر الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الاسود منذ الازل للتعبير من ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعا وكما يقول سنجور دائما « ينفى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى افريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستديم لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير : ان الفن فى اعتقاد مؤلف المتحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى أى من الفنون التشكيلية : نحتا كان أم تصويرا ،

أم موسيقى فأنما هو يوجد الحوار مع كل ما يحيط به ، بل أن هذا الحوار يمتد الى الانسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفني ، فإن هذه التحفة تصبح تحفة لكل انسان في كل مجتمع ، فهي نفسها فرضا ، أيا كانت المعايير والمقاييس التي تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملاح فكل منا يحمل في أعماق اعماقه هذا النداء الشديد نحو الجمال الفني ، نحو جمال الابداع بصرف النظر عن قيمه وعن حضارته وعن تكوينه الشخصي الذي قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض أحيانا مع الحضارة التي ينبع منها ويتشبع بها الفنان الخلاق الذي منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة في هذا الشأن منها تحفا فنية من مجاهيل افريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الأقصى ، وحضارة ييزنطه وأمريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الأجيال والعصور والحضارات تعطى لنا تحفا لا يمكن للبشر الاختلاف في أنها تحف ، والكل يجمع على قيمتها الجمالية الاستثنائية وخصوصا الذين لا ينظرون اليها الا من الناحية الجمالية فقط مثل مالرو نفسه . فإن العالم الذي تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا عن لغة مختلفة تماما عن لغتنا الفنية وعن التراث الذي خلقه لنا الاجداد ، ولكن هذه التحفة تحدث اليها وتتكم لغة جديدة هي نفس لغتنا لأنها تتجه الى نفسنا العميقة التأملية ، وبالتالي تصل الى العمق البشري فينا وتحرك فينا أسس المشاعر أي الاحساس بالجمال أمام روعة ما خلقه الفنان والاحساس بالجمال وإن كانت معايير تختلف من حضارة الى أخرى .

بل في خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث في معايير الجمال عند الاغريق فمقاييس ربة الجمال نفسه فينوس تصبح الآن شبه مضحكة في الحضارة الأوروبية الحديثة - الا ان هناك شيئا لا يختلف عليه وهو الاعتراف بمقدرة الفنان في التعبير عن ما يجول في نفسه وما يخطر في مخيلته ، وهنا يأتي دور المتحف الخيالي الذي يجمع في ذهن كل منا كل انواع التحف الفنية العالمية بحيث يجمع حضارة فنية مثالية متكاملة تشمل كل ما ينتج من الاحساس البشري في مختلف الأزمان والقارات .

ان الانسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته في العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وتراكم المادة وتوالى الكواكب ، وفي سجنه هذا ترجع عظمة الانسان الى انه يستطيع أن يستخرج من نفسه صورا تبلغ من قوتها انكارا للعدم وإثباتا للوجود . . . . الانسان ؟ ملاح عظيم غامر بحياته تاركا قارة أوروبا القديمة متجها الى العالم باحثا عن اخيه .

اننا نعيش جميعا في هذه السنوات الأخيرة عملية التطعيم أو المزج هذه التي يتكلم عنها سنجور فمن منا لم يتأثر بالثقافات الغربية وبحضارة أوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربي والأفريقي الذي يجري في عروقنا ، وبالتالي فنحن نحقق يوميا ما كان الأمل بالرو وما هو الحقيقة لسنجور ، ولبي الشاعر الأسود نداء « بلد النبيد الرطب والافغانى » (٦٨) كما يسمى فرنسا ، وسمع مؤلف القدر الإنساني دقات طبول التام التام في أعمال افريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفني خير سفير لكل انسان يود أن يبدأ الحوار ويرسي حجر الأساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارة الانسان .

**BIBLIOGRAPHIE****I—OEUVRES :**

de SENGHOR : Poèmes (chants d'Ombre 1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956  
Nocturnes 1961 - Poèmes Dicers - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

**de MALRAUX :**

...Des origines de la poésie Cubiste in La Connaissance 1ère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris à Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de l'Altenberg - Lausanne 1943

...La Psychologie de l'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne, Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat...

Lazare

La tête d'Obsidienne

- Oraisons funèbres - Gallimard 1975
- La Tentation de l'Occident - Paris - Gallimard 1975.
- Saturne, essai sur Goya - Paris Gallimard 1975
- Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.
- Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

- La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'irréel.

L'Intemporal

## II — OUVRAGES CONSULTÉS :

- Pierre de Boisdeffre : André MALRAUX (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955
- Pol Gaillard Les Critiques de notre temps et Malraux - Paris Garnier 1970  
Malraux - Présence littéraire 801 - Bordas 1970
- Gaetan Picon : André Malraux mf. - Gallimard 1945.  
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955
- Pascal Sabourin : La réflexion sur l'art d'André Malraux : origines et évoluted.  
Klincksiek 1972.
- G.T. Harris : André Malraux : l'Ethique comme fonction de l'Esthétique -  
Letters Modernes - Situation 27 1972.
- Joseph Hoffmann : L'Humanisme de Malraux - Ad. Klincksieck 1963.

ملوى محمد مطر

## الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية في ١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد اندريه مالرو في الذهاب الى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولقد اكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ، اذ انه ذهب الى اسبانيا من تلقاء نفسه وقبل ان تقرر الدولية الشيوعية ارسال متطوعين للاشتراك في الصراع .

وكان الجنرال فرنكو FRANCO يسيطر في هذه الاثناء على جنوب البلاد ويشرع في الزحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالقباط الذين انضموا اليه .

ولقد تبين لمالرو - خلال بضعة ايام - انه من المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما اتضحت امكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق واعاقة زحف طوابير فرنكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشترت تقريبا في اسواق « المخلفات » وبفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب « اسبانيا » ESPNA ، وهو السرب الذي سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة اشهر ، سرب « اندريه مالرو » .

واشترك مالرو في ٦٥ مهمة جوية وحارب ضد طائرات موسيلنى الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو في « مدلين » Medellin و « طليطلة » Toledo و « مدريد » Madrid و « جواد لخرا » Guadalupe واشترك أخيراً في موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها إحدى طائرات السرب ، غير ان مالرو تمكن من انقاذ المتبقين من الحادثة وارجاعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « اندريه مالرو » دوراً هاماً في الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول أنه بفضلها قد تمكن الجمهوريون من اعاقة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وتثبيت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

وبعد أن انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود أكثر من ستة أشهر ، قام « مالرو » ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدورة اعلامية في الولايات المتحدة حيث ألقى المحاضرات وجمع الأموال والمساعدات والتأييد لصالح الجمهوريين .

ان حرب اسبانيا التى أثارت كثيراً من العواطف والمشاعر ، أثرت أيضاً على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلاً ان التدمير الفاضى لمدينة « جرنیکا » Guernica قد ألهم « بيكاسو » Picasso إحدى لوحاته الشهيرة و « أربال » Arabal إحدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى إحدى قصائده . وهى أعمال تحمل جميعاً اسم المدينة الباسلة الصغيرة وأثرت هذه الحرب كذلك في « برنانوس » Bernanos الذى أحنقه موقف الكنيسة الاسبانية فكتب « المقابر الكبرى تحت ضوء القمر » Les Grands Cimetières sous la lune و « همنجواى » Hemingway الذى نشر بعد الحرب « لمن تدق نواقيس الموت » For whom the bell tolls و « سارتر » Sartre الجدار de Mur ومالرو ، بالإضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الأمل » L'ESPOIR .



وفي الفترة التى نشرت فيها رواية « الأمل » كان مصر « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد أثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : اذ ان بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحربية لمناضل متطوع ، وبعضهم عده مؤلفاً من مؤلفات « الدعاية الشيوعية » لو نوعاً من التقارير الصحفية الممتازة وليس من شك في أن الاحداث التاريخية التى يرد ذكرها بدقة في هذه الرواية تقربها من هذا الشكل الأخير من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو ، على « إيف سالج Ives Salgues » الذى لاحظ ذلك بما يلى في عام ١٩٤٨ :

« تقرير صحفى ، أجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك أيضاً التفسير الفلسفى للاحداث اذ ان الحرب الاسبانية تعد بمثابة



الضربات الثلاث التي تعلن عن مأساة أوروبا : فهي حرب تجريبية بالنسبة للفاشية ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حرب الوهم الشعري بالنسبة للجمهوريين . . . «  
ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها من اجل الجميع ، ولا فرد من اجل ذاته ، ولم تتألق البطولة قط مثلما تألقت في فوضاها التي تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلا سكيل . . . (١)

تقرير عن الاحداث وتفسير فلسفي لها اذن ، ويمكننا ان نضيف الى ذلك « المعنى الميتافيزيقي » الذي تتخذه هذه الاحداث بالنسبة للانسان . الا ان مالرو حينما يذكر لفظة تقرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفي بالمعنى المألوف ولكن التأكيد فقط على صحة الاحداث التاريخية التي يسردها في روايته وهذا ليرد - بلا شك - على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفي هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال ماكتبه « اندريه روسو » في جريدة « الفيجارو » :

« ان مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الابتسخر قلمه لها ، وهذه هي نقطة ضعف رواية « الامل » التي تظهر للقارئ في صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . في هذه الرواية نرى كل الشعب الاسباني وهو يدافع عن نفسه ضد مضطهديه ، اما اتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة من « البلهاء » المضللين . ولا نجد بجانب الجمهوريين الا ابطالا وشهداء ، اما من جهة الفاشيين فلا نجد الا مفارقة مرتزقة وايطاليين والمنا . . .

وحيثما شرع « فرنكو » في ضرب مدريد من الجو فانه قصد الاحياء الفقيرة وتجنب الاحياء الغنية . الخ . . . يمكن القول بانني لا اريد في هذا كله تمييز الحق عن الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريخ الحرب الاسبانية وهو ايضا يفسد ثلاثة ارباع الرواية . . . (٢)

وليس من شك في ان السياق التاريخي يحتل مكانا هاما في رواية «الامل» وهو امر مرده الى

GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Plon, 1971, p. 237

(١) راجع :

والبوراكوس « Borrachos » هم السكارى ، وتمت هذه اللوحة من اشهر لوحات فيلاس فيلاس كيز Velas Quez في متحف البرادو Prado بمدريد .

ROUSSEAU, Andre - Un anarchiste total in Le Figureo, 1er Janvier 1938 (٢)

وهذه الدراسة عن مالرو قد عالجهما الكاتب من جديد تحت عنوان :

ANDRE Malroux, écrivain révolutionnaire in A. Rousseau Litterature du XX siècle, t. II, ed Varietes, Montreal, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك مقالة :

BRASILLACH, Robert - Lauserie Litteraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938

حيث قام « برازيلاك » بتوجيه نفس ملاحظات « روسو » لم ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الامل » وهو يالس ، ويهديها الى زملائه في « ترول » في الوقت الذي سقطت فيه « ترول » .

الظروف التي كتبت فيها ، ومع ذلك لم يقصد « مالرو » قط كتابة حكايات او تاريخ هذه « الحرب التي هزت العالم ... » (٣) ، الا اننا نلاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل عن ذكر بعض الاحداث التي وقعت في الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقى وصادق (٤) .

واما بالنسبة لغياب اى تعليق على « ايدولوجية » المعسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية في تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التي يثيرها في كتابه الا وهى انتصار الفعالية والتنظيم على « الحلم الفوضوى » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فرانكو » ما كان ليتخرج عن فعل ذلك وفقا لعاطفتهم الحقيقية وهى القومية .

« الامل » ليست اذن وثيقة ، بل عملاروائيا الفة الكاتب على ايقاع الاحداث التي دارت في اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، اى في خلال الاشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الوقائع التي يذكرها « مالرو » فهى : فشل الثورة في « مدريد » Madrid و « برشلونه » Barcelona وسقوط طليطلة Toledo في يد القوات الفاشية ، القتال الذي حرر العاصمة ، سقوط « مالغا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريهويجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم في « جواد لخر » Guadalupe . وهذه المجموعة من الاحداث التى تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الاول فهو ذو اسم معبر « الوهم الباعرى » L'illusion Lyrique وهو يعلن بوضوح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الامل » : التنظيم و « ابوكاليس » او الحلم (٥) وصراعهما . فهل يستطيع حلم الاخوة الثورى ان يحقق النصر بمفرده ؟ وفى القسم الثانى « المنزانريس » Le Monzanaires يتطور الصراع ويتغير

HUGES, E. Y. - The War that Roused the World

( ٣ ) راجع مقالات :

In Life, New York, 18 December 1961 and 1st of January 1962

( ٤ ) راجع بالنسبة لهذا الموضوع :

WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la guerre d'Espagne. Porentrua (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث يبرهن « فيلهلم » على ان الحقيقة التاريخية للاحداث قد لقيت احترام « مالرو » الا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الامل » .

والفرس من هذه التناقضات - كمنح مثلاً حادثتين في زمن واحد - هو تكثيف الوقف « المأسوى » لبطل الرواية . ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تعالج أساساً الجانب « الفنى » في الرواية مثل « وصف العمليات والأسلحة » ، « الملاحظات الجغرافية » و « الزمنية » ... الخ .

( ٥ ) كلمة معناها الاشتقاقي : « الوهى » وهى تكون : L'APOCALYPSE

عنوان الكتاب الاخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حنا الذى يشمل مجموعة الاحداث التى اوحيت اليه وخاصة من نهاية العالم وحلول ملكوت الله . والكلمة تأخذ في رواية الامل معنى « الثورة » ، التى تعد الانسان بالحرية والكرامة والاخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والاخوة » - ولقد أبرز مالرو في كتابه : « الالذكريات » LES ANTIMEMOIRES « تفصيلية لكتاب القديس حنا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختياراً مشاويلاً لان لها دلالة شبه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ ان البطولة وحدها لا تكفى حتى ولو تميزت بالفعالية ، واذ ان الدفعة الثورية لابد لها - لكى تنجح - من أن تنصب فى تنظيم . وفى القسم الثالث والاخير يتحد الحلم والتنظيم ليولدا الامل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبما ان الكتاب يركز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت فى الطول الذى يميز الاقسام الثلاثة . فمن الطبيعى أن يكون « الوهم الشاعرى » اكثر الاجزاء طولا اذ انه يحوى موضوع التنظيم وموضوع الحلم وصراعهما ، والجزء الثانى متوسطا فهو الذى يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيرا لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التى لا تخرج عن نوع من التوازن المؤقت الذى يصعب الحفاظ عليه .



من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لجمل العمل الروائى للكاتب ، تقوم رواية «الامل» منذ البداية على تمجيد القيمة التى تجلت فى عمله الروائى الآخر « زمن الاحتقار » Le Temps du Yepri ، الا انه بينما يقبل البطل « كاسنر » Kassner الثورة برمتها ، نرى معظم المحاربين فى « الامل » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع الطامح الاولى التى املت عليهم تطوعهم . او بعبارة اخرى فان الوسائل التى يستخدمها التنظيم الثورى من أجل الوصول الى غاية محددة كثيرا ما تصطدم بالدفعة الاخوية التى حثت هؤلاء الابطال على الانضمام الى « القضية »؟ وانطلاقا من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء باثارة قضايا السياسة والاخلاق ، والنظام والحرية وقضية الفعل الثورى : هل يسمح للانسان بتحقيق ذاته او الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقة التى كانت تصور لنا بعض الابطال الواضحى الفردية - خاصة بالنسبة لمفهومهم للحياة - فان «الامل» تقدم لنا جمعا من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك أن كل واحد منها يحمل هوية ، فهو اما فوضوى ، كاثوليكي ، شيوعى ، مثقف او مرتزق . . . ولا يهمنى الا بدوره الوظيفى فى الجماعة التى ينتمى اليها . ولكن بالرغم من كونهم فى الغالب ، انعكاسا جزئيا لشخصية جماعية مجردة (٦) فانهم سرعان ما يكشفون لنا عن شخصيتهم الفريدة المؤثرة . ومن بين هذه الشخصيات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويل » MANUEL . اكثرها اهمية ، نظرا لبروزه دائما فى الصف الاول وتواجده من اول الرواية الى آخرها ، اما بقية المناضلين فانهم اما يقتلون واما يختفون مؤقتا من الساحة ليظهروا مؤخرا . كذلك يعد « مانويل »

GOLDMAN, Lucien

(٦) هذا التعبير للوسيان جولدمان :

Pour une sociologie du roman, Paris, Gallimard, 1965, p. 220

ولكنه يعبر ايضا عن وجهة نظر عديد من النقاد ، مثل لويس جيليه

GILLET, Louist- L'Espoir in Les Nouvelles

Litteraire I, 8 Janvier 1938

الذى يقول : انا لا اميز جيدا ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

اريد ان اعرف شيئا عن تاريخهم ، اريد ان اعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على مانيان او ايمينيز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز فى التعريف ولا يتبقى لنا الا مجموعة من الخطب المجردة ، والاخبارات الباهتة ، الاتية من أقصى العالم .

المناضل الوحيد الذى يتضح نهجه الثورى تماما فى رواية « الامل » فنحن نعاصر فعلا تطوره التدريجى منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس » MONT-PARNASSE ثوريا عاطفيا مليئا بالحماس، الى أن صار ضابطا يقود فرقة من الجيش الجمهورى ثم شيوعيا ملتزما يسيطر على عواطفه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهى التطور الحتمى من « الوهم الشاعرى » الى النظام كما توهم الينا بالمغزى الميتافيزيقى لهذا التحول .

• • •

### أولا : « وحي الاخوة »

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . » ( الامل ص ٢٧٩ ) .

ان الاخوة الحققة تتدفق منذ الصفحات الاولى لرواية « الامل » وتجد لها وسائل تعبير عدة مثل المصافحات اليدوية وكلمات التحية التى يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الايدي التى تربت على الاكتاف والايدي المرفوعة بالتحية وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الاخوة . » (٧)

وفى مكان آخر من الرواية :

« كان النقايسون يتصافحون بالايدي ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كما لو كان كورسا مستمرا واخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعادة ، المتكررة أو الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس فى أخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بين الجموع وبين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الاحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

L'ESPOIR, Paris, Gallimard, 1967

( ٧ ) الامل ص ١٧/٠

( ٨ ) موضوع الجموع الذى نراه فى معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتسب كل معناه فى رواية « الامل » . ويعتقد على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد فى كتب الفترة الثورية اكثر من التلاحم بين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل واسطورة الشعب » .

راجع : PICON, Gaetan Malraux par lui-meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

( ٩ ) رواية « الامل » ص ٢١/٠

وهى تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك أروع تعبير من هذا الالتحام الذى نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك أن هذا الحماس الاخرى الذى يلهب أحاسيس الجموع يعكس ايضا المواقف الفردية للابطال ، فلا الخلافات الفلسفية او السياسية التى توجد بين المحاربين بقادرة على كبت الشعور الذى يوحدهم ولا شىء يمكنه أن يقف أمام وحدتهم التى يعليها المجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى أن الفوضوى « بويج » Buig الذى يكره دماء المسيحية يتضح له حينما تجمله الظروف يحارب بجوار الضابط الكاثولىكى « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك فى الفعل او النضال يلقى الكراهية ، ما دمنائراهما : « اليوم وهما يحاربان معا فى اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد أيضا عند المرتزقة ، وكثير منهم مثل الروسى « سيبيرسكى » SIBIRSKY طلب أن يحارب شهرا بأجر وشهرا بلاجر « حتى لا تنقصهم النقود ولا الاخوة » (١٠) . أما الالماني « شراينر » SHREINER - الطيار القديم فى سرب ديشتوفن - فانه بالرغم من تحطيمه طائرة أثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزقة والمتطوعين فى اطار الابداع الخيالي » فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الامومة بين النساء (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التى توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها فى الرواية ، اذ بينما كانت الطائرة التى يقودها « ماينان » Magnin تحاول خلال مهمة فى مايورك أن تتفادى الانوار الكاشفة والقذائف المعادية تبدو « صداقة السلاح لها كأنها - تحمى جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب « انه لأول مرة منذ انطلاقهم بدأ هؤلاء الرجال يرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما أجمل ايضا هذا الموقف الانسانى : فلقد كلف « لوكير » بتدمير طابور مدرع للفاشست ولكنه رجع الى قاعدته بدخيره وحينما سأل قائد من سبب ذلك تبين انه فر هاربا وحينما حاول أن يبرر موقفه وبدأ كالطفل العزيز متلعثما فان قائده « فارجاس » VARGAS لم يلمه « متألما لمحاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع طمعه أن « لوكير » لم يكن قط جباناً » (١٢)

وتتجلى هذه الصداقة التى تربط بين المحاربين فى مشهد آخر بين « ماينان » Magnin و « اتينير » ATTIGNIES : اذ ان هذا الاخير ، الذى يخشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاشسية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « ماينان » حينما يحاول أن يستنكر افكار أبيه ، يقول له ماينان :

( ١٠ ) « الامل » ص ١٣٥/٠

( ١١ ) « الامل » ص ٦٨/٠ و ٦٩

( ١٢ ) « الامل » ص ٢٤٥/٠

« الصداقة ليست في أن تكون مع أصدقائك حينما يكونون على حق، انها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ » (١٣)

وفي موقف « مانويل » MAGNIN الذي لا يحتقر الفارين من « طوليطة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، انه يكاد يكررا أمامهم قول « مانيان » :

« ليس من الصعب ان تكون مع أصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » ( ١٤ )  
ان صداقة السلاح ، كما يبدو لناضلي « الامل » تتوثق عراها بسرعة وسهولة ، هكذا لا يفترق « سيري » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ ان التقيا في الفرقة الدولية ويقول كوجان في هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطني صداقة برجل قط في مثل هذه السرعة » ( ١٥ )

ولا شك ان النضال يوحى للجميع بهذا الشعور ، الامر الذي يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« ان ما نسمعه عبر النافذة ، ياسيد مانيان ، انما هو من وحى الاخوة ، وهو جد مؤثر واني لانهم ذلك : هذه الاخوة اعظم الاشياء تأثيرا على سطح هذه الارض واننا لانراها الا نادرا » ( ١٦ )

ولكن ما هو المعنى الحقيقي للاخوة ؟ انها اكثر من شعور جياش يتيح للانسان قهر وحدته ، انها قوة ترفع الانسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هي ليست ملجأ ضد الخزي ولكنها تتيح للابطال الذين يناضون مجتمعين ضد قوى الاذلال والاستعباد من باوغ اسمى واكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين أضلاعهم ، والتي ماكانوا ليحصوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة اخرى ان الاخوة قوة تسمو بالبشر اكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم العجوز « باركا » BARCA في هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما أريد ان اقله لك ، نقيض هذا ، اى الاذلال - كما يقول - ليس من العدالة في شيء . ان الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه في كتاباتهم السخيفة على جدر مكاتب البلدية : فنقيض المضايقة هو لا شك ، الاخوة » ( ١٧ )

اذا كانت المضايقة هي الاخوة ، فان « كيو » KYO بطل رواية « القدر الانساني » La Condition Humaine يعلن الى « كوينج » KONING : « الكرامة نقيض المذلة » .

( ١٣ ) الامل (راجع قوله الان) ان الصداقة التي لاتصمد امام اخطاء الصديق ليست بصداقة »

ALAIN, Props, Bibliothequen.r.f. de la pleiade, 1960, p.L235

( ١٤ ) « الامل » هذا القول يوضح مقالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هميرليخ » : « لا يجب

ان نطالب الرفاق باكثر من طاقتهم »

LA CONDITION HUMAINE

( ١٥ ) « الامل » ص ٢٨٥/٠

( ١٦ ) « الامل » ص ٢٧٩/٠

( ١٧ ) « الامل » ص ٨٩/٠

وهكذا نرى انه بتقريب هاتين الجملتين الاخرين يتحد معنى الاخوة مع معنى الكرامة وتصبح الاخوة نفسها محل الكرامة . وهذه العلاقة بين الاخوة والكرامة يعبر عنها ايضا مؤرخ الفن « سكالى SCALI حينما يوضح « الفيار » ALVEAR ان الرجال اذا اتحدوا بامل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . ان هذا السرب فى مجموعة لاعظم وانبل من كل فرد من افراده على حده » ( ١٨ ) .

وعلى هذه الشاكلة نرى الملازم « مورينو » MORENO الذى يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يجسسه الفاشست ويحكمون عليه بالاعدام . الا انه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « انك ، ايها الانسان ، مثل رجل التزم بعهود فصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذى الحياة تتغير فجأة فتتغير الحقيقة التي تنتمي اليها » ، وفى الوقت نفسه الذى يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة ياتلف « مورينو » مع كل من يحيط به . وان هذا الائتلاف لقوى بمكان ان خذلان الماضى والموت لا وزن لهما فى حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم افطن اليه وانا اقدم ضابطا ماركسيا ، الا وهو الصداقة التي لا توجد الا فى الجانب الاخر من الموت » . ( ١٩ )

ولا يكتفى « مالرو » فى « الامل » بتجسيد الاخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته فى الوقت نفسه الذى سيطلعنا فيه على تطور فكرة الاخوة ، وتحت هذا المنظور ، يمكن القول ان هناك تطورا فى فكرة الاخوة نفسها ، ففكرة الاخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة أو طريق نجاة ، مثل ما كان الامر فى رواية :

« القدر الانساني » La Condition Humaine

و « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris

بل ان الاخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الامر فى حال نزول الطارين الجرحى من الجبل :

استطاع فلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN اجتياز خطوط العدو واعلام هيئة اركان حرب الجمهوريين عن وجود مطار فاشى ، الامر الذى يتيح لمانيان واعضاء سربه من تدمير مستودع وقود و ١٦ طائرة ، الا انه فى العودة تقوم طائرات المانية من طراز « هاينكلز » HEINKELS بمطاردهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة ان استطاع « مانيان » MAGNIN وموروس MOROS العودة سالمين الى القاعدة اما طائرة « جارديه » GARDET فتتحطم بعد اصابتها ويقتل « سعدى العربى » SAIDI ويجرح كل من « تاييفر » TAILLEFER و « مير » MIREAUX و « سكالى » SCALI و « بوجول »

PUJOL ويشو « جارديه » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN أن يحدد بصعوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقة من المتطوعين لانقاذهم . .

وتم الانقاذ محاطا بمظاهر رائعة حقا ، فلقد كان الفلاحون يسرون في موكب خلف طابور الطيارين المصابين وهم ينقلون من « فالديليينارس » VALDELINARES الى قرية « لينارس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذي عمق الالتحام - كما سبق أن اشرنا الى ذلك - بين الشعب الاسباني والمحاربين الأجانب . ان العطف الساذج الذي أبداه أهل الجبل نحو الطيارين والاحترام الديني الذي أحاطوا به « النقلات » كانا من احدي هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، فلنرجع الى النص :

« كانت النساء وقد اثقلتها وطأة السنين تؤدي علامة الصليب عند رؤية الدم . ثم رفع رجل يده نحو « جارديه » و « بوجول » ، وأشار بعد ذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد في صمت وهي تشير الى الطائرة المحطمة والى الأجساد التي كان يظنها الفلاحون قد همدت . »

وأوقف « مانيان » MAGNIN نقالة « جارديه » GARDEI لحظة ليتأكد من أن صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الأخير بأنه يبصر . . يشعر « مانيان » برغبة في معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحرك وقد غاب نصف قرية « فالديليينارس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة « سكالي » SCALI مكان « مانيان » MAGNIN تقدمت امرأة عجوز مشدودة الراس في منديل أسود وأعطت للجريح حساء في فنجان . كانت هذه المرأة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفنجانا يابانيا قد يكون أفخم ما عندها . وتخيل مانيان فجأة حافة الفنجان وهي تندس تحت ضمادات « جارديه » وقد رفعت لذلك . فقال للمرأة : يستحسن ألا تعطي من حسائها الى من جرح في وجهه . وأجابت هذه بوقار : ان هذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية « (٢٠) . »

ووصل الموكب أخيرا الى « لينارس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجار الطرقات وامكانية تأثر الجرحى بسببها . . من جراء اهتزاز النقلات يسرون ويبدأ في خطى منتظمة ومتباطئة عند كل لفة ، وكان ارتفاع السير من شدة ملامته للألم على طريق جد طويل كما لو كان يملأ هذا الأخدود العظيم ، حيث تصيح بأعاليه العصافير المتخلفة . بضربات متأنية على طبول في موكب جنائزي . ولكن لم يكن الموت هو الذي يتلاءم في هذه اللحظة مع الجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين السمر والنساء الغائبات الرؤوس في مناديل لا يعرف لها عصر تبدو مختلفة كموكب نصر جليل أكثر من انخراطها في أعقاب جرحى » (٢١) .

( ٢٠ ) الأمل ص ٤٧/٠

( ٢١ ) الأمل ص ٤١/٠



وفي « لينارس » وأمام وجه « جارديه » المشوه رفع الفلاحون أيديهم - تماما مثل فلاحى فالينارس - في صمت .



في هذه اللحظات لا يسمعا الا أن نثر لكتاب جانبا حتى نتخيل بفكرنا هذا المشهد وقد نقله « مالرو » الى السينما ... ولنحاول أولا أن تقدم موجزا عن الفيلم الوحيد الذي أنجزه مالرو وهو « الأمل » ليقدّمه تحية الى الأخوة .

انجز هذا الفيلم في برشلونه عام ١٩٣٨ ، (٢٢) أى في خلال سنة بعد ظهور رواية « الأمل » الا أنه ليس تطويما للرواية نفسها ولقد أطلق عليه « مالرو » تميزا له عن الرواية اسم « سيرا دى ترويل » SIBARA DE TERULE ولقد منعت عرضه في عام ١٩٣٩ حكومة « دالديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم الا أبان حكم دييجول عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية وللاستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية في أول الحرب الأهلية نحو قرية لينارس . ويحاول مناضلو القرية المجاورة « ترويل » ارسال ذخائر الى الفلاحين المهددين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل البدائية ... ويتقدم مزارع الى اللجنة المحلية ويقدم معلومات هامة عن الأراضي المعادية فيقوم القائد « مينوز MUNOZ ) المقابل لمانيان MAGNIN في الرواية ( بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليين في تدمير القاعدة الفاشية ، وتتحطم طائرة عند العودة فيخرج سكان قرية من قرى الجبال لجمع المصابين ونقلهم الى الوادى .

واذا كنا نعجب الى اليوم لهذا الفيلم فلا يرجع هذا الى روعة تمثيل الممثلين ، اذا استثنينا « خوزيه لادو » JOSE LADO في دور المزارع . . ولكن الى القيمة العالمية للفيلم . ان الحرب التي خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكر في الفيلم والبواصت التي دفعت المناضلين الى حماية الوطن لا يشار اليها الا لماما ، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه في الفيلم على الأخوة التي تتولد في الحرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

( ٢٢ ) راجع بالنسبة للصعوبات التي لاقاها مالرو لتصوير هذا الفيلم أثناء الحرب

MARION, Denis Comment fut Tourni le film Espoir in Magazine Littéraire No. II. Octobre 1967

( ٢٣ ) اذا فشل الألمان في تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا في تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو

La Lutte avec l'Ange الذى لم يعاود كتابته .

( ٢٤ ) اذا كان تمثيل الرئيسين لم يكن متقنا فان دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات اسبان حقيقيون كان رائعا . ولقد قال اندريه جيد في هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلم الان فخامة ونوعا من السوفار الوفار المأسوى . فليس به أى تنازل للوق الجموع او لمأسى ويمجب . انه يتميز من خلال الاحاديث النادرة لابطال الماسة من خلال مواقفهم وتعبيرات وجوههم ومن خلال البساطة الجميلة للصور بهذا الشعور الكامن بكرامة الانسان ، وهذا الشعور يؤخر فينا بالقدر الذى يغنى اناسا فقراء لا ينفصلون عن الأرض التى يزرعونها ، فير داعين بنبالة موقفهم . انهم فلاحون متواضعون ولكن خطورة الحادث ترفهم الى مربية لابطال ، والشهداء .

راجع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, l'Aventure Humaine in Terre des Hommes, 1er December 1945

ونلاحظ أن الكاتب لم يستخدم في سيناريو الفيلم الا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهي الفارة التي قام بها الجمهوريون على مطار العدو الخفى والتي تبتعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . ان المشهد المنقول الى السينما يقارب في قوته التأثيرية المشهد الروائي ويثبت تماما في مخيلتنا ، اذ أنه بفضل اللونين الأسود والأبيض والتناقض اللوني بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القائمة من جهة أخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ أمامنا طابع الأبدية : « وكان يبدو أن الموكب يفر من صمت الجبال الغريب بصوت قباقيب بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفى » (٢٥) .

الا أنه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التي ترفع من شأن الرواية والتي يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظته الكاتب حينما كتب في « محاولة في سيكولوجيا السينما » : « يبدو أن الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهي القدرة على استكشاف سرائر الشخصية » (٢٦)

وانه ، بلا شك ، عن طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب في رواية « الأمل » أن يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لانه اذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدفعة الجياشة التي تغير من شخصهم وتسمو بها ، فهي أيضا حركة سياسية لا بد لها لكي تصل الى أهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمصير هذا البطل أو ذاك .



### ثانيا : من الحماس الى النظام

« ان أى فعل لا يمكن ان ينجح الا باتفاق منفذيه ، وحينما تصدق عزيمتهم الى أقصى درجة فانهم لن يتفقوا الا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لاي تابع امكانية الحكم او المناقشة » . ( آلان : أجاييت ، ص ٥٦٢ )

ان عالم الاجناس « جرسيا » GARCIA يعبر لأول مرة في رواية « الأمل » عن ضرورة التنظيم العسكرى . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب واخذ يناقش الأحداث الأخيرة مع « فارجاس » VARGAS ، و « مانيان » MAGIN أنه يقول لقد أحرز « الدوليون » نصرا عظيما في « ميديلين » MEDELLIN وخسر الجنرالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب .. ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان » MAGNIN ، يلقي على « بداخوز » BUDAJOS أعلاما تحمل ألوان الجمهورية استغل المغاربة فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع « جرسيا » GARCIA يؤيده « فارجاس » VARGAS ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد ان حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن أن تستمر الا اذا دخلت في اطار تنظيمي ، ويضيف موضحا :

( ٢٥ ) الأمل ص ١٢٢

( ٢٦ ) MALRAUX - Esquiss pour une psychologie du cinema, Paris Gallimard

1946, pas de pagination

« نحن نمثل الشعب ، أجل ، ولكن الثورة ، لا ، بالرغم من أننا لا نتحدث الا عن هذا . اننى اسمى ثورة نتيجة تمرد تقوده كوادى ( سياسية . فنية . وكل ما تريد ) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكوادى التى حطمتها » .

باختصار ، يختم « جرسيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصاعدا ، لا يوجد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب ولا توجد حرب من غير فن أو تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان » MAGNIN قائلا بأن « القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب يشكل جانبا ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بأن « دفعة الأخوة » لا شك من أعظم الأشياء المؤثرة فى العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر الا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الأخوة يريد كل شيء وفى الحال ، ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل تدريجيا وبصعوبة . والخطر المائل هو أن كل رجل يحمل فى قلبه رغبة أو باعنا على الأخوة ، الا أن هذا الشعور يمكن مع مضى الوقت ومع استمرار النضال أن يكون مصدر هزيمة لسبب بسيط هو أن شعور الأخوة ، كشعور فى حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان أن له مستقبلا . أن وظيفتنا المتواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنظيم هذا الشعور » (٢٨) .

#### الاخلاق والسياسة – المثقفون والفعل

« اذا هاجم الثورة « مثقف » ثورى ، فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقياتها » . ( الامل ص ٣٣٤ )

على شعور الأخوة اذا أن يتحول « والا قضى عليه بالفناء » ، أى عليه أن يتجسد فى قوانين التنظيم الثورى . وبما أن الثورة فعل ، « فالفعل لا يمكن تصويره الا فى اطار الفعل (٢٩) » . وهكذا فى اللحظة التى يقرر فيها الأبطال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون مهم الوحيد هو قيادة النضال بأكثر الوسائل فعالية . وبما أنه « لا توجد خمسون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « أن تكون منتصرا » (٣٠) ، فإن الأبطال عليهم أن يختاروا حتما اما التضحية بالفعالية فى سبيل المثل الأعلى واما بالمثل الأعلى فى سبيل الفعالية .

وفى بعض الاحوال ، يكون ، الاختيار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمثقفين لانهم رجال يحسون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقيقة المجردة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط فى الثورة لانها – فى نظرهم – لا تعنى بالقيم « الأساسية » للانسان .

( ٢٧ ) الامل ص ١٠٤/٠

( ٢٨ ) الامل ص ١٠٧/٠

( ٢٩ ) الامل ص ١٨٧/٠

( ٣٠ ) الامل ص ٢٣٩/٠

( ٣١ ) الامل ص ٢٢٥/٠

يعبر « ألفيار » ALVEAR العجوز ، في المشهد الوحيد الذي كرس له ، على موقف المثقف ، اذ حينما يحاول « سكالي » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم ألفيار » JAMES ALVEAR أن ينقذه من مدريد ، يرفض العجوز مغارقة كتبه فلقد عاش حياته كلها في الفن ومن أجل الفن ولا يقبل لاية قوة أن تنتزعه من عالمه هذا. وإذا حاول المغاربة أو فيما بعد الجمهوريون قتله ، فإنه لن يقاومهم « احتقارا » كما يؤكد ذلك لسكالي . ويقول لمنقذه أيضا : انهم سيجدوننى مثل الآن في مكتبتى ، و « هل من الصعب حقا ، يا سيد سكالي ، أن ننتظر الموت ( الذى قد لا يأتى ) ونحن نشرب في هدوء ونقرأ أشعارا بديعة » ، ثم يتناول ديوانا لكيفيدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خالية التعقل ، هذه الخشية التى تتولد من تفاهات الحياة ، والتى تغديها الروح بتقواها » (٣٢)

ان « ألفيار » غريب عن الثورة بالقدر الذى يعتبرها تقوم هى أيضا على التعصب أو على عقائد لا تقبل الجدل ، فهو يقول لسكالي : ما فائدة عبودية اقتصادية أقل اذا اضطرت الانسان لتحقيقها « الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ » (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل العجوز كما لو أنها خلقت لتزعج أو هام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، تلعب نفس الدور الذى كان يلعبه قديما العالم الآخر أو الحياة الأبدية .

« ان بداخل الانسان أملا فظيحا وعميقا ، أمل الذى أدين ظلما ، أو الذى لم يلق الا غباء وجحودا وجبنا فى هذه الحياة ... انه يود أن يعيد الكرة مرة أخرى ... » (٣٤)

غير أن المناضلين سوف يلحظون أن عاجلا أو آجلا أن أى حل جماعى لا يعفى الانسان من المجهود الخلقى ، فمن الضرورى ، كما يقول « ألفيار » أن تكون علاقات الرجال علاقات « انسانية » والا تكون محكومة بالموقف السياسى وأن يكون الفرد « مسئولا أمام نفسه » (٣٥) ، وليس أمام قضية مهما كانت سامية . ان « ألفيار » يضع قبل الأحزاب والتقنيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوما والذى يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الأمل الوحيد الذى تعقده أسبانيا الجديدة على نضالكم ، انت وجيم وكثيرين آخرين هو أن يبقى ما حاولنا أن نعلمه للناس طوال سنين عديدة ..

— ماذا تعنى ؟ سأل سكالي .

فالتفت العجوز « ألفيار » وقال بلهجة الحسرة :

( ٣٢ ) الأمل ص ٢٧٦/٠

( ٣٣ ) الأمل ص ٢٧٧/٠

( ٣٤ ) الأمل ص ٢٧٨/٠

( ٣٥ ) الأمل ص ٢٧٨/٠

— قيمة الانسان .. » (٣٦)

الا انه اذا كان « الفيار » يريد الدفاع عن القيم « الاساسية » ضد متطلبات الفعل الثورى واذا كان لا يثق فى الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى اسباب ايدولوجية ، ان موقفه يتضح لنا فى آخر حديثه حينما يقطع « سكالى » كلام الأستاذ المسن ويسأله : « هل تعتقد ان «جيم» قد اخطأ فى اختيار النضال ؟ »

فيرد « الفيار » : « ايه ا فلتكن الأرض فاشية ولا يفقد ابنى نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا أن موقف « الفيار » تجاه الثورة انما يرجع الى أن واقع الفعل الثورى قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما أتت رصاصة على نظر ابنه فى إحدى المعارك . انه يشبه شخصية « جيزور » Gisors فى « القدرالانسانى » La Condition Humaine أى انه يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى اساءة الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما أفهمنا أن « الفيار » لم يعد يثق فى شيء أو فى أحد بعد ان فقد الامل اذحينما يخبره « سكالى » بأن الأطباء يؤكدون امكانية شفاء ابنه — وجيم سوف يشفى فعلا — يصبح :

« انهم يكذبون على اى ضابط فى هذه الآونة ! »

مخافة أن يقال عنهم انهم فاشست لوقالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! » (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « الفيار » على بال « سكالى » طويلا ، اذ أن الجانب الشمولى للفعل . الذى بدأت تؤكد تجربته الشخصية ، بدا له كما لو انه يحقق تنبؤات الرجل المعجوز ، ولقد أوضح عن خواطره أمام « جرسيا » الذى قال له :

« لا أعرف أى كاتب قال : انا مسكون بالبحث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ اربعة شهور مسكونون جميعا بالبحث ، اى سكالى ، جميعا ، على طول الطريق الذى يقود من الأخلاق الى السياسة . اذ أن بين كل رجل يفعل وبين ظروف فعله صراعا دمويا ... وهناك حروب عادلة — مثل حربنا فى هذه الآونة — ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعدالة ولكن لا يوجد تنظيم عادل » . (٣٩)

وبعد أن فكر « جرسيا » فى حالة « أونامونو UNAMUNO الذى يرفض التطوع ويتدرع أمام الفريقين بالالزام الخلقى ، يقول : « اذا جاءنى مثقف ، اى رجل وظيفته التفكير ،

( ٣٦ ) الامل ص ٢٨٠/٠

( ٣٧ ) الامل ص ٢٧٩/٠

( ٣٨ ) الامل ص ٢٨٠/٠

( ٣٩ ) الامل ص ٢٣٩/٠

ليقول لى مثل « ميجل » : « انا اترككم لانكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا اخلاقيا ،  
يا صديقى العزيز ! » (٤٠)

« معارضة » أونامونو « اذا معارضة خلقية » (٤١) . ومثله يوضح طبيعة الصراع  
الذى يوجد بين المثل الأعلى الثورى وبين الوسائل المستخدمة لتحقيقه : وهى وسائل تستبعد  
تلقائيا المثقف من نطاق الفعل ، لان المثقف بطبيعته ضد الثنائية :

« كل وسائل الفعل ثنائية لان كل فعل ثنائى الطبيعة . وكل ثورى ثنائى وكذلك كل  
سياسى . » (٤٢)

وبعبارة اخرى ، ولكي نلخص وجهة نظر « جرسيا » نقول :

ان « اللااخلاقية » بالنسبة لرجل ملتزم هى قبوله الظلم باسم العدالة ، او تخليه عن  
العدالة مخافة قليل من الظلم او لون آخر من الظلم ، وعلى الثورى الحق ان يخضع لمنطق  
الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذه الأحداث تتعارض مرحليا مع مطامحه العقائدية .

• • •

### الكيثونة والفعل ،

« اذا اردنا ان تكون الثورة اسلوبا للحياة من اجل ذاتها فانها تصبح حتما طريقة للموت » .  
( الأمل ص ١٧٦ )

ما فائدة الثورة ان « حينما لا تصلح من حال الناس ؟ » يتساءل بقلق القائد الكاثوليكي  
« هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كل اسباني يتهيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرض  
فكرة « خلاصه » وخلص أمثاله للضياع ، ولذلك فان ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات  
قدرة الثورة على حل المشاكل الفردية للمحاربين. اذ انه اكتشف ان الثورة « تجهل آلاف التعهدات  
التي أخذها على عاتقها » وانه ليس على الرجال ان ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر  
جرسيا GARCIA من جديد ، حينما يعترف له « هيرنانديز » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم  
الثورى وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقية والمسائل السياسية :

« هيرنانديز » . . فكر فيما يجب ان يكون بدلا من التفكير فيما يمكن ان نفعله حتى ولو  
كان ما فى مقدورنا ان نفعله ضئيلا . ان هذا الموضوع سم بلا دواء - كما يقول جويا - وهو  
موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكل انسان وموضوع لا أمل يرجى منه يا صديقى الطيب .

( ٤٠ ) الأمل ص ٢٢٨/٠

( ٤١ ) الأمل ص ٢٢٧/٠

( ٤٢ ) الأمل ص ٢٢٥/٠

اذ ان الكمال الخلقى ونباله النفس مسائل فردية لا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الافكرة التضحية بداذك » . (٤٣)

الا ان « هيرنانديز » لن يقبل قط من ، جانبه ، أن يفرق بين ما يجب أن « يكون » وبين ما يستطيع أن « يفعل » . ولذلك حينما يحاصر الجمهوريون منطقة « الكزار » ويطلب منه قائد فاشى توصيل بعض الخطابات الى زوجة « موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرنانديز » هذه المهمة عن طيب خاطر ، الأمر الذى يحير زملاءه .

غير أنه يشرح لهم أنه يفعل ذلك عن كرم انساني لأن زوجة « موسكاردو » مريضة .

وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يغمره الأسى حينما يرى الجنود يهربون أمام هجوم القوات المغربية ، أنه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته كقائد وسوف يحمى مؤخرته بواسطة مدفع رشاش :

« بدأت مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بغير انتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام . اما « هيرنانديز » فما عاد يفكر فى شيء ، لقد أخذ يشد مدفعه على كتفه وكان فى تمام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرنانديز » بفضل حركته الفعالة أن ينسى مؤقتاً مأساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤثر ، وفى السجن لا تساء معاملته لأنه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذى يزيد من امتعاضه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب - مثل زميل له - حينما يقاد الى منصة الإعدام ، أنه « متعب لا يرى للحياة طعماً .. أيجرى من جديد ... ومرة أخرى ... » . (٤٥) ان الموت فقط يمكنه أن يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الأرض بشهوة ويقول : أيتها الأرض الميتة ! لا يوجد مللٌ وسأم الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل - بأسلوبه الخاص - « طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التى وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق الملكى » فى لحظة مغادرته للصين : الثورة ستتم أو لن تتم ولكنه لن يكون أحد روادها . الا أنه مع ذلك ، فى لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو أنه يصوب رأى هذا الأخير : هل كان « كرماً » حمله لخطابات العدو ؟ :

( ٤٣ ) الامل ص ١٨٧/٠

( ٤٤ ) الامل ص ٢١٥/٠

( ٤٥ ) الامل ص ٢٢١/٠

( ٤٦ ) الامل ص ٢٢٤/٠

« ما معنى هذا ، ما معنى نبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ ... ان الشهامة هي ان تنتصر » (٤٧)

ان اعدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكاتب الجزء الأول من روايته لبالح التعبير لانه يجسد نهاية « الوهم الشعري ». فهذا الصراع بين الاخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لذاتهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى اسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « الكينونة والفعل » عنوان يذكرنا بصيغة « جرسيا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء ما ، اما انتم المثاليون والفوضويون ، تريدون لاسباب مختلفة ، ان تكونوا شيئاً ما ... » (٤٩)

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضويين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضويين يريدون الفكك من التزامات العمل المنظم الذي لا يأتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . فبالنسبة لهم ليست الثورة الا نضالا يسمح لهم بأن يحققوا « كينونتهم » وبأن يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالهم هو التحمس ، هو هذه النشوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS أن يفسر الامور الصحفية الامريكي « شاد » SHADE بان هدفه « طليطة » :

« اذا كنا قد سحقتنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، اتفهم ذلك ) ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . اننى لا اتحدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمنى ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعى لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة أو كنيسة أو جيشا . اننا نريد ان نصنع رجالا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » ... افكار يعبر عنها أيضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

(٤٧) الامل ص ٢٢٤/٠

(٤٨) نلاحظ ان هذا الصراع كان موجودا في رواية « الغزاة » اذ كان « جارين » يلوم « بورودين » على معاملته للرجال كأنهم « الات » وعلى رغبته في « صنع لوار كما يصنع فورد السيارات » !

(٤٩) الامل ص ١٨٦/٠ - نلاحظ ايضا انه ، منذ رواية « الغزاة » كان مالرو يقارب بين المثاليين ( تشينج - داي ) وبين الفوضويين ( هونج ) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما مقبلة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الامل ص ١٧٥/٠ ، ١٧٦

(٥١) الامل ص ١٧٨/٠



منطقة «كاتالونيا» . لقد قام «بويج» أثناء تمرد «برشوته» بدفع سيارة ضد مدافع العدو وامتناع ان ينجو من هذه العملية الجريئة ، وفي هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه عن باكونين ، كانت الثورة في نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا أمل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثورات مثالية ، لذلك كانت كل مسألة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة وثبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففي محاولة اخرى مثل الاولى ضد الحواجز الفاشية لقي «بويج» مصرعه ... وبذلك حقق ما يصبوا اليه : ان يموت « باسم طريقة ممكنة » بعد ان يعيش يوما « بكل احساسه » ولا شك ان هذا المطمح العظيم بالنسبة للفوضوي نوعا من « اللاقدر » ويقول « لونيغوس » وهو يفكر في «بويج» على الأرجح : « ان الرجال المصممين على الموت ، ينتهي بنا الامر بان نشعر بمرورهم » (٥٣)

ان ما يعتبه « لونيغوس » - المتكلم باسم الفوضويين في الرواية - بالاختص على الشيوعيين هو بالضبط « خط » العمل الذي يحدده الحزب ، والذي يمنعهم حينما تمنح الفرصة من انجاز اعمال بطولية مثل عمل «بويج» . وفي هذا يقول حكمة : « ان الذي يخشى الموت ليس ضميره مطمئنا » (٥٤) .

انه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين للقيم التي يدافع عنها الجمهوريون ، بينما هم ، الفوضويون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيم منذ ثورة «الاستوري» - Les Asturias :

« ان يكون الانسان ثوريا ، بالنسبة لكم ، هو ان يكون خبيثا . ولكن بالنسبة لباكونين وكرويتوكين لم يكن الامر كذلك بالمرة . انتم اكلكم الحزب . اكلكم النظام : وبالنسبة للشخص الذي لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة او واجب . انتم لم تعودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبعة اضرابات للتضامن فقط مع الآخرين وبدون اي هدف مادي » (٥٥) .

ويرد « براداس » PRADAS الشيوعي عندئذ على « النيجوس » LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الافضل ان تكون غير مخلصين على ان تكون عاجزين » فالفوضويون ، في رايه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم ان ينجحوا الثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم ، اما الشيوعيون فاقدر اثبتوا ، حسب قوله ، انهم الوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف في « بناء » الثورة ، ويقول . مستندا الى حجج « جرسيا » GARCIA التي نعرفها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا تكون الجيش عمليا بصفاتنا الحميدة وبعيوننا والجيش هو الذي سينقل الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)



( ٥٢ ) الامل ص ٢١/٠

( ٥٣ ) الامل ص ١٧٦/٠

( ٥٤ ) الامل ص ١٧٦/٠

( ٥٥ ) الامل ص ١٧٧/٠

( ٥٦ ) الامل ص ١٧٧/٠

يتضح من هذا ان الحزب الشيوعي هو احدى الوسائل التي يجدر استخدامها في الدفاع عن : قضية الجمهورية ، انه احدى الحقائق الواقعية التي تتبلور حولها الثنائية بين « الكيئونة » و « الفعل » . الا انه يتبقى مع ذلك ان الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشبه كثيرا ما قامت ضده الثورة ، ومن ثم سوف يتجاوز الصراع حول مفهوم العمل الثوري الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هذا فالثورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل ان كرامة هؤلاء تظل معلقة حتى تتحقق الاهداف .

وهكذا نرى « مانيان » MAGNIN الواعى بدوره الرئاسى مضطرا الى اطاعة اوامر المنظمة وطرد « شراينر » SCHREINER الذى يشك في كونه مرشدا فاشيا . الا انه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية يعتب بمراة على « اينريك » ENRIQUE احد زعماء الحزب ، لا انسانية او امره ، ويعتقد - كما يعتقد « النجوس » - بان الرجال لهم الاسبقية على الحزب (٥٧) .

غير انه في آخر الرواية سوف يحير جوابا امام « جرسيا » GARCIA حينما يذكر هذا الاخير ، اثناء تقريره لنتائج الاحداث ، جملة « لجيرنيكو » GUERNICO : « الشيوعيون لهم كل فضائل الفعل - وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونحن في هذه اللحظة نحتاج الى الفعل » (٥٨) . ان « مانيان » لا يستطيع ان ينكر هذه البيئة : « الفعل لا يمكن تصوره الا في اطار الفعل ... » . « فالفعل هو الفعل وليس العدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان » MAGNIN تجاه الثورة يذكركنا بموقف « روبرت جوردان » ROBERT JORDAN في رواية « همنجواي » : « لمن تدق أجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS فهو مثل هذا الاخير يترك فكره « معلقا » (٦٠) الى ان تنتهى الحرب ويمكن ان ننسب اليه ، ما يكتبه همنجواي عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات . وهنا في اسبانيا كان الشيوعيون يهيئون افضل نظام واعقله واسلمه لتابعة الحرب ولقد قبل قيادتهم لمدة العمليات لانهم ، في قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذى يمكن احترام « برنامجه ونظامه » (٦١)

ان المخرج الوحيد الذى يتبقى اذا امام المحاربين هو تطوع انفسهم لضرورات الفعل وقبول اوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكري ... حتى ولو كان ذلك أيضا يناقض المبادئ

( ٥٧ ) الاصل ص ١٣٨/٠

( ٥٨ ) الاصل ص ٢٧/٠

( ٥٩ ) الاصل ص ١٤٠/٠

( ٦٠ ) همنجواي ، في طبعة فرنسية :

E. Hemingway. Pour qui sonne le glas, ed. Heinmann 1968, p. 218

( ٦١ ) همنجواي ، الطبعة المذكورة ، ص ١٨٠/٠

التي دفعتهم الى التطوع . وكما سيكتب « مالرو » بعد ذلك فى « اللامذكرات » Les Antimemoires « انه منذ اللحظة التي يتبنى فيها المناضل قضية . فان هذا الاختيار يتضمن فى حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت المعركة مرتبطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انه قد لا يعرف ان المعركة تتضمن تنظيما خاصا للفعل على الذى اختار النضال ان يقبله فى نفس الوقت » . (٦٢)

المروء اذا من حالة الحماس الى النظام ، ومن العفوية الشعبية الى التنظيم التلقئ يفرض نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الآن فى ان يكون الرجال شيئا ما ولكن ان يفعلوا شيئا ما ، حتى ولو كانت الماساة التي يشترك فيها المحاربون تتصل بماساة اخرى روحية . وهكذا يتكون الجيش الجمهورى ، جيش الشعب الذى لم يكن موجودا فى البداية ، من خلال الالام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتبع للجمهورية الانتصار فى موقعة « جوادلخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جل يصوب راي الدين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام .

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية فى داخل الاطار التنظيمى للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختيار الرجال ؟ علينا فى هذا الصدد ان نتبع « مانويل » فى طريقه الثورى حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواعى بالفعل مع السعى الميتافيزيقى او الروحى للمناضل .



#### ثورية « مانويل » وإثثار الفعالية .

« ان الشجاعة امر ينظم ، يحيا ويموت ، وعلينا ان نعى بها كما نعى بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة لشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL كشاب بوهيمى عين فى وظيفة مساعد « راموس RAMOS » سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، فى المقر المركزى للهاتف بالمحطة الشمالية فى مدريد . وكان « مانويل » قبل ان ينخرط فى جماعة الجمهوريين مهندس صوت فى استوديو سينمائي اسباني ، موسيقيا هائما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه فى بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضحة بجانب « راموس » و « باركا BARCA » ، ومثل جميع المحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشاعرية التي تتفتق بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همه وفكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشاعره الجياشة بالاخلاص هو تخليه للحرب عن « سيارته الصغيرة العزيرة » التي اشتراها ليذهب بها الى جبال السيرا حيث يمارس هواية التزلج على الجليد ، وبفقدانه هذه السيارة التي

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاة نحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هذا الليل الذى يجد به كل انسان ما يشغله على وجه هذه الارض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجه فى السلك العسكرى ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شعور الاخوة » وان ينظمه ...

وهناك حادث فى اول الرواية يوعز الينا بهذا التحول فى شخصيته : اذ بينما كان يشاهد منظر فلاح شاب وهو يخضب اصبعه بدم جندي مقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للفاشيين » تأثر جدا واعتبر هذا المشهد نقطة تحول فى التزامه الثورى : « شيء ما تغير فى داخلى ، ولبقيّة حياتى ، قال لراموس ، شعرت ، أمام الشخص الذى يكتب على الجدار ، باننا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم ان بناء اسبانيا الجديدة لن يتم الا بتضحيات جسام من هذا العسكر وذاك .

وكان ترقية العسكرى سريعا ، اذ فى خلال شهرين من بداية الحرب ، يضعه حربه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكي « يمينز XIMENES » ليتعلم فن القيادة : وبدأ « مانويل » الذى لم يكن منظما من حب فى الطاعة أو رغبة فى القيادة ولكن بالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفضل « النظام الفكرى » الذى يتميز به . ان « يمينز » وكان متشددا حتى فيما يتصل بمسؤولياته الخاصة ، قد بدا بتلقينه خط السير الضرورى للزعيم الثورى وطبيعة العلاقات التى يجب ان تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكوين ضباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا امر طبيعى بالنسبة للانسان ، ولا أفضل منه ولكن بشرط ان تفهمهم هذا : ان الضابط يجب ان يحب لطبيعة قيادته - حينما يكون دقيقا ، فعلا وممتازا - لا بسبب خصائص او مميزات شخصية . اتفهمنى ، يا ولدى ، حينما اقول لك ان الضابط لا يجدر به قط أن يلجأ الى الجاذبية ا »

وفهم « مانويل » ، الذى كان يصفى باحترام ، ان « اعظم اقدار الانسان هو ان يحب من غير ان يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعان ما تبين له ان هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طفت عليه مشاغل القيادة الى ان صار « كولونيل » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس ، ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو امر باعدام جنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وان كانت خيانتهم لم تثبت بشكل قاطع ، الا انه لم يعد يستطيع ان يفكر بطريقة اخرى .

(٦٤) الامل ص ١٩/٠

(٦٥) الامل ص ٨٢/٠

(٦٦) الامل ص ١٥٢/٠

(٦٧) الامل ص ١٤٧/٠

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكرى وقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخطيا بين شعورى النفاق والاستنكار وغير قادر على القول او الفعل : فهو لم يكن يقدر ان الحكم بالاعدام يقود الناس الى الترجى والى الضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترجى ، وحينما يكشف له الضوء برهة عن وجه مجهول الى هذه اللحظة ، يبدأ يلمس فيه « الوجه الابدى لمن يدفع دائما . . . » - « اذن ، لم تعد تنطق حرفا من اجلنا » صاح الجندى (٦٨) . وتبين « مانويل » فجاءه انه طوال المشهد لم ينيس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار الى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد اعدم الرجلان و « مانويل » واثق من انه ادى واجبه ، الا ان ذكرهما وهما ملتفتين حول ساقيه ما زالت تعاوده . انه لا يستطيع الرضوخ الى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويعترف « ليمينز » بقلقه :

« اننى اتحمل مسئولية هذا الاعدام ، فلقد تم لانقاذ الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعنى : لم يكن هناك حد تجاوزته من اجل فعالية اكبر وقيادة افضل الا وابعدنى اكثر عن الرجال . اننى اشعر بان كل يوم اقل انسانية » (٧٠) .

ويحاول « ليمينز » ان يواسيه وان يجد له مبررات : « الانسان صغير جدا » لكى « يفعل ولا يفقد شيئا من الاخوة » ، ولكن هناك - لاشك - تعويض : « فان ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب . . » وكان « مانويل » يفتقد هذا الاعتقاد ، ولكن بتوجس احيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقربنا من الحزب لا يفيد شيئا اذا بعدنا عن الذين يعمل الحزب من اجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « ليمينز » : ايه ! ماذا تريد يا بنى ؟ ان تحكم بالاعدام وتبقى هادئا . . ؟ انك تتعود حتى على هذا . . . » (٧٢)

ويتدخل الجنرال الروسى « هيريج » HEINRICH لغض هذه المناقشات قائلا « لمانويل » :

« نحن نعمل على تغيير مصير الحرب . هل تعتقد انه يمكن تغيير الاشياء من غير ان تتغير انفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة فى جيش البروليتاريا . ليس لك حق على نفسك . . . احساسك يمكنك ان تحتفظ به ، هذا امر آخر . ولكن لا بد ان تفقد نفسك مثل ما فقدت شعرك الطويل ونفمة صوتك » . (٧٣)

٦٨ ( الامل ص ٢٢٢/٠ )

٦٩ ( الامل ص ٢٢٢/٠ )

٧٠ ( الامل ص ٢٤٧/٠ )

٧١ ( الامل ص ٢٤٧/٠ )

٧٢ ( الامل ص ٢٤٨/٠ )

٧٣ ( الامل ص ٢٥٠/٠ )

وحيثما يسأله « مانويل » عما يعنيه ، وهو الماركسي عن « فقدان النفس » ، يوضح له « هينريخ » : « في كل حرب توجد خسائر . وليس فقط في ساحة القتال . . . والآن لا يجدر بك أن تشعر ابدا بالرحمة على رجل فقد » . (٧٤)

هذا التباعد التدريجي وهذه العزلة المتصاعدة عن الرجال يعبران أيضا عن طبيعة العلاقات التي كانت تميز حياة « مانويل » الخاصة ، فنحن نراه في بداية الرواية يعترف « ليميني » بحبه العظيم (٧٥) لامرأة تفصلها عنه تربيتها الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الأمر الذي يؤثر عليه تأثيرا شديدا . . . وبعد بضعة أشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الفارين من « طليطلة » أتى الى الضابط المعجوز وقال له :

« لقد ضاقت في الأسبوع الماضي امرأة كنت قد أحببتها سدى خلال سنوات عديدة : وكنت أشعر برغبة في الذهاب . . . واني لأسف على ذلك ، ولكنى اذا كنت أهجرها فلسبب : فنحن لا نستطيع ان نمارس القيادة الا لاداء خدمة والا . . . » . (٧٦)

وهكذا يتخطى « مانويل » عن حبيبته لانه قد تشكل عقبة امام حرية فعله ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فعاليتهم في جانب معين من الحرب ، قد يؤثرون على عزيمة الرجال . (٧٧) « ان الحرب تولد العفة » ، كما يقول . (٧٨) وهذا يدفعنا الى مسألة هامشية ولكنها هامة : فلقد اتهم « مالرو » بعداوتهم للمرأة ، فالمرأة بالنسبة له وخاصة في أوائل رواياته مثل « الغزاة » Les Cunqueants و « الطريق الملكى » La Voie Royale لا تمثل الا « القطب الآخر » في لذة الرجل . الا ان الكاتب يفسر هذا الموقف بأنه يتحدث عن المرأة « المحطية » وان ذلك تفرضه طبيعة البيئة التي تدور فيها الاحداث ، اما بالنسبة لعدم اهمية المكانة التي تحتلها النساء في مؤلفاته فان مالرو قد شرح ذلك « لبير جالانت » ورد هذه الظاهرة الى نوع رواياته الذي يتطلب هذا اللون من البناء :

« في اللحظة التي تولج فيها - مثل همنجواي - قصة حبيبى نضال ثورى فاننا نهزأ بالناس ، لأمك اذا كنت في قصة حب لن تكون في نضال ثورى . واذكر » انه حينما قابل دانتون روبسبير في ردهات مجلس الثورة وقال له : « انت تخوننايا روبسبير » ! افحمه هذا بقوله : « يا احمق ليس في مقدورنا ان نخون وننحن نمارس الحب . . . » . (٧٩)

وحيثما نعاود قراءة بعض فقرات رواية « لمن تعلى اجراس الموت » تتضح ملاحظة « مالرو » أكثر . اذ أن « روبرت جوردان » الذى يفرم « بماريا » يعطينا احيانا الاحساس بان اوليس

(٧٤) الاصل ص ٣٥٠/.

(٧٥) الاصل ص ١٥٥/.

(٧٦) الاصل ص ٢٤٧/.

(٧٧) الاصل ص ٨٢/.

(٧٨) الاصل ص ٢٢٢/.

(٧٩) GALANTE, Pierre, op, cit., p.83,

يهمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا النحو يبدو لنا ، في فصل الرواية المسمى «بالحب الارضى» وكأنما الزمان معلق بالنسبة للحبيبين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد الا اللون الاحمر او البرتقالى . او ذهب الشمس المشوب بحمرة على عينيه المغمضتين ، وكان كل شيء بهذا اللون ، نعم كل شيء : الشمول ، التملك ، الرضا ، كانوا بهذا اللون وكان كل شيء يشع بهذا اللون . اما بالنسبة له ، فكان معبرا مظلما لا يؤدي الى مكان او الى شيء ، لا يؤدي الى شيء ، ومرة اخرى لا يؤدي الى شيء وهكذا بلا نهاية لا يؤدي ابدا الى شيء . متكئا بمرفقية على الارض بلا هدف كان يطالع هذا المعبر المظلم اللانهائى وهو معلق طوال الوقت بعدم مخرج منه ، هذه المرة ومرة اخرى الى الابد من اجل لاشيء ، الآن ، آه ! لو لم نولد مرة اخرى من اجل لاشيء ، والان عبر كل ما نستطيع تحمله الى اعلى ثم الى اعلى ثم الى اعلى فالى لاشيء . فجأة « انبهار » ثم سعادة « علوية فاخترنا لكل ما كان مظلما وعدما ، اما الوقت فصار سكونا ابديا وكانا هما الاثنان هاهنا والزمان معلق يشعران بالارض تتحرك ثم تفوص تحتها » . (٨٠)



واضح اذا ان هذه القطعة بمفردها تلبس ملاحظة الكاتب التى اشترنا اليها ، « فمارو » على العكس من « همنجواى » ، ولكى يبرز الجوانب المأسوية للفعل يركز اهتمامه على العناصر الاساسية التى تكون عالم الحرب وهذا يتناسب تماما في رواية «الامل» مع شخصية ( مانويل ) فمن الطبيعى اذا ان البطل الذى ضحى بالقيم المباشرة في سبيل القضية الثورية يبتعد عن المرأة الحبيبة حتى لا تشغل باله عن عمله القيادى .

ونلاحظ في هذا الصدد حادثا آخر في الرواية يدل على ان وجود المرأة مضر ، بل وقاتل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جيرنيكو » و « جرسيا » حوارا بين زوجة مناضل وزوجها تتردد فيه الزوجة عن مغادرة مدريد كما يطالب منها زوجها : « يقول انه علي ان اغادر ، اخذت تندب حالها . يقول انه لا يستطيع ان يحارب اذا كنت هنا . . ولكنى لا استطيع العيش اذا علمت انه يحارب هنا . . حتى ولو لم اعرف ماذا يدور . . » ويعلق « جرسيا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلهن سواء . اذا رحلت فسوف تتحمله في كثير من الالم ولكنها ستتحمله ، واذا بقيت فسوف يقتل (٨١) »

على النقيض مما يدور في روايات « الطريق الملكى » و « القدر الانسانى » أو « زمن الاحتقار » ، يكاد يكون شعور الحب غير موجود في رواية «الامل» او يمثل كعقبة في طريق المجهود الثورى . . الامر الذى يقودنا الى ملاحظة التوازى الذى يوجد في روايات « مارو » بين الحياة الخاصة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، ففى هذا الكتاب الذى يمجّد التنظيم العسكرى نرى البطل الذى كرس نفسه للنضال المنظم لا يجد فرصة للتفكير في علاقات عاطفية من اى نوع كانت .

( ٨٠ ) راجع همنجواى ( الكتاب المذكور - ص ١٧٦ )

( ٨١ ) الامل ص ٢٦٥

وإذا رجعنا الى « مانويل » وجدنا ان تحوله كان شاملا . وليس الامر فقط مجرد ميلاد زعيم ، او نجاح خارق استثنائي ، انما بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهرى بين البطل فى روايات مالرو الكرسة للثورة الصينية وبين البطل الشيوعى فى رواية « الامل » الكرسة للحرب الاسبانية . فبنما « جارين » GARINE فى « الفزاة » و « كيو » KYO فى « القدر الانسانى (٨٢) » يعرضان الى النهاية الصراع يشور فى دخيلتهما ، ينتهى « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان » مانويل « شيوعيا ، فانه لم يكن يتساءل عن سلامة اسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد ان تنتهى فى نظره ، اما بتغيير افعاله ( وهذا التغيير لم يكن واردا ) ، واما برفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات فى الرواية توحى اليها بالرغم - او فلنقل - بفضل حزمة فى القيادة بان « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه فى السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى ، بعد حكمه بالاعدام على جنديين هاربين ، فى عيون رجاله الذين يستعرضهم الامودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهى تخترق نظره فى كل التقاء ، تتسم بالغموض او اللامبالاة : كانت اخوية باسى ، مليئة بهذا الظلام (٨٤) .

بل واكثر من الاخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقى بتلك النظرات ، الواحدة تلو الاخرى ، وهى تعقد معها تحالفا بالدم (٨٥) » .

بعد انتصار الجمهوريين فى « جواد لخر » يحس « مانويل » الذى قطع - اثناء المعركة - كل صلة بينه وبين المتعة الشخصية والذى اعلن « لجارتنر GARTNER انه لا يقدر الموسيقى ، بان اهم ما يحتاج اليه فى هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى . . . فبسماعه سيمفونية لبيتهوفن كان يكتسب اليقين - حتى ولو شك أحيانا - بأنه يحمل فى طيات نفسه كل الامكانيات الانسانية سليمة وكاملة :

امكانيات الفن والرقه والحب ، ولا شك ان السلام سيبعثها يوما ما فالمنتقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تزخر حوله بالتنبؤات ، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الدانية التى لا يهزها « المدفع » ، بعض الاقدار العمياء . كان الكلب - اللئب ينصت ممددا كما تصوره

(٨٢) فى رواية « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris : كان البطل « كاسنر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا انسانى » . الا ان المسألة الخلقية - السياسية لم تكن مطروحة فى هذه الرواية .

(٨٣) الامل ص ٣٤٨/٠

(٨٤) الامل ص ٣٤٦/٠

(٨٥) الامل ص ٣٤٦/٠



بعض النقوش البارزة . في يوم ما سيأتي السلام وسيصبح « مانويل » انسانا جديدا ، مجهولا من ذاته كما كان يجهل مناضل اليوم الشخص الذي اشترى السيارة للتزلج على الجليد في جبال السيرا .

ولا شك كان الامر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرقات او العازفين بعناد أغنيات الحنين الحريئة والذين حاربوا تحت اغطية الرأس المدببة ( . . . ) ان الحرب لا تكتشف الا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف أكثر من مرة .

كانت هذه النغمات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضي تحدثه كما لو تحدثت اليه هذه المدينة ذات الماضي العريق . . . وهذه السماء وهذه الحقول الابدية ، ولاول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا اهم من دم الرجال وأشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الامكانية اللا محدودة لقدرةهم — وكان يشعر في داخله بهذا الوجود متمزجا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الاسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه . ( ٨٦ )



### ثالثا : الأمل الثوري :

« في عالم بلا أمل يصعب التنفس » ، ( الأمل / ص ١٩٩ )

هذا السطر الذي نستشهد به يختتم الرواية ، الامر الذي يقودنا الى رؤية للوجود ، كلها سلام وأمل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك في أن هذا الكتاب نشر في فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب ، وخاصة وأنه يشير من بين الاحداث الاخيرة الى انتصارهم في « جواد لخرأ » GUADALAJARA الا انه يبدو لنا معبرا ان « مالرو » احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية للشوار . فمن الناحية « الفنية » يمكن ان نذهب لمذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN في تعقبيه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالاحداث اللاحقة على الرواية الى ضرورة داخلية في بناء القصة : اذ ان رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية في سبيل النظام بكل القيم من أجل الفعالية ومن ثم فان هذه التضحية ستبطل هزلية وغير مبررة اذا ادت الى الهزيمة بدلا من النصر » ( ٨٧ )

( ٨٦ ) الأمل ص ٤٢٢/٠

( ٨٧ ) لوسيان جولدمان ، من أجل سوسيولوجيا الرواية ، ص ٢٣٦

GOLDMANN, L. - Pour une sociologie du roman, p. 236

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بفشل سياسى وكذلك « كيو » KYO

البطل الثورى الاصيل يموت فى نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات عديدة فى الكتاب توحى بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا أو عذبوا أو قتلوا » ... وبالامل فى حياة افضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الامل » بهذا المنظور الميتافيزيقي لايقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الاحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » فى تغيير مضمونه .

( « ان القوة الكبرى للثورة هي الامل » ) يقول مناضلو ( ٨٨ ) الحرب الاسبانية ، وهذا الشعور ، فى الواقع ، هو الذى يلهم ثورتهم ويتيح لهم التغلب على مخاوفهم امام القدر ...

هذا الامل هو امل الفلاحين الذين عاشوا فى البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر فى ذلك « مانيان » وهو يحلق فوق قرى اسبانيا :

« كان يتذكر الاراضى البور ، التى لم يكن من حق الفلاحين المرضى من البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين النافرين كانوا يحاربون تحت امرته ليرفعوا هذه الجدران الصغيرة ، وهى الخطوة الاولى فى سبيل كرامتهم » . ( ٨٩ )

كان الجميع يحارب فى سبيل تصور معين للانسان واذا كان المثل الاعلى الثورى هو الذى يوجب حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « املا غامضا وبلا حدود » ( ٩٠ ) ويرضى الرغبات والمطامح العميقة الكامنة فى كل فرد .

الا ان الكاتب ، فى الوقت الذى كان يصف فيه قمة الالتزام الثورى ، كان يدين الثنائية الناتجة عن الفعل : فالثورة ، كما راينا ، كانت تصطدم بالحماس الذى دفع بالابطال الى اللحاق بها ، هذا الحماس الذى كان يجب الحد منه بجهد مضن فى سبيل النظام .

وهكذا فان افضل ما فى الانسان ، اى تلقائيته الثورية ، هو الذى كان يدخل فى صراع مع ضرورات النظام العسكرى والسياسى ... وبهذه الصورة يشك فى قدرة الثورة على حل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الامر الذى يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتميان الى نفس النسق كما يقول « باسكال » .

( ٨٨ ) الامل ، ص / ٤٤

( ٨٩ ) الامل ص / ١٩

( ٩٠ ) الامل ص / ١٩

ومن ثم عجز الثورة عن الارتفاع بمستوى الانسان من تلقاء ذاتها ... فلننصت الى « جرسيا » :

« اى دولة واى بناء اجتماعى لا يمكنه خلق نبالة الخلق او رفعة الروح ، ومعظم ما يمكن توقعه هو ظروف ملأمة . وهذا كثير ... » (٩١)

ويوضح « مالرو » فى خطابه عن « الميراث الثقافى » :

« ان الثورة لا تعطى للانسان الا امكانية كسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الامكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الانسان لا تعتمد بلا شك الا على جهده الخاص . . . ولكن الرجل الملتزم يجد فى الفعل ظروفا ملأمة لتجاوز وضعه ببذل افضل ما فى طاقته ، وهنا يكمن الامل الثورى ، فالبطل يلقى فى صراعه من اجل الكرامة والحرية . محنا وتجارب تناقض القيم التي يناضل من اجلها ولكن امله فى المستقبل الذى يعده يكفى لايجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذى يحلم به .

اذ انه حين ينخرط كلية فى فعل له معنى وهدف ، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تغير جذريا ، ومن ثم تصبح الثورة ايضا لا قدرا شخسيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » فى آخر الرواية حينما يقول :

« ان حياة اخرى بدأت بالنسبة له مع المعركة ... » (٩٣)

وانه لفى ضوء هذا المفهوم تكتسب الرواية وعنوانها معناه الكامل .

وانه لجدير بالذكر من جهة اخرى ان يكتب المؤلف ، بعد انتصار « جواد لخوا » بان الحرب قد بدأت (٩٤) ، مشيرا بذلك الى ان معارك اخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثورى قائما كما يجب ان يقوم . . فان هذا المجهود سوف يؤكد لرجال « الامكانية الا محسودة لقتلهم » .

• • •

( ٩١ ) الامل ص/٢٢٨

L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

( ٩٢ ) راجع :

( ٩٣ ) الامل ص ٤٢٢/٠

( ٩٤ ) الامل ص ٤٣٦/٠

**خاتمة :**

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرز فى كثير من صفحات رواية « **القدر الانسانى** » ويغلب على معظم رواية « **زمن الاحتقار** » يلقى على رواية « **الامل** » اقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقة هذا الشعور كواقع لا يجلب للانسان السلام التام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بلا تردد على القيم المختارة ليطرد هواجس القلق...

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسب الا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة عن النضال المشترك كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضرورات الفعل ذاته .

وليس هناك شك فى ان « **مالرو** » يؤكد على ضرورة التنظيم كعنصر اساسى لكل جيش ، غير ان روايته تمجد ايضا قبول النظام ، هذا النظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانية ، اذ ان الانسان الذى برهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه ، جدير من ثم بأن يرفض الخضوع للأقدار . ومثال « **مانويل** » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة ان « **يكشف سرا مقدسا وبسيطا** » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

★ ★ ★

عزّه محمد هيكّل

## اندریه مالرو قدر الانسان

### ثورة في الأدب

ينفصل القرن العشرون عن الأسلوب التقليدي للقصة المصطنعة تأليفاً ، والتي تتتابع فيها الأحداث على وجه متضيق ومنطقي ، بحيث أصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الأخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ؛ ويظهر من ثم خط جديد للرواية لا يقوم على الشمول الكامل ، وإنما يتركز على الغموض والإبهام . ويقول الناقد البيرس :

« ان رواية لفلوير أو لزولا كانت تحكى . ولكنك تعيش وتحيا قدر الانسان » (١)

وينشأ كان بلزاك وفلوير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخص روياتهم . . فقد كانوا يعرفون مسبقاً نهاياتها . أما في أعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

(١) R.âM. Albérès, *Histoire du roman moderne*. Editions Albin Michel, 1962. p. 130.  
André Gide, *Journal* 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنها شيئا أكثر مما يرى الأبطال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب في السرد أبدا لمجرد التوضيح والبيان .

وفي **قدر الإنسان** لا تبدو الشخص في وضوح ، وإنما تتشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بموضها ، تماما كما يحدث في الحياة بالنسبة للأشخاص الذين نلقاهم ولا يسعنا التعرف عليهم حقيقة . فالامر لا يتعلق بتقديم شخصيات للمس في النهاية صورة منطقية وواضحة لهم ، وإنما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعالم متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفي **قدر الإنسان** الذي اعتبر بالإجماع أشهر روايات مالرو ، وقد ظهرت في عام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جونغور ، يقوم الموضوع على تكاثف في الأحداث وتركيزها في وقت ضيق وقد اشار الى ذلك اندريه جيد في عبارة شهيرة :

« هذا الكتاب الذي اطلعت عليه خلال نشره مسلسلا في إحدى المجلات ، بدا لي شديد الكثافة ويوقف ثراؤه الاستمرار في تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء وفرة تعقيداته . وقد لاح لي بعد قراءته كاملا ، انه ظاهر الوضوح ومتسق في عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الدكاء ورغم ذلك - اعنى القول رغم الدكاء - فهو عميق التداخل في الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجزأة الى عدة مشاهد تتعاقب بلا اتصال او تفسير بحيث تفتقر الى اية رابطة واضحة في السرد بين مشهد وآخر ، فيما عدا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التي تعين القارئ على الفهم ، وتدل - بالعكس - على اهمال متعمد للربط بين الأحداث . ولو نقلنا هذه البيانات يمكن تلمس ما يبدو انه خطة الكتاب .

**الجزء الاول :** ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، في الواحدة صباحا ، في الرابعة صباحا ، في الرابعة والنصف صباحا .

**الجزء الثاني :** ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، الساعة الواحدة بعد الظهر الخ .

وبعد ذلك ونجاة في **الجزء الثالث** ، في ٢٩ مارس ، والجزاء الرابعة والخامسة والسادسة ، في ١١ ابريل . وينقلنا الجزء السابع الى باريس في يوليو وتقع الخاتمة في كويه .

وهكذا بدلا من الاستطراد التقليدي للسرد ، فان فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تغاير الشخص وفي مختلف الاماكن . ونمر بلاى تمهيد من حكاية الى أخرى . ويؤكد **النقاد** انه كان لأعمال مالرو سبق المبادرة في « خلق المفهوم الثوري للادب » ولم تعد الرواية للاستهلاك

( ٢ ) ظهر **قدر الإنسان** لأول مرة مسلسلا في مجلة لانوفيل ديفي فرانسيه في اوائل ١٩٣٣ ثم ظهرت الرواية في كتاب بعد ذلك مباشرة .

الدريه مالرو : « قدر الانسان »

الصرف وانما هي تحقق تعاوننا في الانتاج بين الكاتب والجمهور الذي يدمى للمساهمة بجهود  
بناءة لاقامة العمل الادبي . « (٣)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمرار في معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فن  
من الفنون فهما ضمنا لا تصريحيا . (٤)

وغالبا ما قورنت طريقة مالرو بمشهد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة  
من اللوحات ويوحى تتابعها وتباينها بالواقع والشراء .

ويرتدد الكاتب باستمرار بين مشاهد الافعال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفي  
والفلسفة . وينتقل الانسان فجأة من حالة الثورة الى حالة التمعن والتفكير . فبعد ان  
ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتساءل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانسان . كما ان  
الحوار بين كيو وماي الذي انصرف الى قيمة الحب قد انقطع بغتة بتدخل كلايك ومعه مستند  
لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يستلهم معنى  
الحياة والالتجاء الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا فجأة امام ثوار يهاجمون سفينة .



### التوازي بين الحياة والرواية

بينما نجد ان الطريق الملكي والفزاة يضعان على المسرح بطلين او ثلاثة ابطال فان قدر الانسان  
وفقا لما ينم عنه عنوانه ، يحيا عالما واقعيا على قيد الحياة وهو عالم الصين في عام ١٩٢٧ . وتدور  
الاحداث اساسا في شنفهاي بين جماعات الثوار التي تعد للثورة . والحكاية هنا معقدة جدا  
الى حد القول بان هناك حكايات بقدر عدد الابطال .

وتختلف الثورة الصينية وتباين تبعا لآراء الابطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او  
جيزور او فيرال او هيمير ليتش او كلايك . . ويؤكد مالرو : « ان الاطار غير اساسي ( . . . )  
ولكنه ايضا غير عارض . واعتقد انه يوجد في وقت ما اماكن قليلة تتوافر فيها ظروف  
للبطولة . . » (٦)

( ٣ ) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," Esprit octobre 1948.

( ٤ ) Malreux, cite par Henri Dumazeau, La Condition humaine de Malraux. Paris, Hatier (collection "Profi d'une oeuvre"), 1970. p. 68.

( ٥ ) كان ايزنشتاين سيصور سينماليا رواية قدر الانسان بموسيقى شوستا كوفيتش ولكن حالت دكتاتورية ستالين دون  
تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم ايضا المشروع الذي امدته هانسوين في عام ١٩٧٠ . وفي فرنسا في عام ١٩٥٤ قام تيري  
مونييه ومارسيل تاسا تكور باعداد الرواية مسرحيا وكتب مالرو الفصل الاخير منها .

( ٦ ) Lettre de Malraux a G  ten Picon ( 1934 ) reproduite en fac-simile sur la page de garde de Malraux par Lui-m  me de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمة الاولى لروايات مالرو هي معاصرتها . ويستغرق الكاتب في المعارك المعاصرة ويحاول ان ييسر للقارئ معاشتها . ولقد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الاحداث ، الى حد ان بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صحفيا امينا للاحداث المعاصرة .

والصحيح انه اذا كان مالرو قد كتب « الغزاة » و « قنبر الانسان » فان ذلك يرجع الى انه في عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التي كانت في اوج الحرب الاهلية . وهناك ، - ولبعض الوقت - يبدو انه باشر منصب قائم مقام قوميسير الكو منتاج المكلف باعمال الدعاية لدى بوروديني ممثل الاتحاد السوفيتي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني .

ولا جدال في ان اعمال مالرو هي نتاج لتجاربه ولقائه . وفي هذا المجال فان « سيرة حياته » تميز بين الصور الادبية غير الشخصية لمؤلفات مالرو الاولى عن الاره اللاحقة . ومنذ عام ١٩٢٦ ( اغراء الغرب ) اصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر احدي شخصياته :

« كيف تريد فهم الشيء من غير طريق الذكريات » (٨)

والواقع ان اغلب ابطاله من المغامرين او السياسيين وهم يتماثلون تماما مع ( خالقهم ) في الاحداث والصراعات الحقيقية في كانتون ( الغزاة عام ١٩٢٨ ) ، وفي شنغهاي ( قنبر الانسان عام ١٩٣٣ ) ، وفي المانيا ( زمن الاحتجاز عام ١٩٣٥ ) ، وفي اسبانيا ( الامل عام ١٩٣٧ ) ، وفي فرنسا ( الصراع مع الملاك عام ١٩٤٣ )

ولطالما اخذ على مالرو ، وعلى الاخص بالنسبة لقنبر الانسان « القتال الوحشي والتدوق الدموي والتعذيب والميل الى البطولة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على ماذهب اليه النقاد في سطور واضحة :

« انا لم اختر هذه الوحشية لانني تلاقيت معها . وكل انسان يستخلص من حياته ، واني اطالب بهذه وبذلك . » (١٠)

وفضلا من التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فان ما يميز روايته على وجه خاص هو التاريخ الذي يتداخل في السرد . فقد اشترك في بطولة الرواية تشانج - كاي - تشيك الذي كان

( ٧ ) Georges Mounin, „Les Chemins de Malraux”, Les Lettres Françaises, 7 juin 1946.

( ٨ ) André Malraux, La Condition humaine, Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

( ٩ ) Robert Brasillach „Le goût malsain de l'héroïsme”, L'Action française, 10 août 1933.

( ١٠ ) André Malraux, „Réponse à Robert Brasillach”. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les Oeuvres complètes de Robert Brasillach, club de l' Honnête, homme, Tome VII.



أندريه مالرو : « قدر الإنسان »

وكتذلك على رأس القسم المعتدل للكومينتانج ، وبورودين الذى كان فى ذاك التاريخ المستشار الروسى للحكومة الصينية . ولعب كيو دورشواين لاي .

ولا جدال فى ان الحياة الخاصة للبطل وموته من خيال المؤلف . ولقد الهمت مالرو زوجته الاولى كلارا جولدميدت مشهد الاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو ان يضع نصب عينيه أندريه جيد عندما ابتدع شخصية جيزور ، وأندريه برتيلو عندما خلق شخصية فيرال . واخيرا فقد صور الكاتب اصل كلايبسكى فى « اللامذكرات » على وجه دون شخصية الرواية .

وبالنسبة لعدد كبير من المؤلفين وعلى الاخص مالرو فان العمل الأدبى ليس الا انعكاسا وصدى للحياة : ويسعنا ان نؤكد ان العكس صحيح ايضا ، وغالبا ماحدث ذلك ، ويؤكد مالرو نفسه :

« ان العالم اخذ يتشابه مع مؤلفاتى . » ( ١١ )

وفى واقع الامر فان **قدر الإنسان** ظلت على مدى اربعين عاما رواية احداث ملتبهة . العالم الثالث والثورة والحرب والشيوعية والنزاع الصينى السوفيتى وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائما ، وفى الدرجة الاولى ، لاهتماماتنا . وفى هذا الكتاب الذى قام على التنبؤ تكون بعض ما قدر المؤلف خطوطا للمستقبل . ومنذ عام ١٩٣٣ كان مالرو يعلن « ان قدر الصين بين يدي الحرب الشيوعى » ، ( ١٢ ) ولقد استيقظ « ثلاثمائة مليون من الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرنا وسوف لن يستولى عليهم النوم من جديد » ( ١٣ )

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سائقة بالتناقضات بين الحزب الشيوعى الصينى والشيوعية الدولية . واعلن ايضا ان قدر الغرب ربما يتوقف على ذلك الحزب .



### عالم الرجال

ذهب بعض النقاد الى حد انكار عنوان رواية مالرو **قدر الإنسان** واعتبروا انه مضمن فى شططه .

ويؤكد الناقد السوفيتى ايليا اهرنبورج ان ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاى وانما ماحل باربعة او خمسة رجال فى هذه المدينة فى ربيع عام ١٩٢٧ . ويضيف

A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

( ١١ )

( ١٢ ) قدر الإنسان

( ١٣ ) قدر الإنسان ص ٢٧٩ .

أهرنبورج أن رواية مالرو ليست مؤلفاً عن الثورة وإنما هي « صورة راديو جرافية للكاتب مجزأة على عدة أبطال » (١٤) .

ويؤكد أيضاً آدموند جالو في مقال انطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« إن **قادر الإنسان** هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالسيد اندريه مالرو ، ونجده في كل أعماله ، ويسعدنا أن نطلق عليه اسم **المغامر المفكر** » (١٥)

ولو أن الموضوع الظاهر **لقادر الإنسان** في حقيقته هو الثورة الصينية ، فإن المسألة العميقة في تصوير الحالة المأسوية للإنسان في مواجهة قدره : غموض الوجود ، والشعور العميق بالوحدة، والتبعية للغير، وسيطرة فكرة الموت... ويرد تماماً الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بأنه يقدم إنسانية معقدة خالية وعلى قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين أبدؤها في شأن **العالم الخاص لمالرو** . فهو يرسم عالماً من الرجال أساساً ، حيث تحتل المرأة مكاناً ضيقاً ، وتقول ماى بحق :

« كيو ، ما هذه الأفكار الخاصة بالرجال » (١٦)

وفي الواقع فإن تلك أفكار ومسائل من أبحاث الرجال ، وتشكل جوهر أعمال اندريه مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندار . وبالرغم من تدخل العاطفة الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنري دي مونتلان صورة لنشاط الرجال . وكان أرنست سيكارى رائداً لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانس في بلاد العرب وأرنست يونجر في الحرب والمغامرة، وسانت أجزييري وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث عن قانون أخلاقي وعن معنى للحياة . وعالمه الإنساني « محدود بالفعل والدكاء الرجالي » (١٧)

ويركز جايتمان ليكون على غياب الطفل وندرة وارثك الشخصيات النسائية في رواية مالرو . والواقع فكثيراً ما نرى أن ليس لأبطال مالرو نساء أو أطفال . ففي **قادر الإنسان** يشكو هيمير ليتش من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الأسرية تحول دون « والسعادة

( ١٤ ) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans **Vus par un écrivain d'U.R.S.S.** Gallimard, 1934.

( ١٥ ) Edmond Jaloux. „Une puissance extraordinaire", Les Nouvelles littéraires, 16 décembre 1933.

( ١٦ ) **قادر الإنسان** ص ٤٦

( ١٧ ) G. Picon, Malraux par lui-même p. 49.

في أن تكون حواء وتمنعه من المساهمة في الحركة الثورية . كما أن وفاة ذويه ستحقق الخلاص بالنسبة له .

ويكشف كاتوف أيضا في ذاته هناة خبيثة « لا نساء ولا اطفال » (١٨) للحيلولة دونه والحرية.

وبينما لا يضع مالرو على المسرح في الطريق الملكي وفي الغزاة الا رجالا بلا اطفال وعملا بلانساء ( فيما خلا ساره ومدام كلاين والداعرات ) ، ففي قدر الانسان لا نجد الا انثيين ماي وفاليري . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميل كل منهما كيو وفيرال . وتبعاً لما اشار اليه هنري ديمازو : « انها حالة وحيدة في رواية مالرو : » (١٩) كيو يحب ماي ، وهي تحبه . ولكنه كانسان في الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحريّة في التصرف في جسده ، وهو مبدأ مطلوب في الاوساط الثورية في ذلك العصر . ويبين له من ذلك انه ذكر فيه روح التملك والفيرة كالاخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظيات اللاتي تظهرن في الرواية ، فانهن يوضحن الاهمية التي يعلقها مالرو على العشق الجسدي ، والتمييز الاساسي بين ذلك الاحساس وبين الحب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الآخر . ويكرر الكاتب في اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن في العلاقات .

« بدل من المرأة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المرأة الا احد قطبي متعة الرجل الشخصية » (٢١)

ولا يرى في فاليري الاتبعية وخضوعا واذلالا . ووفقا لقوله « ان الرغبة في التعرف الى امرأة هي وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى أيضا تشين احتقارا شديدا للجنس المؤنث ويفخر « بأنه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل من الجنسين . ورغم ذلك فان مالرو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيدات مرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المرأة بالنسبة لي كائن مختلف – وانا اتحدث عن الفارق وليس عن المستوى – ولا استطيع ان انصور شخصية نسائية . » (٢٤)

( ١٨ ) قدر الانسان ص ١٥٢ .

H. Dumazeau op. cit., b. 28.

( ١٩ )

( ٢٠ ) قدر الانسان ص ١٠٣ .

( ٢١ ) قدر الانسان ص ١٠٥ .

( ٢٢ ) قدر الانسان ص ١٩١ .

( ٢٣ ) قدر الانسان ص ٥٤ .

Malraux à d'Astier de la Vigerie, L'Evénement, août 1967, p. 60.

( ٢٤ )

ولو أن ماى فى قلب الإنسان قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتمعدت حالة المرأة المملوكة والمحترقة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها فى صراع الثورة . وهذه المرأة « المسترجلة » (٢٥) تتناقض فى وضوح مع زوجة هيميرليتس والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية المذكور . « هل عشت كأمراة محمية ؟ » (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحته على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشدد بالصراع الرجالى .



### العنصر الباسكالى : بؤس الرجل بدون اله •

تكن القوة والجمال فى قلب الإنسان فى تطور الرواية على مراحل متعددة فى ذات الوقت . فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقبل كل شىء رواية ثورية ، ومن جهة أخرى ندرك الانسانية العميقة للمناقشات . ففى كل لحظة ، وعند أقصى عنف للإبطال ، فانهم يتساءلون فى لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخص قيمتها . ومن خلال جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز ، يسعنا ان نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقدشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته ليراه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرال عن صحبة جيزور معجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما فى خدمة المتحدثين » . وكان يبدو لكلايك ان « جيزور كان الرجل الوحيد الذى فهمه » ، واما عن الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى فى نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيزور ودور المنشدين فى المأساة القديمة لأنه هو المكلف باستخلاص معاني الافعال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص يبين على وجه يستبعد كل غموض اين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف بقلب الإنسان . » (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسى فى قلب الإنسان ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسى الباسكالى » (٢٨) لان مأساة مالرو معنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال ( مأساة الرجل بدون اله ) . ويشير مالرو فى اكثر من موضع

( ٢٥ ) قلب الإنسان ص ٢٨٠ .

( ٢٦ ) قلب الإنسان ص ١٧٢ .

( ٢٧ ) Joseph Hoffmann, L'Humanisme de Malraux, Librairie Klincksieck, 1963. p. 157.

( ٢٨ ) A. Malraux, Lettres à Gaëtan Picon, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفى الصفحات الاخيرة من « اشجار الجوز فى الائتبرج » يتحدث عن النص الباسكالى الشهير :

« نتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالاغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يذبح امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره فى مصير المائلين له . . . انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

ويذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسى فى قدر الانسان يشكله المسجونون فى ساحة السجن ، ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق فى قدر الانسان والانشغال الدائم بالموت كل ذلك يكون الاسس فى اعمال مالرو .

وتتساءل كل شخوص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين - الذى تلقى بداءة التعاليم المسيحية-الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل العاطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتساءل الشاب فى قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب او مسيح » (٣٠) .

ويقارن جيزور مفكرا فى معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان البطولى لكيو . فبينما الاول يائس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسى لكيو وبالعكس « يجعل للوحدة معنى ( . . . ) وكان لحياته معنى »

وبالنسبة لهيميرلتش فان العمل الثورى هو « الشيء الوحيد الذى له معنى فى حياته الراهنة » ويفكر فيرال شأنه فى ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام العجوز كما يتأمل فى معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروى عن مالرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل ( . . . . ) قدره الانسانى » (٣١)

وفى محاولة للتغلغل فى سر قدر الانسان يظهر مالرو كافة صور القدر ، اى كل ما نتحمله : الوحدة ، والعبث ، والقلق والموت . . . هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترعب كل الشخوص وتوجد فى كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالرو فى ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل فى الغزاة والطريق الملكى ، وهى تمثل ذات الاسطورة القاسية والدموية من الشقاء والفشل والقدر ، وتشفى كل شخصيات قدر الانسان من وحدة مؤلمة . والفرد منفلق على نفسه ، وعاجز عن الاتصال بالآخرين .

( ٢٩ ) مالرو شجر الجوز فى الائتبرج .

( ٣٠ ) قدر الانسان ص ٥٨ .

( ٣١ ) قدر الانسان ص ١٩٣ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ، كما لم يكن قادرا على التكهن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كغيره ، ربما كان على درجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على اى حال يعتبر كاي فعل عادى ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى انه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتى بعمل عادى ، ولكن « المجهول » كان فى انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمن الاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولا وقاسيا فى ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فى مكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعة ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذى لم يستطع ان يتقاسمه مع الآخرين وحتى عندما يجد زملاءه ، يظل تشين وحيدا « على وجهه قير عادى » ولما يتوجه الى جيزور ، سيده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيع الفيلسوف العجوز ان يسدى اليه نفعا . ويأسف ذلك الاخير « لعزلة القاتل » . ولكن الذى لم يفهمه جيزور هو ان تشين ، الذى رأى من جديد شركاءه فى الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ، ولكن ذلك الغموض يبدو فجأة كامر واضح لتشين الذى يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احدا ابدا . اليس كذلك ؟ » (٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانعزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وايا كان عمق الحب الذى يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذى كان يكنه لكيو لم يحرره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن فى مجال آخر ، فان موت كيو بالنسبة لجيزور هو « انفصال » حقيقى ، ووقف تام ليس له ما بعده . ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود » وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الالم وحده او التغيير وحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنغلق على « حياته الفردية ومنعزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذى لا يعرف الاذاته وجسده . وفى العلاقات بين فيرال وفاليري او من خلال زيارة الماهرة الصينية يصطدم فيرال دائما بشخصه .

( ٣٢ ) قدر الانسان ص ١٢ .

( ٣٣ ) قدر الانسان ص ٥٢ .

( ٣٤ ) قدر الانسان ص ٦١ .

( ٣٥ ) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

وخلافا لما يرى هنرى ديمازو الذى يؤكدانه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلايك الالم والوحدة ، ( ٣٦ ) فقد لاحظنا فى تلك الشخصية ، وكذلك فى باقى ابطال الرواية ، الاحساس المحزون بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلايك الذى نجح فى الافلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهم كالحب والاسرة والعمل ان يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يفمره ويشعره دائما بوحدته القاسية » ( ٣٨ )

ويتساءل كيو فى لهفة « ولكن من اكون بالنسبة لحنجرتى ؟ »

وتظهر المسألة فى قنر الانسان فى الكشف المفاجيء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى غربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكر فيها مرارا . وعندما يصرح لاييه عن متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث ان وجدت نفسى فجأة امام مرآة ، ولم اعرف على نفسى » ( ٣٩ )

وتستمر هذه التجربة الغريبة فى ذهن كيو ويتذكر مرة اخرى عندما يترك ماى ويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولا يمكن ابدا لاحد ان يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفى كل كائن « غريب » ( ٤٠ )

( لفظ يقدره تماما البير كامى ) وهو غير معلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وترتبا على ذلك فان التعبير عن الضمير مستحيل ، وليس للرجل اى طريق ليكن مفهوما ولا يعرف احد الاخر ابدا . وهذا هو الراى الدائم لمالرو . ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نصى جابتان : يكون :

« كلمة معرفة التى تنطبق على الناس تجعلنى احلم دائما . واعتقد اننا لا نعرف احدا » ( ٤١ ) .



والعالم الروائى لمالرو بدون اتصال . وليس الحوار المتعدد بالكتاب فى واقعه الا حديثا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص الى نفسه وما اجل نفسه دون مراعاة للمتحدث الاخر الذى لا يتأثر بحديث الغير .

H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

( ٣٦ )

( ٣٧ ) قنر الانسان ص ٢١٨ .

( ٣٨ ) قنر الانسان ص ٤٩ .

( ٣٩ ) قنر الانسان ص ٤١ .

( ٤٠ ) قنر الانسان ص ١٩١ .

Malraux in G. Picon, Malraux par lui-même p. 48,

( ٤١ )

ويلاحظ كيو في قلق ان « ماى بعيدة عن فهمه تماما » .

ويقرر جيزور في اسى ان « احدا لم يعديعرف الآخر » وعندما تنطبق لأول مرة العبارة التى كررها كثيرا « ليس هناك فهم لاحد » على ابنه ، يسيطر عليه بالغ الاحساسات المؤلمة ترهق كل شخص **قدر الانسان** . ولم يستطع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته ان يبرا من « القلق الاولى » الذى كان يلاحقه حتى في احلامه .

ورقم ان مارو يتقارب مع باسكال في الكثير من النواحي فانه يختلف عنه في وضوح في شأن الحلول المتعارضة التى يقترحها كل منهما عن مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هذين المفكرين الكبارين - وفي الوقت الذى يتيسر فيه لبسكال ان يجتاز قلقه لانه يؤمن بالله ، فان مالرو الذى يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا في ياس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو ان يتغلب على آلامه وانما يأخذ يفكر في « الحظ المزرى للآخرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف العجوز : ان الناس كلهم يتألمون لانهم يفكرون .

« وفي الواقع فان العقل لا يفكر في الانسان الا في الخلود ، وليس الشعور بالحياة الا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من ان يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية «ارادة القوة» لنييتشه التى تقول برفع الرجل الى مرتبة السوبرمان (هكذا قال نيتشستر) ، يؤكد مالرو ان كل شخص يحلم « بالافلات من قدر الانسان » ، و « ان يكون اكثر من رجل في عالم الرجال ( . . . ) » وانها ارادة الالهية : ان كل رجل يحلم بأن يكون الها (٤٣)

ومن هنا يبدو عبث الوجود ، لانه من اللحظة التى يستشعر فيها الشخص القلق من انه الى موت عادى - « ذلك الشقاء في ان يكون رجلا » - ويفهم حينذاك ان كل بحث يؤدي الى سراب . ومهما كانت ارادته في الوصول الى اللانهاى فان جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الانسان غير محتمل فمرجع ذلك ان مال مشروعاته وذاته الى الموت .

والرجل لعبة القدر الذى كان يرى ان يسيطر عليه لانه عاجز امام الموت . ويعترف جيزور بانه :

« يمكن ان يخدع الشخص الحياة طويلا ولكنها تنتهى دائما بأن تجعل منا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفي قدر الانسان فان الموت حاضر ومائل في صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التى ارتكبها تشين وينتهى باعدام الثوار . وكل شجون مالرو في شغل بالموت . ويبدو ذلك

( ٤٢ ) قدر الانسان ص ٢٨٢ .

( ٤٣ ) قدر الانسان ص ١٩٤ .

( ٤٤ ) قدر الانسان ص ٢٨٠ .



اندرية مالرو : « قدر الانسان »

الموضوع بعمق في الرواية الى حد انه يظهر في اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيو في ضيق « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا عن ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشيء الوحيد في ذاته والذي كان قويا كالموت » كل تلك الصور الفنية بالفهم تعطى معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفظيح في الموت انه « يحول الحياة الى قدر » . وبدءا من الموت ، لا يمكن تعويض أى شيء

وتلك الصيغة الشهيرة **لالامل** يوضحها احد شخوص الرواية : « الشيء الرئيسى في الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للعلاج : التعذيب والاغتصاب الذى يتبعه الموت ، انه لامر فظيع حقا . » (٤٥)

**والموت هو الذى لا رجعة فيه . وعندما يضيع نهاية للوجود بلاعودة فانه يعطى وجهها للخلود لمن كان على قيد الحياة .**

ولكن الموت لا يحل شيئا . فهو ليس حلالا للمأساة في قدر الانسان ، وليس مفتاحا في البحث عن قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تساؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون أكثر احتمالا ؟ لا ، يجب جيزور ، لان الرجل يهفو الى القوة الكاملة لا الخلود . وما الموت الا احد أوجه القدر . وذلك الاخير هو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحدة والاذلال والالم والتعذيب . . . وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يموت الانسان عندما لا يموت وحده » (٤٦)

وقلق كل شخوص قدر الانسان ليس مبعثه الموت ، وانما في ان يكون محدودا بالتبعية والانتماء

والذى يدعو جنود القطار المسلح الى اليأس ، ليس هو الموت ، ولكنه الغيظ من عدم القدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبل بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل المعجوز جيزور كما يصح حتى ان نبتغى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة عن طريق كيو وبعد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

( ٤٥ ) مالرو الامل ص ٢٢٦ .

( ٤٦ ) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وتبعاً لما رو ، فان الرجل مقيّد في عالم لا معنى له ولا يمكن الافلات منه الى الخلود ، وهو فاقد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن ما لرو كرّجّل عملي لا يقع في التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملاً ايجابياً يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكيو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالة قاسية من الدعر »

**ويرفض مالرو بشدة الخضوع للموت** ، وليست كل مؤلفاته الا ارادة السيطرة على الانشغال بالموت والقدر . ولقد قال جايتان بيكون :

« لا شك في ان سارتر كان محقاً في قوله بان الرجل في رأى مالرو وكذلك هيدجير هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو في الهامش :

« وبدلاً من القول الى موت نقول ~~خضوع~~ الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابهاً » . (٤٨)

ونشير بداية الى الحلول الخاطئة التي يعرضها جيزور . فالفيلسوف العجوز يرى انه يتعين نسيان القلق بالمخدر او العشق الجسدى .

« يجب تخدير الانسان ( هكذا يقول ) - ذلك لبلد بلد الافيون والا سلام الحشيش وفي الغرب المرأة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذي ياجأ اليه الغرب للتحرر من قدره الانساني ..... » (٤٩)

وبوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل ، ولقد حللنا من خلال فيرال فشل العشق الجسدى الذى يعجز عن الانشغال بشيء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة في اذلال المرأة ، ليشعر ذاته بأن فيرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطوياً على نفسه في وحدته . والمخدر أداة اخرى للتهرب من الانشغال بالموت ولكن ذلك السبيل للافلات من الواقع ليس الا وهماً وليس هروباً حقيقياً . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى آلامه يقول : « ثمة عوالم للتأمل بفعل الافيون او بدونه حيث كل شيء بلاية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هي الميسر الذى انقاد اليه كلايبك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل باحساسات قوية يعجز عن ان يجدها في حياته المتواضعة . ويدين الكاتب جبن تلك الوسيلة التى لا تعرض المقامر الى خطر حقيقى ، وليست بالتالى الا « انتحاراً بلا موت » .

( ٤٧ ) قدر الانسان ص ٢٦٤ .

G. Picon, Malraux par lui-même. p. 75,

( ٤٨ )

( ٤٩ ) قدر الانسان ص ١٩٢ .

( ٥٠ ) قدر الانسان ص ٥٠ .

وأوهام كلاييك طريق أيضا لنفى وجوده . وحتى يتمكن من التدليل على تحمله الحياة يتعين عليه ان يتغيب عن حياته ويخوله كل شيء لذلك الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى سترة للافلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة اخرى في عيون الآخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح في الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلاييك من كشف فشلهم . وليس العشق الجسدى والفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسه هنا التقارب مع باسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للافلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من يؤسنا هو الترفيه وهو أيضا مبعث تعاستنا لانه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير فى انفسنا ويجعلنا ندوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ، فهو يؤكد ان فى الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتعدى قدره فى الحرية بأن يكون ذاته » .

وعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجة ما والحلول الخاطئة ، يعارض الكاتب فيما حقيقية وخالدة . ولكى يقهر اغراء اليأس لا تكفى ارادة الحياة ، لان الحياة للحياة بلا أى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط .. وانما بالتغلب على كل ما يرهق الرجل : الوحدة والاذلال والهزيمة ....

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لحتمية الفشل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولة والكرم والاخاء والكرامة ....



ولا جدال فى ان تلك القيم الخالدة هي دعامة للدين وتجد تعبيراتها الاخلاذة فى عدة تجارب دينية ، ولكن - وعلى سبيل التحديد - فان أهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل فى استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسيراً وتبريراً جديداً ، لان الفضائل المعنوية لا قيمة لها الا بتعاملها مع الاخلاص والعاطفة للإنسان الذى يعبر عنها . ولقد عبر الكاتب بنفسه بوضوح ودقة عن الوحدة العميقة « واستمرار » مؤلفه وفكره . وهو يؤكد ان المسألة الكامنة فى كل كتاباته تبدو فى التساؤل التالى :

( ٥١ ) قدر الإنسان ص ٢٤٨ .

( ٥٢ ) Blaise Pascal, Pensées (1669), Opuscules et lettres. Henri Plon éditeur, 1873, p. 190,

« كيف ننبه الرجل بأن يوسع ان يقيم عظمته ، بدون دين ، على الفناء الذى يسحقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قدر الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل اى فيما يدموه للحياة ، الامر الذى لا يختلف عما يدموه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متأهبا للمخاطرة بحياته ؟ ويجيب بطل **قدر الانسان** على ذلك السؤال الاساسي : « ما قيمة الحياة لمن لا يقبل الموت من اجلها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا للوهلة الاولى كبطل يفامر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواعث التى دفعته ليقول : انه مأخوذ بجريمة القتل . ويصبح الارهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأساوى بمحاولة « الموت فى ارفع مراتبه » وتلك الشخصية المعقدة « روح طموحه واضحه الى حد ما ومنفصلة بعض الشيء عن الرجال او مريضة » تحاول ان ترفع من شأن عمله وتعزم ان تضحي بحياتها فى سبيل قضية الثورة . لأن لو كان قدرها هو الموت فيتعين السيطرة عليه - لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالفه - والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين فى أن يموت بمرأى وشهادة بي الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليست شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلحقوا الموت فى بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكيو الا حلا واحدا وهو فى سجنه وقد علم بالحكم باعدامه : ابتغاء الموت بدلا من تحمله : لأن « الموت امر سلبي ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويتطلع البطل قرصا من السيانونور الذى يحتفظ به كل مجاهد فى جيب حزامه .

وبعد ان اعطى كاتوف السيانونور بكرم الى اثنين من زملائه الفرعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الذى يفرضه عليه القائمون بتعذيبه ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية المثيرة على الرغبة فى الموت بدلا من انتظار السقوط والاذلال .

وتذكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى حدميين ، ببطولة كيو الذى لا يسمح برؤية مجنون يجلده حارس السجن فى وحشية ويحول قسوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنسبة لكيو مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

وننتقل الآن الى موضوع رئيسي في كتاب مالرو وهو : كرامة الانسان .

• • •

### تأكيد كرامة الانسان

لتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضى الأمر ان يبدأ مالرو بتصوير الامتهان في احط درجاته الذي يفرضه رجل على آخر . ومبررات الاذلال في **قدر الانسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لذاته . فالكاتب يعمل على أن يبين آثاره على الوجود الانساني . فهو لا يؤدي الى الآلام وحدها ، والانهيال الجسدي ، ولكن آثارها أعمق وأخطر من ذلك : فهي تلحق بالكائن ذاته وتسليه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الفزائون الذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والمريض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مالرو الذي كان في عام ١٩٣٣ لا يزال في عهده الشيوعي كأنه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففي الصراع بين الطبقات لا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصول على استقلال يقلل من شأنها الحرمان منه .

ويقول ماركس في وثائق عام ١٨٤٤ :

« ان رفع الاجور ( . . . . ) ليس الا سدادا لاجور أعلى للعبيد ولا يمهّد للعامل مستقبه ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التي لا يوجد بدونها كيان انساني حقا لازمة ايضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقد كانت فكرة الكرامة هنا غرضا اساسيا للثروة ومطلبا للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارتان دي جاود :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبه المادي في ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاهية ، وبدون ذلك لا يستطيع ان يتشكل مع كرامته كرجل » (٥٧)

ويدين اراجون في شدة النظام الرأسمالي الذي لا يترك للمحرومين الا « الموت والالام والاذلال » (٥٨) .

وفي اللباب لسارتر ، يقول اوريست لايجيت بين ضربتين من السيف .

( ٥٥ ) قدر الانسان ص ٢١

Karl Mar, Xanuscrits de 1844. ( ٥٦ )

Roger Martin du Gard, Oeuvres complètes, Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), 1955. Tome II, L'Été 14 p. 371. ( ٥٧ )

Louis Aragon, Les Beaux Quartiers, Deno'él et Stocl, 1936, p. 319. ( ٥٨ )

« من العدل ان تسحق ايها النذل القدر وان تقوض امبراطوريتك على اناس ارجوس ، ومن العدل اعطاؤهم الاحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هو الحال عند مالرو فاننا نبعد عن المذهب الماركسي للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيته نقاطا مشتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

وعن مالرو فان الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من أجل الكرامة وابعد مرمى من ان يكون قهرا للسلطة وانتقاما للضمير الذي طال المدى باذلاله والذي لا يسعه ان يتحمل اكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنفهاى في قدر الانسان « الذهاب الى غزو عيشهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحة بؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فان الكاتب يقدم صورة لانحدار روسية بيضاء راقصة محترفة في « القطالاسود » واستقلالا عن كل الآراء السياسية ينعى الكاتب على هذه المرأة افتقارها للكرامة شأنها في ذلك شأن المقاتلين المتعساء وتقول :

« كان لجدى الاكبر ارض طيبة . . . . . ولقد رحلنا بسبب الشيوعيين ، اليس كذلك ؟ وحتى لا نكون مع الناس كلها وحتى نكون محترمت :

هنا نحن اثنتان على المائدة واربع في الغرفة . . . . .

ويجب دفع الايجار . محترمت . . . . . » (٦١)

وكلما يستغرق هيميرليتش في ذكرياته يعترف في مرارة بأن حياته لم تكن الا استمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرسة : يتغيب يوما كل يومين ولتتمكن امه من ان تشمل في هدوء تجعله يقوم بأعمالها . والمصنع : يدوى . روح شريرة في وحدته العسكرية ، ودائما في السجن . والحرب . غازات سامة . لمن ولاجل ماذا ؟ البلدة ؟ انه لم يكن بلجيكيًا ، لقد كان بائسا » (٦٢)

وكما هو الحال في الصراع مع الشغل بالموت فان شخوص قدر الانسان تتبع طرقا مختلفة في السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففي الصراع ضد الاذلال تلتزم كل شخصية بالطريق المخصص لها .

وكان رد الفعل عند كونيغ قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء في سيبيريا في الجيش الابيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتعذيبه ، وحدثوا ثوبا في كل من كتفيه ، وبكى امامهم .

النزيريه مالرو : « قدر الانسان »

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الاهانة . ومنذ ذلك الوقت لم ينضم الى كومنثانج الا ليثار بقتل أكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلاييك بأن رد الفعل القوي والعاصف لدى كونيغ امر مألوف لدى أولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية في الصين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتحان الشديد الناس الى انكار العالم . وان الذى يسفك بعناد والمخدر والانهيال العصبي ، كل ذلك يغذى مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولأن « الوحدة والتحقيق التام » (٦٤) امران ملتزمان بقدر الانسان ، ويؤكد الكاتب فى أكثر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال فى حاجة الى احتقار الآخرين ليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليرى » التى لم يكن يتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضعها ويضغط عليها ويهينها . ولكنه ، وقد سخرت منه فاليرى ، يحلم بمشاهد من السلامة والاغتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبقى تملك أول غانية يقابلها بغرض التخلص من الكبرياء الجنسى المزدول الذى كان يحطمه . وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدينية التى بدلا من أن تحرر الانسان فانها تهبط به به وتستعيده أكثر فأكثر ، وقد عرض الكاتب أمثلة عديدة إيجابية مصورا ارادة العز والكرامة .

ولو ان هيميرليتش قد أسهم بعنف فى المعركة الثورية فقد كان ذلك لأن الامر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانسانية وباهانة يتعين محوها . ويصرخ فى غضب عند الهجوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكن ذلك الشخص سيمحو تلك الاهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه فى الافلات من اخماد شانج - كاي - تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . وبفضل ذلك العمل الجديد يكتشف هيميرليتش اخيرا معنى لوجوده :

« انها أول مرة فى حياتى أعمل فيها وأنا اعلم لماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر . . » (٦٧) ويكون العمل بالنسبة لمالرو جوهر الرجل ، والفعل الذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العمل وازدهار ما يؤديه موضوع اساسي لباسكال .

( ٦٣ ) قدر الانسان ص ٢٢٧ .

( ٦٤ ) قدر الانسان ص ٢٢٨ .

( ٦٥ ) قدر الانسان ص ١٨١ .

( ٦٦ ) قدر الانسان ص ٢٣٣ .

( ٦٧ ) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

- « سعداء أولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .
- وكم من المرات اشاد زولا بالعمل الذي يعتبر بالنسبة اليه القانون الوحيد في العالم :
- « ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهى العمل » (٦٩) ويثنى شارل بيجى على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضا « عقيدة العمل » (٧١) .
- ويرى مالرو في الرجل كائنا اجتماعيا يتشكل بنشاطه . ويؤكد بطل **قدر الانسان** :
- « ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعلية لرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلك العمل معنى ويصبح وطننا » (٧٢) .
- وفي الوقت الذى تتكيف فيه الحيوانات تبعاً للطبيعة ، فان الرجال يغيرونها ويتغيرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس في **راس المال** :
- « ان العمل فعل يتم بين الرجل والطبيعة في الدرجة الاولى » (٧٣) .
- ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » في الصراع ضد الارض وذلك في **قدر الانسان** وكذلك في **اشجار جوز التنبرج** .
- وطبقا للمفاهيم الماركسية يؤكد بيجى وهو الشيوعي الشاب في **قدر الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساسا على عمله . وبتخصيص حياة اكثر عملا دائما واكثر قوة واشعاعا في خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .
- « ان المدنية تتغير عندما يصبح فجأة لعنصرها الاكثر ايلاما - اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث - قيمة وعندما لا يعود الامر متعلقا بالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار امن لداته ، والهرب من ذلك العمل حيث يجد فيه سبب وجوده » (٧٤) .
- ورد الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند المفكر** . فان كيو وقد ادمته خيانة ماي يثن من الالم الذى الحق به اكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الى التغلب على غيرته وان « يعثر من جديد على حبه لزوجته » .

Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893. ( ٦٨ )

Charles Péguy, Oeuvres en prose 1909 - 1914. ( ٦٩ )

Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade ), p. 1109. ( ٧٠ )

Aragon, Les Beaux Quartiers p. 383. ( ٧١ )

( ٧٢ ) **قدر الانسان** ص ٥٩ .

Karl Marx, Le Capital, Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180. ( ٧٣ )

( ٧٤ ) **قدر الانسان** ص ٢٧٧ .

( ٧٥ ) **قدر الانسان** ص ٤٥ .



اندرية مالرو : « قدر الانسان »

كيو من ابوين مختلفي الجنسية ولا يتبع اصلا معينا وهو محتقر من البيض وعلى الاخص من النساء (٧٦) ، واعتناقه الشيوعية مسألة شرف فقط « ارادة الكبرياء » (٧٧) . وليس الأمر بالنسبة اليه تنظيم العالم ولكن ان يكون نبيلاً ويموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيغ انضمامه الى حزب الثوار :

« أرى ان الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياء لأولئك الذين احاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين الى جانب العمال الموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقع عدد كبير منهم تحت اغراء الماركسية وتقاربوا مع الحزب الشيوعي الفرنسي . لاسباب مختلفة وظروف متباينة . وابدى اناول فرانسى الحاصل على جائزة نوبل في الآداب في عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشيوعي الفرنسي واشاد بالمثالية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشبان الذين كانوا يديرون مجلة « كلارتيه » بتوجيهها نحو استنكار الحرب والثقافة البورجوازية ، ودفع الاحتجاج على القيم البورجوازية والرغبة في الثورة الكاملة من هم اكثر من السرياليين الى الانضمام الى الحزب الشيوعي . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذى شجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلك الحزب في الوقت الذى كانوا يجهلون فيه كل شيء عن الماركسية . وفي الواقع فان تهديد الفاشية وفيما بعد نجاح الجبهة الشعبية ( عام ١٩٣٦ ) والحرب المدنية الاسبانية والمقاومة الفرنسية والصراع ضد الحرب في الجزائر ... كل تلك الاحداث اسهمت في اعطاء الحزب اهمية كبيرة لدى الاوساط الفكرية . وتحت ضغط الاحداث التزم في صلابته اندريه جيد واندرية مالرو وجان بول سارتر وجان جيونو وجان جيهينو - ونحن نذكر هنا الكبار - جانب الشيوعيين . واشتركوا في اوجه الانشطة الضخمة في ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفوذهم الى الجانب الثوري كما وضعوا احيانا اقلامهم في خدمة الحزب الشيوعي الفرنسي . وتلك النخبة من كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسميا للحزب الشيوعي الفرنسي . والكثيرون وعلى الاخص مالرو ( في عام ١٩٣٩ ) هجروا الحزب لقيام الخلاف على خط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا ان كتاب مالرو الذى يتناول مع ذلك الثورة الشيوعية في الصين لم يتبع اى حزب يمينى او يسارى ، ولقد منعت روايته **الغزاة** من الدخول الى روسيا السوفيتية كما حدث ايضا في ايطاليا الفاشية : ومن ثم فقد قامت دار النشر ( جراسيه ) بأعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن ان نطبق على **قدر الانسان** ذلك الراى للويس جيليه الذى ابداه عن **الامل** :

« اننا في دهشة للغياب التام لمسائل الفائدة والاجور وبالاختصار لكل ما في الفكر الماركسى » ( ٨٠ ) .

( ٧٦ ) قدر الانسان ص ٥٩ .

( ٧٧ ) قدر الانسان ص ٢٢٥ .

Louis Gillet, Les Nouvelles Littéraires, 8 Janvier 1938.

( ٧٨ )

( ٧٩ ) قدر الانسان ص ٢٤٢ .

Louis Gillet, art. cit.

( ٨٠ )

وشخصية تشين توضح تماما هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم في العمل الثوري فان مرجع ذلك للعوامل الشخصية المحضه . واذا عمل على قتل شانج - كاي - تشيك فان ذلك القتل كان حتميا بالنسبة له وحده . وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تماما . فهو لا يرى في جريمته الا اداء لعمل بطولى وضرورى لسد فراغ اليم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد في لحظة وفاته ترضية كان يهفو اليها ، ومع ذلك نستشعر فشلا لا يسع انكاره : لقد دمر نفسه سدى . لان عمله انصرف الى لا شيء ، وستظل وحدته بلا رجعة .

والاعمال الايجابية الوحيدة هي تلك التي قامت فيها الثورة بقهر الارهاب ، فتلك الاعمال التي تتمثل في سلام الشعب الصينى تعلق على المثل الاعلى الدائى .

وبالنسبة لبطل قدر الانسان كما هو الحال بالنسبة لمارو فان اختياره السياسى مشروط فقط بالقيمة المعنوية التي يقدمها للعمل الثورى . والصراع في جانب الثوار لا يعنى بالنسبة اليه الا « ان يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مارو ليست الا شذوا مؤثرا المجد الكرامة الانسانية :

« كان لحياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلامن اولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة في ذلك الوقت وكأنها طاعون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التي غالبا ما يخطها قلم الكاتب تتوالى تقريبا في كل صحيفة من صفحات الرواية وفي استطاعتنا ان نبين عبارات عديدة تكشف عن اولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للعمال :

« طالما المصير الى الموت فلنمت لكى نصبح رجالا » (٨٢) والمبدأ الاساسى لكيو هو الاثى :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت من اجله يتجه في غموض الى تدمير ذلك القدر بجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتضح استخلاص ثقة الرجل في غيره ورغبته في حياة افضل تعين على مارو ان يظهر لنا بطريق التناقض سحق وتعاسة كل الذين تحملوا الاحتقار الانسانى . ذلك الهبوط الى الحميم لازم لفهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكن اخماده من الثوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون وبؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صورته مارو بكفاءة فله ، وفرض علينا تلك المشاهد التي تؤثر في اعماقنا .

« ومع هذا ، وايا كانت الاداة التي نقلتها اليها ، فان الدم كان موجودا - ليس هو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

( ٨١ ) قدر الانسان ص ٥٩ .

( ٨٢ ) قدر الانسان ص ١٢٢ .

( ٨٣ ) قدر الانسان ص ١٩٢ .

( ٨٤ ) قدر الانسان ص ٢٥٠ .

اندرية مالرو : « قدر الانسان »

ويشعر كيو حتى « بالرغبة في ان يتقيا الاذلال الذي يحس به كل رجل امام رجل يتبعه » (٨٥)



### اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادي لشخصه . وبلا شك فان ابطاله يسدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ، وينجحون في التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرية - ويقول جان جييهنومن قدر الانسان :

« كل الشخص التي تظهر هنا غير عادية ، وربما ندرك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقى ان نتساءل دائما ، اذا كان قدر هؤلاء الابطال امرا غير عادي بدلا من ان يكون مثاليا ( ٨٧ )

وما يريد مالرو التعبير عنه في اعماله هي القيمة والعظمة الممكنة للرجل و ارادته في اقامة انسانية افضل . من هنا تحفل اعماله الفنية بمشاهد البطولة والعديد من الامثلة عن الكرم والاخلاص والاخاء .... وكل المشاهد الكبيرة في عمله هي كما قال جايتان بيكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدي المآسى الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكاتوف وهيميرليتش وبى وماى في تضامنهم مع الشعب البائس الصينى ويعكس العمل الوجودى والموت بلا جدوى لتشين يعارض الكاتب انتصار بطولة كيو :

« ان موت كيو وسط مهمة اخوية لمجموعة من القهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلك الاسطورة الدموية يصنعون اساطير ذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرة وهي اعطاء السيانور لرفاق النضال في ساحة السجون اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقى بين الناس بتآلف كيو وماى بفضل تأكيد حبهما . وان قلق كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماى وهو شعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما احبها » .

وذلك التضامن اكثر تأثيرا عندما يدعم وحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس المائل يتلاقى كاتوف وهيميرليتش :

( ٨٥ ) قدر الانسان ص ٢٣٦ .

Jean Guéhenno, t., "Le Tragique et le quotidien" Europe, 15 Juin 1933. ( ٨٦ )

J. Hoffmann, op. cit., p. 373. ( ٨٧ )

( ٨٨ ) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب ان نفهمنى دون ان اقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالرو يقوم على كتابة « اسطوره البروليتاريا » والثورة فرصة مواتية لتخلق للرجال اسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادر على تحويل الوجود وجعله اكثر نبلا . وموضوع الثورة هذا من اغنى اعمال مالرو اذ تلتقى فيه كل موضوعاته الاخرى . . . وبالنسبة للشوار فى **قدر الانسان** فان الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الابطال مختلف اوجه القدر : العبث والقلق والخطر والموت . . . وبالتالي يتمين عليهم اظهار فضائلهم الانسانية : الارادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبدلان فى بساطة عطاء اكثر من حياتهما فى سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قدر الانسان** فى توفيقه المثير للاعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على التعاقب . ولو كان الفعل فى **الغزاة والطريق الملكى** يبدو عند مالرو قوة فكرية محضه ، واحيانا مستلهما من نيتشه ، ففى **قدر الانسان** ، يصبح العمل البطولى المحض ، الذى يكاد يكون بلا مقابل ، اكثر انسانية . والامر لا يتصل بالعمل لمجرد العمل . وكل القيم العنوية الرفيعة تحيى النص كله : ارادة وقضامين واخاء رجولى بين المحاربين اللذين يتصارعون ويتألمون لتأكيد كرامتهم .

ولقد أخذ ايضا على مالرو حوار الطويل وآراء ابطاله اللذين يتحدثون فيما بينهم من معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين اللذين يتساءلون عن قيمة اهدافهم واعمالهم . ويؤكد هنرى دى مونترلان ، وهو مع ذلك معجب بذكاء وعمق كتاب مالرو :

« آخذ احيانا على تلك المحادثات انها تلمس الافتعال وجيشا من المفكرين كما فى روايات ما قبل الحرب حيث الشخوص وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لان مالرو لم يقدم فى كتابه **الا انسانية رفيعة** ، متجاهلا من هم دونها . فى حين اننا فى الحرب كما فى **الحياة** لا نختار الاشخاص اللذين نعيش معهم وبالتالي نقابل حتما « المغفلين » او المرافقين اللذين لا يشاركوننا حتما افكارنا .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التى وجهها جيد الى مالرو :

« ليس هناك مغفلون فى مؤلفاتكم » ويرد مالرو :

« انا لا اكتب لاضايق نفسى . اما عن الاغبياء فالحياة تكفى » (٩١)

ومن ثم يجب علينا ان نعترف بان **قدر الانسان** ، طبقا لعنوانه ، يبحث فى عمق المسائل الاكبر أهمية والاعظم اثارة للقلق والتى تطرح على الرجل . ومع ذلك فان تلك الرواية لا تقدم لنا

( ٨٩ ) قدر الانسان ص ١٧٨ .

( ٩٠ ) Henry de Montherlant Carnets 1930 - 1944 (année 1938) Editions \*Gallimard,

1957.

Cité en marge du texte de G .Picon, Malraux par Luc-même p. 44.

( ٩١ )

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاك وتولستوى او ديكنز مثلاً . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بعاطفة فظيمة واحدة ويأس فظيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائماً واحدة وبذات المعنى : والكل يتصارع ضد سحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتبة الواضحة » (٩٣) فان شخوص مالرو ليسوا الا صورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتدعه مالرو هو القدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

**وانها لعقالية مالرو التى نجدها في شخصياته وفي احاديثهم . وتماثل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى ان ملامحهم هي ذات ملامح خالقهم . فلهم ذات اللوح في التفكير وفي العمل وهي الصفة الغالبة عند مالرو .**

وكما ان شخوص الكاتب ليست الا انعكاساً لذاته ، فانه لا يرسم بالتالى الا شخوصاً هو قادر على تقديرهم ، او تحس بمشاعر يسعه هو ان يحس بها . لان « مالرو يفهم اكثر مما يصور » . (٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنع الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها او تكون غريبة عنه . وكما اوضح جابنتا بيكون في تحليله فان كلاييك وجيزورارو فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم بوضوح الا لانه احس بمشاعر مشتركة في بعض الاوقات من وجوده : او هام كلاييك والتهدة بالافسيون وتذوق العمل للقوة عند فيرال — اذ هناك دائماً بين الكاتب وشخصياته الاتفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يعتنقه مالرو ايضا تجاه معاصريه .

« لم يوقع ابداً الا على نقد يقوم على الإعجاب » (٩٥)

ولم يتحدث ابداً الا عن كتاب يقدروهم : نيتشه ، لاكلو ، فولكر ، جيد وبيرنانوس . . . .

**ولما كان مالرو يرفض ان يصور شخوصاً لا يستطيع فهمها فانه لم يصور ابداً الاعضاء . ويتقاتل كل توار قدر الانسان في دراسة ضد افكار مجردة وضد ظلال لم ترسم في دقة . فليس لجنود تشانج — كاي — تشيك ولا لمعدني كيوكا توف اي وجود خاص بهم . ولم يمثلوا في الكتاب الا تبعاً للابطال ، وليس لهم من دور الا لظهور قيمة الابطال .**

وبالنسبة لفيرال التابع للجانب المعادى والذي يقاتل الشوار فان الكاتب يرسمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل في ان يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

Robert Brasillach, art. cit., (٩٢)

G. Picon, Malraux par Lui-même p. 49. (٩٣)

Ibid., p.35. (٩٤)

Ibid., p.30 (٩٥)

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب الملتزمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتنائه . في حين ان اراجون في رواياته يتخذ موقفا منحازا في ثبات ، ويقابل صورا هزلية بتمجيد شخص مثالية . وبالعكس فان مالرو يبرر اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج (Le manichisme) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد رسموا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب قدر الانسان . وهو يؤكد في الامل :

« ان الفكر الكبير رجل يبحث عن تلمس الدقة ، والمرتبة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهره ضد الازدواج . - (antimanichéen) . » (٩٧)

ويمنح مالرو فيرال ذات الذكاء اللامع الذي يختص به الثوار . . . . . وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتي يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطعنا ان نثبت من ان المحادثات لن تؤدي ابدا الى حل تنتهي اليه فان كلا المتحادين يظل عند موقفه في النهاية . وتشبه كلود آدموند ما نبي تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان صلاصة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من الغباء المميز للجنس البشري ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها في سبيل فكرة ؟ » (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها . ويرد جيزور بحقيقة هي ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذاقول ؟ قدره الانساني . . . . . » (١٠٠)

• • •

### التكوين المزدوج للرواية

#### فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه في مقدمة كتابه الشكل والمعنى :

« ليس هناك من شكل نشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للقوى او صورة

( ٩٦ ) قدر الانسان ص ٧٦ .

( ٩٧ ) الامل ص ٢٧٩ .

( ٩٨ )

Claude Edmonde Magny, art. cit.

( ٩٩ ) قدر الانسان ص ١٩٣ .

( ١٠٠ ) قدر الانسان ص ١٩٣ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ساسمى تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات  
تكشفا عن عالم عقلى وكل فنان يبتكرها وفقا لحاجته . « (١.١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجى **لقدر الانسان** الذى يفرض  
نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كأنه فكرة دائمة . ولقد راعينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى  
قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته عن اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفترض فى الواقع (٠.٠) اللقاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى  
والقابلية لمرآة الجانب الاكبر على الاقل من مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١.٢)

وثمة متوازيات فى **قدر الانسان** . ولقد سبق ان اشرنا الى ذلك التارجح المستمر بين الفكر  
والفعل .

« طبعا ليس الامر مجرد اصطناع ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سردا بحثا لان تصادم الاحداث  
الذى يشره الكاتب هو الذى يعطى الرواية معناها . « (١.٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية فنية بالمتناقضات . وتسيطر على الكتاب المواجهة بين  
المضادين الكبيرين وهما : الانسان والقدر . وبشكل ذلك التعارض القطبين الاساسيين للرواية .  
وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون  
الرواية من تمييز عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا الفكرة المثالية للثورة والجهود فى  
سبيل تحرير المجموعات الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد  
ان كلاييك ، وعلى الاخص ، فيرال ، من الاعداء . وذلك لآخر راسمالى ومن رجال المال ، ومصالحه  
الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراستنا المتناقض بين الموضوعات المختلفة للرواية .  
فلا احساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصال المطلق عن الآخرين يقابله ويعوضه الحب الذى  
يكنه كيو لمائى وعلى الاخص التعاون المقدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق  
الذين يصمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تأكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض  
نرى ، ان صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو  
اكثر قوة وعنفا .

وذلك التقسيم المزدوج الموجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى  
آخر فى نفسية الشخص . ويتعارض فى وضوح وهم كلاييك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة  
الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

Jean Rousset, *Forme et significations, Essais sur les structures littéraires de* (١.١)  
Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

Lucien Goldmann, *Pour une sociologie du roman*, Gallimard, (Collection (١.٢)  
Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشير ايضا الى تضارب عالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيزور ، وتناقض الاهداف التي يرمى اليها الثوار مع اغراض الكومنتانج . وبين ذلك الازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطة شخصية كيو هي عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيزور التعارض الاساسي بين هذين البطلين ويتأمل في مصير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

**ونشير ايضا الى موضوع من الموضوعات بكتاب مالرو : التفرقة بين الشرق والغرب .** ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القس اللوثرى ورعبه من المدنية التقليدية بالصين (١٠٤) وبالعكس فان عم تشين - وهو من اتباع كونفوشيوس يحذر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارشالية وعلى الاخص فانه يحول دون ابن اخيه وامتناق فكرة جهنم التي كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

**وفي قد الانسان** فان جيزور الفيلسوف الفرنسي العجوز هو الذي يمثل ذلك الرمز الصيني . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انه في الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير في الرجل .

وبالنسبة لجيزور فان الافيون هو اداة التهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس في طيبة ، والعالم بكل ماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتأكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهري بين الشرق والغرب في رواية مالرو . والتفرقة صارخة في الحب مثل ما في غيره من الموضوعات . ويتعارض الخضوع التقليدي للمرأة الشرقية مع ثورة فاليري على فكرة سيطرة فيرال . « ان الحب المعنوي الفعلي والمبيد » (١٠٦) الذي ربط بين ماي وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كان غريبا تماما عن جيزور :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولان الحب في نظره لم يكن نراما وانما التأمل بثقة في وجه محبوب ، وتجسيدا للموسيقى الصافية - وهو عدوبة مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسين يحكم علاقات الرسام الياباني كاما وزوجته (١٠٨) فان مالرو الذي يبدو ، كما لو كان يشيد بالزوجين الشرقيين ، يعلم تماما ان هناك بعض المبالغات العكسية في علاقتهما . وتدين ماي عبودية المرأة الصينية وتبلغ في كل ليلة عن انتحار



أندريه مالرو : « قدر الإنسان »

المحظيات ، ولقد انقلبت فتاة مسكينة كانت قد حاولت الانتحار بشسفرة في هودج الزفاف ، وعندما علمت الام بان ابنتها لم تمت صاحت « مسكينة انت ايتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد كادت تتاح لها فرصة الموت . . » (١٠٩) وهو تعليق يفني عن أى مزيد من الشرح ويقدم لنا صورة وافية عن حالة المرأة في ذلك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهره في جلاء في مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك رساما قادرا على تصوير الغربة . كما يمتاز برسم ملامح الصين التى عرفها جيدا .

ذلك الروائي ذو حاسة الشم القوية مثل شاول بودلير ومارسيل بروست يميز بين الروائح الخاصة بآسيا واوروبا . ويفكر كيو في الاراضى المزروعة بنبات الناردين المحترق (١١٠) ويستنشق في مدينة هان - كيو رائحة الكافور واريح البساتين (١١١) .

اما عن كلايك الذى ارغم على ترك آسيا والذى يخشى العودة الى اوروبا فان اول ما ذكره بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المبتل من الحديقة . ذلك الريح المر هي اوروبا » (١١٢) .

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداعه دراسة قدر الانسان ان الكاتب مهما كان ملتزما في مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كل شيء فنانا كبيرا . ذلك الهاوى للفن يوضح على لسان الرسام اليابانى كاما الفرق بين فردية الرسم الغربى وعالية فن الشرق الاقصى .

« عندما ذهبت الى اوروبا شاهدت المتاحف . وكلما صنع رساموكم التفاح وحتى الخطوط التى لا تمثل شيئا زاد تعبيرهم عن انفسهم . وبالنسبة لى فالعالم هو الاهم » (١١٣) .

ويمنح مالرو جيزور « تدوقه النقى للفن . (١١٤) وعندما ينظر الفيلسوف العجوز الى تشين وانفه المسحوق « كالنقار » (١١٥) يتذكر « صقرا مصرى من البرونز احتفظ كيو بصورته لحبه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددة في الرواية :

( ١٠٨ ) قدر الانسان ص ٤٢

( ١١٠ ) قدر الانسان ص ١٢ .

( ١١١ ) قدر الانسان ص ١٢٩ .

( ١١٢ ) قدر الانسان ص ٢٠٢ .

( ١١٣ ) قدر الانسان ص ١٦١ .

( ١١٤ ) قدر الانسان ص ٦٠ .

( ١١٥ ) قدر الانسان ص ١٤ .

( ١١٦ ) قدر الانسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوفة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينيين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التى تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة شقراء صلبة كلابيك يفكر فى « لوحة من لوحات روبنس ( . . . . ) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يعلن مالرو فى **قدر الانسان** فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده « ضد القدر » مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيما بعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد فى ابتداء لانهاى .

وقد وهب ذلك الفنان الكبير احسانا عميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جایتان يكون نظرتهم المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور . فهناك لون للفرقة وهو غير ذلك الذى فى الطريق الملكى . ويترك لك **قدر الانسان** ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . والامل كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموى احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفى الواقع فان ما يصدم القارى قبل كل شىء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للابصار وبين الظلال .

ومنذ المشهد الاول فى الرواية يرسم الكاتب « جسدا اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهتة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات فى ذات الفصل مصرا فى كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك الليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تتغير انارة الحجرة وتتسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « فى النور الثابت والصاحب » (١٢٤) .

( ١١٧ ) **قدر الانسان** ص ٥١ .

( ١١٨ ) **قدر الانسان** ص ١٢٥ .

( ١١٩ ) **قدر الانسان** ص ٢٠٨ .

( ١٢٠ )

Ca'etan Picon, *L'Usage de la lecture*, Mercure de France 1960.

( ١٢١ ) **قدر الانسان** ص ٩ .

( ١٢٢ ) **قدر الانسان** ص ٩ .

( ١٢٣ ) **قدر الانسان** ص ١٠ .

( ١٢٤ ) **قدر الانسان** ص ١٢ .

وثمة مناظر أخرى أكثر دلالة : « مهزوزة من قلقة كان الليل يغلى كدخان اسود هائل ملئ بالشرر » . ( ١٢٥ ) . ويقدر ما يهدأ تنفس تشين قليلا « يخمد الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » ( ١٢٦ ) . وتوسع متابعة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا نقتصر على الإشارة الى امثلة هي في نظرنا آيات على عبقرية التعارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لاول مرة من والدين مختلفي الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل القاء الضوء على مميزات هذين الاصلين اللذين يشاركان وجه البطل :

« يورجح الباب المغلق المصباح ( . . . . ) وعندما يمر المصباح فوق راس كيو يميز بوضوح فمه المشابه لما في اللوحات اليابانية . وعندما يبتعد المصباح تتغير اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك المولود وكأنه وجه اوروبي تقريبا ولما يكون تارجع المصباح في نطاق ضيق يلوح وجه كيو اقل اختلافا » . ( ١٢٧ )

تلك اللوحة اخذت الى حد انها تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الى وفرة الظلام . فاعلم المشاهد تقريبا تدور في الظلام . ونختيل وجود اشخاص اكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذي يكاد يكون ظاهرا » ( ١٢٨ ) . وجوه ظاهرة الى حد ما في الظل . ( ١٢٩ ) . « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجوه » . ( ١٣٠ ) . وخيال تشين « كان ينفصل في غموض » . ( ١٣١ ) . واذا كان زميله بصعوبة قد شاهده . ويضيف الكاتب جملة قصيرة أكثر دلالة من شرح اطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة » ( ١٣٢ )

ولقد كان المنظر دائما غير واضح كالشخصيات : منازل غير واضحة » ( ١٣٣ ) . الانوار المبهمة بملدن الضباب » . ( ١٣٤ ) . وكان الجو المليء بالضباب شبه مستمر ويتكيف تماما مع الظروف : كانت الشمس ذات اللون الاصفر والمليئة بالضباب تجعل وجوه تشين وزميليه باهتة » ( ١٣٥ ) . بعد ان فشلوا في مؤامرتهم بقتل تشانج - كاي - تشيك . وابتعد من ذلك « كائن السماء رمادية اللون وكانت تهيم هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذي

( ١٢٥ ) قدر الإنسان ص ١٢ .

( ١٢٦ ) قدر الإنسان ص ١٢ .

( ١٢٧ ) قدر الإنسان ص ١٦ .

( ١٢٨ ) قدر الإنسان ص ١٢٩ .

( ١٢٩ ) قدر الإنسان ص ١٣٢ .

( ١٣٠ ) قدر الإنسان ص ١٣٣ .

( ١٣١ ) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

( ١٣٢ ) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

( ١٣٣ ) قدر الإنسان ص ١٤٩ .

( ١٣٤ ) قدر الإنسان ص ١٩٧ .

( ١٣٥ ) قدر الإنسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لان تشين في تلك اللحظة على الاخص يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

وبعكس تلك الانارة الهائلة وغير الواضحة والحزينة دائما فان لقوة الاضاءة مؤدى معيننا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة تشانج - تونج ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن الحربية للاعداء: «كانت اضاء الكشافات تنقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقى كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي ندر ظهورها في الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار « مؤقت » لا يستمر الا قليلا .

« الشارع ملء بالشمس ( . . . ) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذي يلمع تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية : « كان جيزور يتأمل الخليج المليء بالشمس » (١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التي كانت مليئة بالضباب والظلام تنتهي على صورة مضيئة وتترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة في رواية مالرو التي تظهر وتختفي فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما . والصفارات المتزايدة وآلات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم ، كل ذلك يرن مثل صوت القدر وينفصل حتما في خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض حليا : « تنطق آلات تنبيه اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه الموجة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد في صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للرتابة والازعاج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض اكثر جلاء عندما يأتي في ذات العبارة :

« الصمت - الجماعة الصينية عادة من الاكثر بريقا - كان يعلن عن نهاية العالم » (١٤١)

( ١٣٦ ) قدر الانسان ص ١٥٦ .

( ١٣٧ ) قدر الانسان ص ٦٣ .

( ١٣٨ ) قدر الانسان ص ١٠٨ .

( ١٣٩ ) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

( ١٤٠ ) قدر الانسان ص ٩ .

( ١٤١ ) قدر الانسان ص ٧٧ .

اندرية مالرو : « قدر الانسان »

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نغمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهى ذلك الازدواج الذى يتسنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات العديدة التى توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذى يميز الموضوع يؤثر على الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للرواية . ونشير الى الملاحظات المزدوجة العديدة التى تتكرر فى صفحات الرواية . « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت ، فيما عدا الالم » . ( ١٤٤ ) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان ( كيو ) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهم » . (١٤٥) وتقول ماي وهى امام جثمان زوجها : « حياتي » ... (١٤٦) ... « كانت هناك الوحدة اولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧) ، وكاتوف « كان يشعر بانه ملقى فى وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البعث ا » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...



### خاتمة

فى ختام دراستنا عن قدر الانسان نخلص الى ان تلك الرواية ، كاعمال مالرو كلها ، « انسانية » فى اساسها . والرجل فيها الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهرى :

« ايها الكاتب ، من عبث بى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفى الواقع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن المأساة فى قدر الانسان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائي الذى احاط بمشاكل الرجل حلولا لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان - بول سارتر ويعمل على اظهار اتساق الفلسفة السارترية والتردد فى فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديلوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التى هي أصل الوجود الى العمل التحريرى ، ومن اللامعنى الى المعنى

( ١٤٢ ) قدر الانسان ص ١٦٣ .

( ١٤٣ ) قدر الانسان ص ١٥ .

( ١٤٤ ) قدر الانسان ص ٢٥٢ .

( ١٤٥ ) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

( ١٤٦ ) قدر الانسان ص ٢٦٢ .

( ١٤٧ ) قدر الانسان ص ٤٩ .

( ١٤٨ ) قدر الانسان ص ٢٥٧ .

( ١٤٩ ) قدر الانسان ص ٢٥٩ .

( ١٥٠ ) مالرو شجر الجوز فى الائتنبرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر اندرية مالرو يسلك الطريق المضاد ، - من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من العبث والوجود الى الشك فى الانسان « (١٥١) وتستطرد ج . ديوم قائلة انه لا يوجد عند مالرو « درجات للقدر » ، « ولا درجات للمواقف » . و ( لا درجات للأعمال » . (١٥٢) وعالم النسيان لجيزور صحيح ايضا كالبحت عن الاجل لتشين وكلاييك يتكافأ مع كيو ، من اجل ذلك كله فان روايات مالرو « بدون حل موضوعى او اخلاقى » (١٥٣) لأن مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودى من عدم وجود رد على سؤال مالرو العقلى الا اذا كان هو قلق الرجل الخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بأن وجه النظر الوجودى حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما اوضحنا من قبل ، لا مكان عنده للعدو ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى حلم التالىه عند كيو ، ومع ذلك فان للتمييز ملموس بين انتصار كيو ، وكاتوف ، وهيميرليتش ، وفشل تشين ، وفيرال وكلاييك ... لان الابطال الايجابيين فى الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجذب الدائم بين الانسان والقدر يدل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بيير دى بواد فر وبحق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية فى عصرنا ، ولكنه لم يقدم حولا لها . وتظل انسانيته مفعمة بالياس اذا لم يفتح نحو الحقائق الاكثر رفعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته فى الايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان فى عالم لا يقنمه اليهم ، وهم مضطرون الى ان يجنوه فى انفسهم وحتى فى « الجانب الالهى » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا نضم الى الدراسات التى تمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هوفمان ، وبيير دى بوادفر ، ونؤكد مع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود .. فان سبب ذلك رفضه وجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لا يوفق بينهما . وللمواءمة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . ويعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما ( المؤمن ) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

J. Delhomme, op. cit., p.245. ( ١٥١ )

Ibid., p.152. ( ١٥٢ )

Ibid., pp.247 et 262. ( ١٥٣ )

Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle), 1952 p.119. ( ١٥٤ )

J. Hoffmann, op. cit., pp.369, 370. ( ١٥٥ )

P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 113 - 119. ( ١٥٦ )

## من وحيّ العلوم

عبد العزيز أمين

مانصبو اليه نفسه تقريبا ، كما تأملت ماصنعه  
الانسان في البيئة من زرع وحرث وتشييد  
وتعميد وري وصيد ، ثم وجدته يستأنس  
الحيوان ويسخره لخدمته ويطوع الطبيعة  
حسب ارادته ، فرايت ان أبدأ بالكتابة عن  
علاقة الانسان بالأرض والمناخ ، ثم انتقل الى  
طريقه في كشف المعرفة ، واهدافه ، وبعد ذلك  
اشير الى العلوم وتصنيفها، والعلماء وجهودهم ،  
وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعارنهم .

### الانسان والأرض

ان الحضارة الانسانية هي ثمن التفاعل  
الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، من

أردت بهذا المقال ان استعرض تفاعل الناس  
مع الطبيعة من أجل المعرفة ، وبخاصة في  
المجالات العلمية ، فأمسكت بقلمى لادون  
مذكرات عما صادفنى في حياتى العلمية ،  
مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية في  
السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها  
بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها، وجهود  
الأفراد والجماعات ، تحت رايات القيادات  
الرشيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن في أول  
طريقنا لاستعادة أمجادنا العلمية والأدبية  
والفنية . وذهب فكرى الى ملايين السنين  
التي مرت على الأرض منذ نشأتها الأولى الى  
أن ظهر عليها الانسان العاقل ، فتأملت الطريق  
الطويل الذى سلكه الانسان حتى بلغ كل

مختلفة ألوانها تسر الناظرين ، وإن أرى عشرات الألوف من القنوات والمجاري المائية ، التي تجوس خلال الأرض ، وتملؤها حياة من نبات وحيوان .

إن الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعاً متجانساً في كوكبنا ، بل كثيراً ما توجد مناطق غنية بالموارد الطبيعية في صحراوات قفرات أو جبال وعرة أو تحت سطح مياه آسنة أو في قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الإنسان أن يكد ليحصل على هذه الموارد إذا احتاج إليها .

وعلى العلم أن يعرفنا أسرار هذه الطبيعة وقوانينها وتفاعل كل من المواد والبيئة وكيفية وسبب حدوثه إن أمكن . وإن يستخدم الإنسان العلم ليحقق الأهداف التي يرسمها كي يشبع احتياجاته . وهذا العمل هو الفن التطبيقي ( التكنولوجيا ) .

إننا لن نرضى أو نقنع أبداً بحالة العالم التي نعيشها ، بل علينا بدل أنشطة جبارة لنحدث ما يلزم من تغييرات مستمرة وتطورات صاعدة لتحسين وسائل المعيشة واساليبها .

إن السكين المعدني الذي تستعمله اليوم مثلاً لا يشبه إطلاقاً آلة القطع التي استخدمها الإنسان منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا يشبه خام الحديد الذي استخرج منه ، بل هو منحصلة عمليات وأنشطة إنسانية طويلة وخبرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال آلاف السنين .

إن الثمرة التي نأكلها اليوم الغنية بما فيها من غذاء ورائحة وطعم لا تشبه الثمرة التي كانت تنمو في البرية ، بل هي نتيجة تطورات طويلة وبحوث مضمّنة عبر التاريخ . والثوب القطني الذي نرتديه يختلف في مادته عن القطن الذي كان ينمو منذ آلاف السنين من حيث طول التيلة ، وخواص أخرى عديدة .

**يابسة وبحر وهواء وكائنات حية وأجسام مميّنة .** والإنسان يجمع خبراته بنفسه وبخزنها في ذاكرته القادرة على امتصاص ما يستقبله من حقائق ، ويعمل دائماً على تحقيق ما يريد بالدأب على العمل ، مستخدماً فكره الواعي ، ومعتمداً على الصبر والناة والأرادة والتصميم . ويعمل على تحسين أحوال الأرض حتى يعيش في بيئة أفضل دائماً . ونحن نجد في كوكبنا ، الأرض ، ما نحتاجه من مواد ، ومع ذلك فيه أيضاً الصحارى المقفرة والمناطق الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الإنسان بالرقعة المنزرعة من الأرض بل أعاد النظر في طبيعة الأرض ، فأقام المشروعات الكبرى من أجل رفاهية الناس . وبين يدي كتاب طريف بعنوان « الإنسان يصلح كوكبه » لمؤلفة السوفيتي أ.أ.باشيف . وقد ترجمته إلى العربية دار التقدم بموسكو . ذكر في مقدمته إشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم في شتى الأوقات نحو الناس من أجل خيرهم . وكرس الكتاب موضوعه للمشاريع الرائعة التي تبدو أسطورية ، والتي يتوقع المؤلف أن يتم تنفيذها بجد العلماء والمهندسين ، مثل إنشاء نفق تحت بحر قزوين لرى الصحارى بواسطة مياه جبال الثلج العائم ، وتحويل الأنهار الكبرى في سيبيريا ، وتدفئة تلك الصحراء الجليدية الشاسعة في الاسكا وكندا ، وسيبيريا الشرقية ، ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفئة الأماكن الباردة بالدفع الطبيعي الكائن في أعماق البحار . أنها مشاريع واقعية تستند إلى العلم والتكنولوجيا .

يدعى قدماء الكيميائيين أنهم حضروا مادة زجاجية سحرية أبان القرون الوسطى يرى المرء من خلالها العالم كله في آن واحد . وليت هذه المادة حقيقية وموجودة الآن لأرى الأرض كلها وما عليها ، أو ليتنى أستطيع ركوب متن الفضاء لأرى روعة الأرض وغناها وتنوع غاباتها وأحراشها وما بها من بحيرات عذبة ، وسط الحقول الخضراء أو الذهبية أو المتلألئة بأزاهير



اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين في المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كي تخدمه وتشبع حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان بملايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا ، وتزن خمسين طنا ، وكان منها ما تحلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالغابات ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتملا المكان بالدفاء ، ثم تختفى وتبيت البيات الشتوى عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد ، وتقلب المناخ ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وتفوقت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة ( هومويوترم ) .

ان درجة حرارة جسم الانسان ( ٣٧° مئوية ) هي المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التي تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحرارى بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية ( بين درجتى ٣٥° و ٣٨° مئوية ) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالى ٢٥° مئوية . وكان هذا سبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجزيرة العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما عرف النار . وبنى البيوت وعرف الكساء ونظم حياته وكشف عيشه ، واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فنمت معارفه ، وتراكت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالمعادن والفحم ثم البترول ،

خشى الانسان القديم اخطار العواصف والرمود والبرق والامطار والتعرض للجوع والقحط والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتى من عقل فآمن بربه ، ودأب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنبا الى جنب في تلازم عبر التاريخ .

### الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا عن تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية . ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهي تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب ارادتنا ونطوعها لخدمتها . والارض والكواكب الثمانية الاخرى وتوابعها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتقترب الارض تارة من الشمس ، وتبتعد عنها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويتغير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمى بالمناخ ، يتحدد بالموقع الجغرافى للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . وتؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التى تحمل الدفاء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر ان بعدا او قريبا ، وبالارتفاع عن مستواه . وتؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة لحياة الناس . وهنا يأتى دور العلم ليعمل بان يغير طبيعة الغطاء السطحى للارض . . انك قد تندهش اذا علمت ان الماء يعكس خمسة في المائة فقط من اشعة الشمس بينما يعكس الثلج خمسة وثمانين في المائة منها ، ويمتص الرمل سبعين في المائة من

شانهم انفسهم . وهذه القوة الدافعة هي التي تجعلهم يستمرون في عملهم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لا يلدقون طعم الراحة حتى تستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصمدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراعاتهم الجديدة او نظرياتهم الجديدة .

**ان العالم يسير في طريق التغيير المصاحب لما نستخدمه من مواد وطرق وآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعطينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغيير ، وان نتقبل ما يثبت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فنراه يتمسك بأهذاب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يآلفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهور في مناوراتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .**

وقد عرفنا من العلماء المشاركة ابا بكر الرازي الطبيب الكيميائي ، وعالم البصريات الحسن بن الهيثم ، وواضع علم الجبر الخوارزمي ، ثم جابر بن حيان صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب جاليليو ونيوتن ورذفورد ومدام كوري واينشتاين وآلاف غيرهم من الافذاذ . ويزخر التاريخ بالمعاناة والصبر والصمود والنصر . وأخيرا تقدير الناس لأعمالهم في حياتهم وأحيانا يأتي الاعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان لفوازيية الذي قطعت مقصلة الثورة الفرنسية رأسه اقام له الفرنسيون تمثالا تخليدا لذكراه واعترافا بفضلته في وضع اساس الكيمياء الحديثة . ويوسف بريستلي القس الانجليزى الذى كشف الاكسجين وصاحب الفضل في كشف اكاسيد النتروجين لم ينجح في الافلات من الاعداء . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن عشر ميدانا لجهاد كيميائيين

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التي ظلت متأخرة طوال سبى التدخل الخارجى قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن اروع امثله هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التي حولت ارادتها ارضها الصحراوية الى جنان ومنشآت عمرانية ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوعى واخلاص وايمان . ونأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

### طريق العلم وهدفه

فكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم واثراء ثروته الروحية ورفاهيته ليشعر انه قام بدوره الحضارى ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفه تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يملأ صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشير الى ما يجب ان يتصف به الذى يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفحة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختران ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الارادة القوية الصامدة ، والقدرة الفائقة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يدرك اهدافه .

ان صمود « توماس اديسون » المخترع الامريكى في عمله وهو يخترع المصباح المتوهج لمن اروع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يعثر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع

ولا يدفعهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين - اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة - وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع في العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية ، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحياة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميول والرغبات الحقيقية .

واستطيع ايضا ان اوضح طريق رسم السبيل لحياة علمية منذ دخول التلميذ بالمدرسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة في الصف الاول منها ، فانه يجد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول ، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة ، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه يشعر بالرغبة في المعرفة ايا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربية ، ووثائق وسفن الفضاء ، وعتاد حربي . والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعي تختص به جماعة من الناس تعمل في المختبرات ويرتدون المعاطف البيضاء ، وقد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصرهم من كثرة القراءة والبحث ، ويهملون حياتهم الاسرية عادة او ينسون الحياة الاجتماعية . ان هؤلاء في الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا في خيال بعض مخرجي الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية ، لها معناها واسلوبها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن في غمرة الآلات والصمامات والاسلاك والعدسات ، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلالات نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك في العصر الحديث .

يعملون بالبوقة والميزان والانبيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيمائية عامة .

والاشتغال بالعلوم يعنى التكريس له والتعرض للعناء والالام احيانا . ولكن الامل يتحقق بعد ذلك . ومن منا يجهل فضل عالم مثل لويس باستير كاشف الميكروب الذي بدا حياته العلمية مدرسا ، وتقلب في المناصب العلمية حتى ارفعها ، وكذلك بيير كوري وزوجته مدام كوري فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم لقوازييه فقد كشف نظرية الاحتراق وهدم النظرية القديمة المعروفة باسم الفلوجستون . ومن منا لم يسمع او يعرف فضل العالم الروسي مندليف الذي رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدوري لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالمتاعب والالام والظلم والاضطهاد احيانا ولكننا نأسف الان لما قاسوه في حياتهم ، ونعترف بأفضالهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة في التكنيك العصري ، فينشط الناس لنقدتها والتشكك فيها والتوجس من نتائجها ، لكن الحق ينتصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذي يكلف صاحب النظرية الجديدة او الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصاره فكره ، ومع ذلك لا يبني العالم من وراء كشفه العلمي جاها ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعده ارضاء الناس .

وقد يتخبط الشاب اذا سئل عما يرغب ان يكون في المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم تحديد اهدافهم بشيء من الدقة . والطالب الذي لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح في الامتحان ، وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التي يدمى البعض انها سريعة التطاير من العقل كما تتطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة في دراسة هذه المادة او تلك ،

وكذلك قد يكون مهتما بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع آخر فيقضى على هذا الاهتمام . ان المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء امثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر في العلماء وتبعدهم ولو مؤقتا عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة او فكرا معين بل هو معنى واسع . اما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمي (Scientist) التي اخترعها الانسان حديثا .

وقد لا يقنع العلماء بما يعرفون، بل يعتبرون انفسهم اذ اذا قادرين على الاتيان بالعجيب من المعرفة او الاختراع ، مثل كشف الالكترون والرادار واشعة الليزر واختراع اجهزة القياس الراديوي المستخدمة في علم الفلك الحديث ، او اجهزة العلاج باشعة جاما التي تنبعث من الراديوم ، فالعلماء يغيرون احوال الناس واساليب حياتهم كما تتغير احوال الناس بتأثير الادب او السياسة او الرياضة . ان العلم والادب يقومان بتظيف طريق الحياة من ادران الماضي ويفسحونه للسير في موكب التقدم في حياتنا العصرية الفياضة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون من كل جديد ولا يؤمنون به الا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الادب ان يستمتع بقراءة العلم ايضا ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من ارقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، او قد لا يحاول فهمها، ظنا منها انها غير ميسورة الفهم .

وهذا يجعلني اعود بذاكرتي الى ايام الصبا عندما كنت واترابي نتردد على مكتبة البلدية باحدى مدن الاقاليم ، فكنت اقرا بغير هدف في كتب تتعلق بمقررات الدراسة اولا ففى الجغرافيا وفى التاريخ ، ولكنى وجدت نفسى لا اعرف الا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيا بالصف الرابع الابتدائي يشرح درسا عن الهند ، فدفعنى الفضول الى

اننا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابكة من المعارف ونحولها الى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تأثرت لغة العصر بالعلوم الحديثة ونقرأ عناوين الصحف وبها مصطلحات لم نعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت » او « اشعة الليزر » او « الطائرة الالكترونية » او « الحياة على المريخ » . ويجب ان يعرف المشتغل بالعلوم شيئا عن تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبنى عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدفعك الى انماء معلوماتك في نوع معين من العلوم . وقيم التاريخ العلمى جسدا يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادى بوحدة العلم والادب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر عن وظيفة الشعور ، ولكن تكمل احدهما الاخرى ، كذلك الادب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون الى مفكرين وشعراء مثلا . وصمم العلم فيما مضى بالبعد عن الروحانية وقاومه رجال الدين ، واعتبر في القرن التاسع عشر عيبا ، فترفع عن تحصيله اهل الادب كي يحتلوا مكانة رفيعة في المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والادب في عقول الشباب في القرن الماضي . ولكن العقول الناضجة تستطيع استيعاب العلم او الادب على السواء . فالعوامل التي يتميز بها الشخص اللامع عن الخايبى هي نفس عوامل الذكاء في المهتم بالعلوم الانسانية او المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس اعمالهم ينقسمون الى اهل علم واهل ادب . ويظن البعض انهم لا يطبقون فهم الموضوعات الرياضية او الميكانيكية او لا يدركون معاني الاشياء العددية ، والواقع ان كل حافل يستطيع استيعاب هذه الامور اذا امعن الفكر ودرب العقل ، مثلما يستطيع استيعاب الموضوعات الادبية او الانسانية . وقد تجد الفرد مهتما بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم او مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

النرويجيين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك وانواعا من المفرعات كالديناميت الذى يستخدم فى نسف الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كشف أدت الى ظهور مواد جديدة نافعة ، فأساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها فى المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذى تمكنه رؤية الآفاق البعيدة فى مجال بحثه ويعرف الارتباطات والعلاقات بين الظواهر .

وتشيد البحوث العلمية طبقات عليا من صرح العلم ، فيزداد سعوا . وتمكننا الحقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطات متعددة بين الظواهر فتكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف فى القرن الماضى ان اليورانيوم معدن قليل الفائدة ثقيل الوزن ، ولم ترد كثيرا عن ذلك ولكنى تبينت بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثم كشف الالكترون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكونات نواة الذرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم من أهم دعائم العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة فى علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائى للمواد . وكشف احد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائى الى طائفتين : مواد تزداد توصيلاتها الكهربائية كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيلاتها الكهربائية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبين اختلاف كبير فى نمط البناء الوضعى للالكترونات فى ذرات كل من الطائفتين ، فالمعلومات تتراكم ، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربائية ببناء الذرة .

ويمكننا ان نجد مثلا آخر من القوانين العامة التى تحكم المجتمع الانسانى ، او قوانين تطور الحيوانات فى العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

استعارة كتاب عن حياة الهنود ، كما جمعت بعض الصور من الهندوعن اشياء اخرى لا تتعلق بالمنهج الدراسى . ولما كنت بالمدسة الثانوية استهوتنى الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا ، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات فولعت بالتقليد ، وفكرت فى اصل هذه المواد ، وقرأت عن الفيلسوف الذى فكر لأول مرة فى بنية المادة وروضع فكرة الذرة ، كما استهوتنى موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتمثيل الشمسى وصناعة الصابون المنزلى ، ثم تحول اهتمامى الى موضوعات . بعيدة البعد كله عن المقررات المدرسية .

قرأت عن جاليليو وعن نيوتن وبيكن ، وكانت لى جماعة من الاصدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار . وامتزجت مشاربنا وتفاعلت افكارنا وتركزت فى بعض الافكار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يعيد الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة ، وانهما فى الواقع مقترنان - ولعله قرأ هذا الراى فى كتاب - وكان ثالث يرى اننا نهذى عندما نتحدث بفائدة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التى يشبع بها جوعه ، ان العالم يسأل ويطلب اجابة شافية على اسئلته . كان احد زملائي الاكبر منى سنا كثير التساؤل . وكان يسألنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابداع اشياء تنفعنا . واجابه احدنا بقوله ان العلم يميظ اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبدأ يستشهد بكشف تكوين الماء من عنصرى الاكسجين والهيدروجين ، وكشف الهواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازى خمسه اكسجين واربعة اخماسه نيتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم فى الكيمياء خواص النيتروجين ، كما كشف خواص الاكسجين ، وعرفت اكاسيد

الالياف الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا في الاقتصاد العالمى بدل الصوف الطبيعى وغيره من الالياف الطبيعية ، كالقطن والكتان والحريز أيضا . فالإنسان يعيش في دنيا الموارد ويبدل قسارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية بأخرى تخليقية ، ويطوعها وفق ارادته وحاجاته . ان العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لايجاد الحلول لمشاكل الانسان . واذا تساءلنا عن كيفية سلوك الاشياء مسلكا معينا ، كذلك اذا سألنا عن النظام الوضعى للاحداث في عالم الاشياء والترابط بينها ، وعن ترتيب الكون المحيط بنا فان العلوم الطبيعية لديها الاجابة على هذه الاسئلة وهدفها النهائى معرفة أسرار الطبيعة وفهمها .

وليس تقسيم العلوم الى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا ، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات، والكيميائيون الذين يدرسون تحطيم الروابط الكيميائية بين الذرات وعلماء الاحياء الذين يستخدمون الميكروسكوب الالكترونى لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للاوليات كلهم يجتهدون في ميدان كبير واحد هو العلم . اما الفيزيائي الذى يضع التصميم لمفاعل نووى، والكيميائي الذى يحسن خصائص انواع اللدائن ، وعالم الوراثة الذى يعمل لتحسين سلالة من الابقار ، وافرقة الادوار للحليب ، فهؤلاء ينتمون الى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيون. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث اذابة الفواصل المتعقدة بين ابواب العلوم التطبيقية ، واصبحت التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق ، وتبدأ من نفس الاوليات النظرية العامة .

### بين العلم البحت والتطبيقات

واعود الى عهد الصبا عندما كنت اشعر برغبة في دراسة العلوم ، ولكنى لم احدد الفرع الدقيق الذى افضل التخصص فيه . وبدأت أفكر في نوعين من الدوافع . بدأت بالسلبية

الا ببذل الجهد وأجراء البحوث ، اذكر اننا كنا نتجاذب اطراف الحديث ، وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والعامل بأحد مصانع الحديد والصلب ، وكان اليوم هيدا ، وتطرق الحديث الى العلم والادب والزراعة والطب . وسأل احدا عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة . وسأل اخر اهذا النوع من العمل يدخل في نطاق العلم ام الفن ؟ فرد عليه المهندس انه ينطوى على كشف حقائق علمية، وان تحسين جودة انتاج الصلب تدخل في نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقى . اننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المشتغلين بالعلوم : عالم او مشتغل بالعلوم . فاذا وصفنا الشخص بأنه عالم او بأنه مشتغل بالعلوم فان هذا لا يعنى أكثر من ان لديه كمية من العلم يستخدمها في البحث العلمى او الكشف عن المجهول . وتنقسم الانشطة العلمية الى ثلاثة اقسام : ( ١ ) العلوم التطبيقية ( ٢ ) العلوم الانسانية ( ٣ ) العلوم الطبيعية .

ويهدف اى بحث في العلوم التطبيقية الى غاية عملية . فابتداع طريقة جديدة للتصنيع او مواد جديدة او وسائل أكثر سرعة في تصنيع المنتجات او اوفر راحة او اسهل في النقل او فريدة لخصوبة التربة او تخلق ادوية جديدة، كل هذه امثلة من أعمال علمية تطبيقية . ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب كلها علوم تطبيقية .

اما اتجاهات البحوث في العلوم الطبيعية فواضحة ، وتقودها متطلباتنا او متطلبات الطبيعة . فانا نجد ان الاحتياطي من الطاقة اخذ في التناقص ويهددنا بالتفاد، وهذا ما يدفع الناس الى التطلع لايجاد موارد جديدة للطاقة . وفعلنا تظهر الآن بوادر الطاقة النووية . وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم ، تزايد احتياجنا للصوف وأصبح لا يكتفى بمتطلباتنا ، فعمل العلماء بجهد واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت

القليل جدا من الذرات المنشطرة ( جزء من مائة ألف من الليجرام ) في السنوات الأولى من بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء في الماضي قاصرا على المصباح التوهج ، الذي اخترعه اديسون ، والتلغراف والجرس والتليفون والقبلة الزمنية ، اما اليوم فقد امتدت أيدي العلوم التطبيقية الى الكهرباء ، وفتحت آفاقا جديدة في هذا العلم .

ان السير مع تاريخ العلوم واخبار العلماء ليعين روائع التراث في التطور الحضارى . ويكفي أن أذكر أسماء علماء مثل كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو ونيوتن ثم هرشل واينشتاين وهم من أعظم رواد أسرار الكون . فقد كوبرنيكوس نظرية العالم الإغريق بطليموس عن الأرض التي ظن أنها مركز العالم . بعد أن ثبتت في الأذهان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير الى أن الشمس هي التي في مركز المجموعة الشمسية ، والأرض أحد الكواكب التي تدور حول هذا المركز . وجاء « كبلر » فحدد شكل أفلاك الكواكب . ورصد جاليليو الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادئ الأولى للبحث العلمي . وجاء إسحاق نيوتن فأذهلنا بقوانين الحركة التي كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . اما هرشل فبين أن المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشمس . ووضع اينشتاين النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلائع الفكر الحديث من القرن الخامس عشر الى العشرين . وعاش في نفس الزمن علماء آخرون اهتموا بفروع أخرى من العلم ، فمثلا تجد في الكيمياء تريفيان وبواراسيلسوس وقد عاشا في القرن الخامس عشر ، وتبعهم يشتر الذي عاش في القرن السابع عشر ، وكانوا رواد الكيمياء القديمة في أوروبا التي تبحث في صناعة الذهب واكسير الحياة الدواء الشافي لجميع الامراض . وكان القس الانجليزى بريستلى كاشف الاكسيجين اول رواد الكيمياء الحديثة

التي تفصيني عن فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص في التكنولوجيا قد انهارت امامى منذ البداية ، فلم تكن بلادى قد بلغت مركزا ملحوظا في العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر الى أوروبا . وكنت اشعر بميل الى البحث الجاد عن المعرفة ، واستخدم التحليل المنطقي للمشاكل التي تصادفني . واستهوتني دراسة العلوم وأنا بالمدرسة الثانوية متأثرا باستاذ معين ، وتخصصت في الكيمياء ، وتحولت الى التطبيق العلمى عندما التحقت بهيئة التدريب بكلية الهندسة ، فاتجهت في بحوثى الى استنباط طرق جديدة وسهلة لتحليل المعادن ومخاليط الاملاح والسبائك ، ولما اتيت الى فرص السفر الى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب . وانى لا ازال اذكر أحد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمى ، وكان أحد تلاميذه يبحث اشباه الموصلات الكهربائية فتوصل الى كشف ادى الى وضع خطة لاجراء تجارب تلزمها اجهزة غالية . وكان الاستاذ يشكو من اقتناع المسؤولين بأهمية هذا البحث فلم يوافقوا على تزويده بالمال اللازم . واذكر ايضا من تاريخ العلوم ان أحد الباحثين اراد قبيل الحرب العالمية الثانية أن يجرى بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام اجهزة ومعدات غالية فلم يحظ بموافقة المسؤولين على تمويله . وقالوا ان النتائج قد لا تساوى المبالغ الباهظة المطلوبة . ونعلم الآن ما يجرى في الدول المتقدمة المسماة « النادى النووى » من بحوث في الذرة والطاقة النووية من أجل السلام ، ومن أجل التسابق في احراز اسلحة نووية حديثة .

ان العلم البحث يخدم ايضا الصناعة والتكنولوجيا كما يخدم الدفاع الوطنى . والبحوث البحتة تقودنا الى البحوث التطبيقية . ان القرن الالاف الذى ينتج الحديد الزهر بمعدل نصف مليون طن في العام ، يتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى « سيكاوترون » والذي يبلغ نفس حجم القرن العالى ، ومع ذلك فلا يتجاوز انتاجه الا

التأثير الكهرومغناطيسى سنة ١٨٣١ ، ووضع ايضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر اهمية هذه الانتصارات العلمية الا بعد ما اخترعت الآلات الكهربائية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فراداي لقوانينه . وكذلك كشفت الاشعة السينية واثبت « هان وشتراسمان » امكانية اقتحام نواة الذرة لما لاحظا ان النيوترونات البطيئة تشطر نويات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الافكار خامدة حتى تحقق التفجير النووي ، بعد سنوات عديدة ، في ايطاليا بمعرفة « انريكو فرمي وليزمايتر » .

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتراكمت في مجالات العلوم البحتة اولا ، ثم وجدت هذه الاشياء التي ظلت مجهولة عيونا بصيرة وعقولا واعية لماحة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجحالة العميق ، ونظفتها من الادران وهذبتها ثم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها في خدمة المجتمع بالتطبيق العلمى .

#### مع التطبيق من الجديد والصلب الى الثرة :

يدفعنا الفضول الى البحث لفهم اسرار الطبيعة، ونحن نكشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها في التنبؤ بالاحداث المقبلة . وتتقدم العلوم في كل فروعها في طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، تكافح الجهل وتوسع التقدم الحضارى ، وتفيض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وثروة وذخيرة ودعامة قوية تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحصى الدبار ، وتعزز وتكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للانفاق على العلم والبحث النظرى والتطبيقات .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمى ، وتتصل الثروات

وعاصره لفوازيه الفرنسى كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى راس قائمتهم جون دالتن صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدي برزيليوس واضع الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التى كانت في شكل رسوم غير مفهومة . قضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة مثلما قضى لفوازيه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون » . وظهر في القرن التاسع عشر افوجاندر صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الفلزات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، ثم اعقبه « فوهرل » ، اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائى الروسى مندليف الملقب بـ « نبي الكيمياء » لانه وضع النظام الدورى لترتيب العناصر وواضع جدول مندليف . وفسر « ارهينيوس » مسلك المحاليل الموصلة للتيان الكهربائى بالنظرية التى وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضى الانتصارات العلمية الكبرى ببزوغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديووم والنشاط الاشعاعى ، بفضل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدى « بيير كورى ومدام كورى ثم هنرى بيكول ثم كشف الالكترون في انجلترا على ايدى مدرسة طومسون ورذرفورد ، ثم موصلي ولنجميور ، وكلهم من بناء العلوم النووية . ويظهر من بعدهم في القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة ، والانشطار النووى ، ومن بينهم « لورانس » صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التى تحاصر نواة الذرة وتلك حصنها المنيع ، ثم اينشتاين وماكس بلانك اصحاب النظريات الجديدة في النسبية والكم .

والمعتاد ان تظهر اهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزى ميشل فراداي واضع قانون



( السبائك ) ودرسوا تأثير الشوائب وتغيرها للأشكال البلورية وأضعافها الروابط بين الذرات . فهذه الشوائب وجد أنها تنتشر في بلورة الاشابة عندما يتعرض للاجهادات ، وأن البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثر فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . أن العلم والتكنولوجيا قد تعاونوا في نشر مصورات بيانية لانتشار أماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد أماكن العيوب ومشاهدته انتشارها في البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحوث لإيجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلب . والمعروف أن الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحولها إلى صلب شديد الصلابة . كما وجد أن ذرات الكربون صغيرة الحجم تمنع ما يسمى التشويه الموضعي في بلورة الصلب . وأن هذه خاصية لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربوني ، بل تشمل أيضا عناصر أخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها في صناعة الصلب .

انتشرت هذه الأفكار العلمية والتجارب العلمية وانتقلت من المعامل إلى بيوت علم الفلزات ( الميتالورجى ) وإلى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . أن الفكرة العلمية تنتقل إلى التطبيق العملي في مدة تتراوح بين سنة وعشرات السنين حسب الظروف .

**ومن الدوافع القوية للبحث العلمي البحث ،** وحدة الحرية والحاجة الموجهة . وهذا يتضح في قصة الطاقة النووية التي بدأت ببحث علمي نظري منذ عهد الاغريق لما ذكر ديموقريطس أن المادة تتكون من دقائق صغيرة لا تقبل التجزئة سماها ذرات Atoms . فهو واضح البنية الاولى للنظرية الذرية ، ثم تبعه علماء كثيرون إلى أن جاء دالتون ثم ذرفورد . وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الإلكترون ، ثم عرفت أسرار النواة ومكوناتها ، فانتقل البحث العلمي الحرائى

التكنولوجية بالكشف العلمى . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عالية قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بزمان طويل ، فإن بناء الأهرام القدماء ، وصانعى الزجاج ، وصاهرى المعادن ، ومن شقوا عباب البحر في سفن من البردى ، ومن جابوا الفيافي دون مساهمة من العلم البحث ، كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية في شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض أن صناعة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمد على القوانين الطبيعية عندما كانتا في مهدهما . ويقولون أيضا أن « جيمس وات » المخترع الانجليزى لم يكن يعرف قوانين الديناميكا الحرارية ، بل اعتمدت هذه البحوث والاختراعات الحديثة أحيانا على التجربة في المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدام التحليل الكيميائي لها ، أو دراسة قوانين . وقد سائر أهل الصناعة الاحتياجات والمشاكل التى دفعتهم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلك ، لما تدخلت العلوم في الصناعة تحققت مكاسب مادية كثيرة ، وتغلغل أفكار العلميين في التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يبق شيء من العلم دون استغلال . فقد تطور التطبيق العلمى في السنوات الأخيرة بمعدلات كبيرة .

ولم يسر تقدم صناعة الحديد والصلب بهذه المعدلات المدهلة إلا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، بعدما احتاج الإنسان إلى صلب قاس ، فابتكر عملية إنتاج الصلب القاسى ، واستمرت محاولات الاختصاصيين من المهندسين والكيميائيين والفيزيائيين لا نقاص وزن الصلب وانقاص وزن الانشاءات والاقبال من نسب الشوائب الضارة والمدمرة لخواص الصلب الجيد . اننا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاص عشرة أو عشرين فى المائة من اجراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكر العلماء النظريون أفكارا جديدة عن صلابة الاشابات

الكتيب، وقاس نشاطها الاشعاعى ورقة ورقة، ووجد ضالته المنشودة . وجد معه صديقة « ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة مجهولة ، وكانت بالورقة الاولى ، تختلف تماما عن كل ما توقعاه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم يعرف اطلاقا في الطبيعة وسمى « نبتونيوم » وهو عنصر ابتدع ابتداء ، فكان اول عنصر صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم في جدول مندليف . ثم انتج العنصر التالى وسمى « بلوتونيوم » الذى كشفه سيبورج سنة ١٩٤٠ وكان معه فريق من الزملاء اوثروال وجوزيف كيندى وماكميلان ، عندما قدفوا هدفا من اليورانيوم بالنيوترونات في سيكلون . وكان وزن مانتج من البلوتونيوم في هذه التجربة الاولى من الضالة بحيث لم يتجاوز الجزيئين من ملين جزء من الجرام . ولا يمكن ان يرى بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . فكيف يستطيعون وزنها واذا ثبتها وخطها ، وهى في نقطة من سائل ؟ ان هذه المشكلة تطبيقية تولدت من الاصل العلمى البحث من اجل تحقيق هدف هو البحث عن اسرار الطبيعة .

وشهد العلماء القرائح بحثا عن امكان تخليق عناصر اخرى اقل من البلوتونيوم يصنعها الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية المستحدثة، فابتكر بريس كنجهام ولوين فونر طرق دراسة كيمياء البلوتونيوم، فصنعا أجهزة وأدوات لمعالجة ومناولة الكميات الضئيلة جدا من المواد ، التى يقل وزنها عن واحد من مائة مليون من الجرام . وصنعا انايب شعيرة ، تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت هذه الاكتشاف والمبتكرات الى ظهور علم الكيمياء الدقيقة Microchemistry وقد استفيد منها في علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية والكيمياء التحليلية الدقيقة وبحوث الهرمونات وبحوث الوراثة ومعرفه خواص المبيدات الحشرية وتأثيرها في الخلية الحية ، وارتباط هذه التفاعلات بمرض السرطان .

البحث من اجل استخدام الطاقة النووية في اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات المتحدة ، والنصر بعد القاء قنبلة هيروشيما الذرية ، وما تبعها على نجازاكي اتجهت بحوث الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت المدفعية الذرية . وكانت جماعة انريكو فومى تبحث في روما امكان شطر نواة الذرة ، واستخدموا في سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الغاز المشع المسمى « رادون » وهو يشبه الراديوم في كونه يشع جسيمات ألفية ( نواة الهليوم ) موجبة الشحنة . أطلق جماعة فرمى قذائف مدفعهم النووى على مسحوق فلزخفيف هو البريليوم - الذى يشبه نوعا ما الالومنيوم - فكانت القذائف تصيب نواة البريليوم بمعدل ضعيف للغاية بلغ الواحد في المائة الف ، وعندئذ تتحد القذيفة بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج منه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت الجماعة تعرف حقا أن الذرة تحتوى النواة في الوسط وأن أغلبها الساحق فراغ ( ٩٩٩ ٩٩٩ و ٩٩ في المائة من حجمها ) وتركز مادة الذرة في نواتها . ومن ثم فكثافة النواة قيمة أسطورية ( ٢٤٠ x ١٢١٠ جراما للسنتيمتر المكعب ) . وكان نواة الذرة حصن منيع يكاد يستحيل اقتحامه . ولكن فرمى ورفاقه اقتحموه وشطروا النواة . وقامت بحوث عديدة في الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « ادون ماكملان » سنة ١٩٤٠ في بركلى بكاليفورنيا قياس المسافة بين أجزاء الانشطار النووى لليورانيوم ، فأخذ كتيبا من ورق لف لفائف التبغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني اكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الاولى وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كى تكون حائلا يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب وغطاه اليورانيوم في هدف السيكلوترون ( معجل السرعة للجسيمات ) معرضا الهدف لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل اوراق

### علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل في مجال علمي او في البحث العلمي قليلا عن عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سوف يعمل في الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبحث به الى ورشة مركز البحوث لتنفيذ بناءه ، ويقتضي العمل في البحث العلمي بعض التغيير من ان الى آخر . ورئيس العمل هو الذي يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نوعه . ففي الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديو سبكتروسكوبية . ويحصل الباحث على نتائج قياسات ويوقعها بالرسم البياني في خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوحى بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة .

والبحث يحتاج الى اموال . وعلى مدير المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربية الاجيال ، التي تستطيع الاشراف على الاعمال الفنية والادارية ، وعليه ايضا المحافظة على استتباب النظام في خط موحد متناسق من حيث الاقسام والافراد بالوحدة الواحدة ، وكذلك حسن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالمنشآت المعنية والمتصلة بالمركز . ويجب ان يعلم الباحثون ان الوحدات الصغرى ليست دويلات مستقلة ، بل اجزاء او اعضاء في جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومي . وقد يكون عدد افراد الفريق في الوحدة صغيرا او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدات البحوث الاخرى .

وتتميز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير في هذا التخصص

وقد ادى هذا التطور العلمي الواسع المدى الى اختراع الميزان فوق الدقيق للكميات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الذي ابتكره الاستاذ المصرى المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه فى ايرلنده ، ثم فى الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق ( Ultramicro — balance ) الذى يزن مركبات البلوتونيوم بدقة بلغت  $10^{-8}$  من الجرام . ونشر بحثه وطريقة صنع ميزانه فى المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب اوربا تروخ تحت سيطرة الفاشية فى سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والنازية تستعد لغزو انجلترا ، وكانت غواصات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادى ، كان اليوانيوم يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية فى سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج بأقصى طاقة . وكان فى الولايات المتحدة فريق من علماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد انقضى على عملهم امان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضا . واقام مصنع فى هانفورد بواشنطن لفصل البلوتونيوم على اساس انتاجى كبير اعتمادا على البحوث الاصلية التى اجريت على المستوى فوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التى مرت بها البشرية مثلا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر فى نتائج كارثة هيروشيما ، ونحد من استخدام الاسلحة النووية او نمنع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقصره على اغراض السلام .



وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع في الخطة العامة من أولويات . ولا يستطيع رئيس العمل أو رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذي يستطيع تقدير انتاجه الشهري والسنوي في الميزانية التقديرية التي يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب ان نحدد ما يعتزم القيام به من القياسات وما نحتاجه من الاجهزة والمعدات وما نود اجراءه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما عزمنا القيام به ، فالبحث قد تتراكم به اعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز أو كثافة سائل أو نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالأشعة السينية أو لرسم طيف خطي لمادة ، أو لاجراء عملية حساسية . ولكن من الصعب ان نقدر عدد الاسابيع التي قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . ان البحث الاصيل دائم التغير والتطور، اما البحث الذي يعتمد على اعمال نمطية فليس بحثا . ولا معنى للبحث العلمي الا اذا كان يكشف سرا غامضا من اسرار الطبيعة . والعمل التجريبي الناجح هو ما يستخدم فيه اقل ما يمكن من الاجهزة ويظهر اعظم ما يمكن من النتائج. والبحث الذي يبدو لنا لاول وهلة بسيطا وسهلا قد يتحول اثناء التجريب الى درجة عالية التعقيد. وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بفاية البساطة والسهولة . انك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت اذهان كثير من العلماء حتى حلها اينشتاين بالمعادلة البسيطة : ( ط = ك × س ) .

( الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء )

### القراءة والبحوث :

يقول كثيرون انه يجب على الباحث تتبع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذي يبحثه . ولكن يخالف

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . اما اذا استمر العمل بها دون ما تمايز واضح لمدة عشر سنوات فان هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن ان توصم بعدم استحقاق تسميتها وحدة في مركز بحوث كبير، بل يمكن ان تحول الى خدمة بعض الاغراض الجانبية او المساعدات لوحدة اخرى، وبذلك تبسط وحدة اخرى سلطانها عليها وتستغلها.

وبدیهى ان قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط العريضة التي يسير بمقتضاها الباحثون في دراساتهم . وهو الذي يحدد اساليبهم بالمعاونة مع لجنة او جماعة صغيرة العدد من الباحثين القدماء بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذي يجرى بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب ان تختلف وحدات البحث في خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب ان تختلف ايضا في اساليبها وفي اتجاهاتها نحو التجارب العملية . فقد تركز معامل جهودها في انشاء اجهزة معقدة التركيب وابتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معامل اخرى شراء الاجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الاجهزة ، وتفسير النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذه الاجهزة . وقد تختص معامل اخرى بمعالجة مشاكل واسعة الشعب ، فيلزمها مختلف انواع الاجهزة والمعدات ، بينما تركز معامل اخرى الجهد في بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل أسلوب الخطة والمتابعة في البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المزاج الشخصي لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمي العام ومدى تأثيره بالتقدم في العلوم المتصلة بمجال بحوثه ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية في البلاد ابان الفترة الزمنية التي تجرى فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسما في وضع الخطط ، اما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم،

بيكن « اقرأ ، لا لتعارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر » .

وكذلك اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بان معرفة اللغات الاجنبية ضرورية للباحث في العلوم . وعالم الكيمياء اعتقد ان معرفته الانجليزية والالمانية من اهم الضروريات . ولكن اعرف من العلماء « فيلهلم او ستفالد » الالماني الذي كان يؤمن بضرورة الاحجام عن دراسة اللغة الاجنبية لكنه كان يقصد اللاتينية لا اللغات الحديثة . اما « هربرت سبنسر » الفيلسوف الانجليزى المادى فكان يعتقد ان تعلم اللغات يزيد احترامنا للمرجع ويعوق نمو ملكة الحكم المستقل . واؤكد ان البحث فى العصر الحديث يستلزم اتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل .

واعتقد ان من الطرق الحسنة فى البحث التدرج فى مراحل معينة مبتدئا بالقراءة فى المراجع عن ما كتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقين بنظرية فاحصة ناقدة ، يليها خطوة جمع حقائق ميدانية - اذا كانت الدراسة ميدانية - او حقائق فى الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبيعية . وبعد ذلك تاتى مرحلة اجراء التجارب الاولى واختبارات الفروض اختبارا عمليا ، وبعدما نحصل على معلومات نعمل على تنظيمها وترتيبها وايجاد علاقات بينها ، ثم نربط هذه العلاقات ببعضها ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والاجابة الذكية بواسطة الفكر والفروض والاثبات الفرض بالتجريب المخطط ، ثم اختيار اكثر الفروض رجاحة .

#### هل نعلم على الصدفة فى البحث ؟

يتعرض الباحث لعوامل نفسية كثيرة فهو يلاحظ ويفكر ويفرض فروضا معينة ويحاول اثباتها بالتجربة . وهو يتصور ويستخدم خياله المبدع فيصمم ويضع النظريات ، ثم يستنبط منها قوانين عامة . وهو يتأثر بدوافع نفسية كالفضول . وكثيرا ما يعتمد على

بعض العلماء هذا الراى . ويقولون ان كثرة الاطلاع امر غير حكيم وان قراءة اعمال السابقين تضيق زاوية رؤية الباحث فى مجال ما ذكر فى اعمالهم فلا يفتق الدهن من ( شطحات ) جديدة ، ولا تظهر طفرات علمية اصيلة . ويحبذ آخرون القراءة الكثيرة فى المجالات العلمية العامة المتعلقة ببحث المبتدىء . والغريب ان كثيرا من مشاهير العلماء والمخترعين لم يدرسوا دراسة نظامية فى نوع تخصصهم الدقيق ومع ذلك احرزوا انتصارات رفيعة القدر . ومن امثال هؤلاء « لويس باستير » الذى اثبت خطأ نظرية التولد الذاتى واجرى تجارب التخمر الكحولى ، وكشف التعقيم المسمى « البسترة » وحل مشكلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض كوليرا الدواجن ، وكشف التعقيم ضد الجمرة وداء الكلب . وهو مع ذلك كيميائى لم يدرس البكتريولوجيا ولا الطب . ويقول « بسمان » مكتشف طريقة لانتاج الصلب رخيص التكلفة ما نصه « كانت لى ميزة كبيرة على الآخرين ممن عاجوا هذه المشكلة - اذ لم تتحكم فى فكرى افكار ثابتة مستمدة من خبرات معينة ومقروءة منذ زمن طويل ، بل لم اتعرض لفرض تلك المعتقدات السائدة بان ليس فى الامكان ابداع مما كان » .

وكان كلود برنار مؤسس الطب التجريبي يعتقد ان ما نعرفه هو الذى يعوقنا وليس ما نجهله . ويقول « بيرون » لاكون مبتكرا حقا يجب ان اكثر التفكير واقرأ قليلا . ولكن هذا مستحيل اذ يجب ان يقرأ الانسان قبل ان يتعلم التفكير . اما برنارد شو فيقول : « القراءة تعطى العقل » .

ليست هذه الآراء قوانين عامة ، لان القراءة من ضروريات التعليم وزيادة الحصيلة العلمية . وهى التى نعرفنا اساليب السابقين . وعلينا التأمل فى اعمالهم ونقددها وعدم التمسك بالنظريات والافكار القديمة . يقول « فرنسيس

معلوماته في علم تخصصه، وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة في بحثه .

ان تاريخ العلوم حافل ببحوث لعبت الصدفة فيها ادوارا هامة . وسأذكر بعض الامثلة على اثر الصدفة في تسيير دفة بحوث هامة .

توقف باستير اياما عن البحث في كوليرا الدواجن لما قام باجازة، ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التي كان يربيهها قد اصبحت بالمعقم . وحاول انعاشها ولو جزئيا بحساء ، ثم حقنها في دواجن . ولشد ما ادهشة عدم تأثير الدواجن بالحقن بالميكروب . وكاد يهمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة في ذهنه ، نفذها على الفور . لقح الدواجن ذاتها بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وادت هذه المصادفة الى كشف «**التحصين بالتلقيح**» بجراثيم بعد استضعافها .

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل ما يلاحظه . وليس الأمر مجرد حفظ ، كما قد نتوهم ، فالحظ ا والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر في مجرى الاحداث ، بل الحظ كلمة اخترعها الانسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وادراك الانحرافات عن المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدناه من انحراف هي اسرار العقول الناضجة التي تستفيد من الاحداث العارضة . وقد تدهشك ملاحظات بسيطة ادت الى كشف مشهورة ، والذي من يظهر مغزى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى ويستخدمه في استخلاص معلومات جديدة . ان الصدفة نادرة الحدوث . ولا يجب أن نعتد عليها وحدها في البحث ، فهي لاتواتينا بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا ان نعمل بجد ومثابرة ، والا نقصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نمطية وأدوات تقليدية ، بل علينا أن نبتكر الطرق الجديدة والاجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

### حساسية الملاحظة :

وكثيرا ما يحتاج الباحث الى ملاحظة الاحداث الفريدة بما أوتى من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة ويقظة وتنبيه لكل ما يحيط به من اشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسير الاحداث وادراك اهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة أيضا . لم يكن «**وليم هارفي**» اول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا «**ادوارد جرنار**» اول من طعم بلقاح جذرى البشر ليحصن الناس من مرض الجدرى . ولم يكن **دارون اول** من وضع فكرة التطور . ولا **كولومبوس اول** اوروبي رحل الى العالم الجديد . ولم يكن باستير اول من وضع نظرية الجرثومة للأمراض ، بل كلهم مطورون لأفكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الاقناع والايمان بصحتها في وقت أحجم الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . ودافع هؤلاء عن نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدافعوا عن الافكار الاصلية فخطواها النسيان ، كما طواهم .

وكان «**كريستيان جرام**» الطبيب الدانمركي، يستخدم صبغة بنفسجية يعقبها معالجة باليود ، لكي يصبغ نوى خلايا تبطن قنوات دقيقة في الكلية وتلونها باللون البنفسجي ، اما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بني . ووجد جرام أن الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض أنواع من البكتريا تحتفظ بلون أزرق قائم ، بسبب تفاعل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن في حساب أحد ، لأنها كانت تتفاعل مع مادة توجد في أنواع معينة من البكتريا دون الأخرى . وكان ذلك بمحض الصدفة ، فاستنبط صبغة للبكتريا وكشف أيضا اختبارا بسيطا عظيم الفائدة يعرفنا أنواع البكتريا . وعلى أساس هذا الكشف صنف البكتريا الى بكتيريا جرامية ايجابية Gram Positive وأخرى جرامية سلبية Gram Negative ولعبت الصدفة ادوارا أخرى في كشف رونتجن للأشعة السينية ، وكشف فليمنج عقار البنسلين المضاد الحيوى .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما أو حرا طليقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعلا أو عديم الفعالية . فالمرء الذي يفكر ولا ينقد فكرته عندما تطرا على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع في النقد والحكم ويتعرض للخطأ . وينتاب المفكر أثناء نقد فكرته بعض الشك ، ولذلك يجب أن يمعن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل المفكر الحكم بعدما يفقد الصبر . والقلق النفسى هو الذى يتتابنا ونحن نشعر بالشك في الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا الى التمحيص والاستقصاء . فكلما أمعنا الفكر ازداد احتمال وضوح علاقات جديدة ، تربط نواحي متعددة في موضوعات البحث فتظهر الافكار المتكررة ، وبخاصة اذا كانت حصيلتنا وخبرائنا وافرة ، وذكرائنا متنوعة .

ان التفكير الواعى الوجه هام في البحث العلمى . وهذا ماينادى به الفيلسوف الامريكى « جون ديوى » . ولكن من الفلاسفة امثال هاردنج ( صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق ) ( سنة ١٨٩٨ - ١٩٦١ ) أن كل المفكرين الاخلاقين حالون . وقالت عن الاستغراق في الاجلام انه يمكن الارادة من تركيز الدهن سلبيا على الموضوع بحيث يتابع تعاقب الافكار عند ظهورها ولا يوقفها الا عندما تكون غير مشمرة ، وتتفرع عادة على سجيتها حتى تتمخض عن بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الالماني ماكس بلانك ان الخطة الخيالية التى يحاول المرء بناء النظام عليها لاتنفك ان تنهار ، وعندئذ يتحتم عليه تجربة غيرها . وبمثل هذا التصور والايمان بالنجاح نصل الى ما لاغنى عنه . اما العقل وحده فلا مكان له هنا .

اما « جيمس كلارك ماكسويل » صاحب نظرية المجال المغناطيسى فكان من عاداته رسم صور

وتتمثل الارادة الذهنية في البحث العلمى في الفرض الذى يضعه الباحث ، لانه يفتح أبواب التجارب التى تقودنا الى كل جديد من مشاهدات تزيح الستار عن المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . ويجب علينا عدم الافراط بالتعلق باهداف الفرض رغم ما يناقضه من مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشاهدات تفسيراً غير مقنع حتى تتمشى مع الفرض . ويجب علينا الا نحكم على النتائج احكاما غير موضوعية ، بل أن نعدل الفرض ليتلاءم مع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولة اثبات الفرض الجديد أو المعدل أو المتطور . ويجب علينا التزام الحياد في البحث والابتعاد عن أى تعصب فكرى أو تمسك بافكار ونظريات القدماء مهما بلغ شأنهم ورسوخهم في العلم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحماية فرضه من النقد والهجوم ، لأن ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه في أخطاء في التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قد يعرضه لاختفاء في المشاهدة . ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطئ أو الباطل ، والا نفسر المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كي يطابق التفسير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفة . فهذه الافكار عرقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المعادن على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الاربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسير الحياة وحجر الفلاسفة .

### التفكير العلمى :

اننا عندما نفكر تفكيرا واعيا ندرك أولا وجود صعوبة أو مشكلة فتشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا الى محاولة حلها . وهكذا ينشط العقل ، ويمحص فكرة تنبثق في الدهن لحلها . وقد يقبل العقل هذه الفكرة أو يرفضها . ويعاود الكرة بافتراض أو اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل الى حل سليم للمشكلة .

ويعتاج الدهن الى استمرار تنبيهه كي يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين عن المعرفة ، وقد يكون ذلك عن تبادل الراى . وقد تمتزج الآراء والافكار والمعلومات فتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص . لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش ميوب العيوب والاطفاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويحررنا من التفكير المقيد . ويمودنا النقد المخلص البناء والثقة والاحترام بين الزملاء .

#### خطة البحث :

كان احد الاساتذة يستعد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمساته الاخيرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فأخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب توضح كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية فى بلورة جامد ما . وكانت هذه البلورات تأخذ فى الانحلال . وكان على الطالب أن يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقي طالب البحث بمفرده مع قياساته . ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البياني للناتج التى حصل عليها طالب البحث . وراعه أنه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاهها يخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايد اولاً ثم تناقصه ، وكان البلورات تعاد العملية الجزيئية اولاً ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرت اضافة هامة فى فيزياء الجزيئات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لا تثبت على حال بل تتعرض دائماً للتعديل والتغيير . وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها اصالتها ووزنها فى العلم . والمعجب ان تطلب الهيئات الادارية فى بعض

ذهنية لحل المشاكل . وبنفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزيء البنزين من صورة ذهنية لثمايين وجد أن احدها يمسك ذيله بغمه . ومنها ابتكر الفكرة أن جزيء البنزين على شكل حلقة . فدارت صورة الثمبان فى مخيلته . ولما استيقظ من استغرافه ومضت فكرة الشكل البنائى لجزيء البنزين وميض البرق ، ولا يوجد غير الحدس الذى يساعد الشعور بوجود نظام ما وراء الظواهر . ان انتقال نيوتن من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاخيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية ، وكذلك وضع دالتن النظرية الذرية دون تجريب ، بل بالخيال المبسوع . وكان خيال السير همفردى ديفى غزيراً مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصاب الخيال فرادى فى اعماله الفلسفية . فالخيال يحفزنا للمزيد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما تظهره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والافكار فى حد ذاتها لا حياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر أن تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطراً على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم نخضعه لقيود ونظام . فهو دائماً فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الانكبح جماح الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وظلمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميضاً خافتاً لمعلومات غير واضحة المعالم ، فاذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدينا من خبرات نستزيد وضوحاً ، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالاً تخيب الآمال .

ويدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يندفعون دوماً نحو البحث عن الكيف . ويستثمرون فى بحوثهم منتقلين من نصر الى نصر أعلى شأنًا ، مفسحين مجال الرؤية فتنتفتح اذهانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .



الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التي تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثلاً اتساعاً هائلاً وتعميقاً في بحوث الالكترونيات وفي فيزياء الجسيمات الأولية في السنوات الأخيرة . ونجد ان البحوث ليست من أجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل أصبحت تهدف الى غايات محددة . فبحوث كيمياء الجزيئات العملاقة لم تكن لتبلغ الشأن العظيم الذي حظيت به ، اذا لم تهدف الى غاية معينة هي تخليق اللدائن ، التي تستخدم كبدايل لمواد تقليدية ، مثل المعادن والالياف الصناعية . فقد زاد الاهتمام باللدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث في بنية الجزيئات العملاقة وعملية التكثيف الجزيئي والبلورة . ويمكن العلماء من الاجابة على أسئلة واستفسارات هامة عن بنية اللدائن وخواصها والقوانين التي تحكم تخليقها وبناءها .

ويرغب الباحث في اشعار المجتمع بأهميته ونفعه لغيره . وان يحس باسهامه في حل مشاكل البلاد واخيراً وليس آخراً المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء في معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

### الانتماء للعلم :

يتأثر الباحث بكفرة معينة تشده الى العلم وتحفزه للعمل والبحث الدقيق، ليسهم اسهاماً كبيراً في تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علماء الفيزياء النووية والكيمياء النووية مثلاً قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريق البحث في علوم اخرى عديدة خلقت علوم البيولوجيا النووية وكشفت أسرار العمليات الحيوية في اجسام الحيوان والنبات .

وقلما يرغب الباحث في العلوم الطبيعية التحول منها الى العلوم التطبيقية، فهو كالفنان أو كالشاعر اذا طالبت به بان يسلك مسلكاً لا يناسب

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحرير استمارات نمطية تمهيدا لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل أن يتكهن بها رئيس الوحدة ، مثل عدد الصفحات المزمع طبعها ، أو عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، أو عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا امر مستحيل حتى لو كان البحث نظرياً . فقد يقوم العالم بعمل نظري وهو في بيته أو بمكتبه ، ولا شأن للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمي دراسي ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرها عن الابحاث الرئيسية التي تظهر فعلاً ، وتقبل نشر مقالات لا تتجاوز صفحاتها عدداً معيناً وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين من الجهد البدني والعقلي . وكم من بحث متوسط القيمة لا يساوي قراءته ! وكم من رسالة ضخمة يتصفحها الاستاذ فقط ولا يقرأها بعناية لأنها لا تستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلمية بالايجاز في كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بإيجاز واضح . حتى لاتضيع المعلومات الجديدة الهامة في زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث في المعاهد وفي الكليات العملية تحت اشراف اساتذة لديهم الحرية العلمية في اختيار الموضوع ، ولو أن الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطالب البحث .

والواقع ان الفرض الرئيسي من بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج، والتدريب على التفكير العلمي . وعلى الاستاذ القيادة والتوجيه والمعاونة والتدريب والمساعدة في وضع خطة عامة للمعهد أو الكلية . ويتأثر المخططون بمتطلبات العصر وهم يفكرون في اختيار موضوع بحث للمبتدئين . وتأثر حرية الاختيار بمؤثرات نفسية ومادية تحت

متحدثين وإلى ضيوف من مختلف البلدان في حلقات البحث عندما يقرأون تقارير عن النتائج التي قام باستنتاجها الرملاء . ويتوقع المتحدث نقداً ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد أو النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة إلى الامام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم أكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التعرض لهجوم أو تهكم ، أو أن يوصف بحثه بعدم الأهمية أو التفاهة ، فإنه يعتز بقدرته ويملاه الرضا والاعتزاز بالنفس فيستمر في عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

ونحن ، المستمعين ، ندون ملاحظات عن كل جديد مما نسمعه في هذه اللقاءات فتنعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحى إلينا باحتمالات جديدة في التطبيق العلمي . والحق أنني أشفق على الباحث المبتدىء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث ، ويتابع كل ما نشر أولا بأول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضي يتابعون المنشور عن موضوعات بحوثهم بسهولة في المراجع العالمية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويقات من وقتهم كل شهر للقراءة في أمهات المجلات العلمية ، وفي تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . إن تلك الأيام قد ولت . والآن اتسعت مجالات البحث وتعددت المجلات العلمية . وقد أصبح عدد الباحثين أو العلميين الآن يقدر بالملايين في العالم . وسوف يزدادون إلى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وتدوّن جيوش العلماء نتائج أعمالهم في مجلات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين الفا . وليست صناعة نشر العلم متركزة ، بل تعالج المجلات المختلفة نفس الموضوعات أحيانا في مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات في أكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع أكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن أن ينشر مقال بعنوان : « دراسات عن طيف

ميوه رفض بكل إباء . ولمهنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تسرى في جسده صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة في الكشف عن المجهول تملأ صاحبها رضاء وانشراحا .

إن حب المشرفين على البحوث العلمية قد يدفعهم إلى اللجوء للتمويل عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالأموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون إلى جانب البحوث الصناعية إيجاد الفرص المتاحة لاقتناء أحسن المعدات والأجهزة والحصول على كل المساعدات التي تمكنهم من السير في بحوثهم بالعلوم الأساسية أيضا .

### الاتصالات العلمية :

ولابد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الأفكار ، وهذا الاتصال يغذى البحث وينمي التفكير المنظم ويقوى النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لمختلف خلايا الجسم الحي في كيان العلم . أما الباحث المنفرد أو الذي يعمل مع أفراد قليلي العدد فلا تتسع أفكاره ، وعليه الاتصال بأخريين من المهتمين بالعلوم . ويتأثر الباحث الذي يعمل منفردا بخط فكري واحد ، قد يستر مجال رؤيته للأشياء الهامة يستار كثيف من الجمود الفكري فيسلك دروبا تضلله ، وتبعده عن بلوغ أي نتيجة مرجوة ، أو قد توصله إلى شيء سبق أن كشف وكأنه يلور في بحثه في حلقة مفرغة أو يسير في طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمي بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو أن هذا لا يغنينا عن الاتصال الشخصي ، فالمرجع لا ينشر إلا المحاولات الناجحة في البحوث والكشوف الجديدة . ونستمع عبادة إلى

وتقبل المجلات المتخصصة في بلاد غير ناطقة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلع العلماء الى استخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعون ان المستقبل سوف يجعلك تضغط على زر ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني في ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التي يدخرها عن موضوع سؤالك ، ويكتب على آلة كتابة كل ما تريده من اسماء المقالات والمؤلفين واسماء المجلات وأرقام الصفحات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التي يهتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها . وتقوم هيئات علمية بالأعداد والتنسيق لأعمال المؤتمرات ، وتحدد مواعيد وأماكن انعقادها ، وتشكل لجنة للنظام لتقرر المكان والزمان وترسل الدعوات للمختصين من الأفراد والحكومات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للأبحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلم . ويفضل ان يكون المؤتمر في مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح ، ويسعد الاعضاء بلقاء زملاء لهم من مختلف دول العالم ويناقشونهم بقضايا الاجتماعات وبلقاءات غير رسمية خارج الردهات أو بالحديقة المجاورة ، أو أثناء الرحلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالمتاحف ، والمنشآت الكبرى . ويكتفى اغلب الاعضاء بقراءة التقارير العامة ويفضلون الجلوس في الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول أعمال وبحرية كاملة عن موضوعات المؤتمر وعن غيرها من الاتجاهات الفكرية

الاشعة تحت الحمراء لبورات الهيموجلوبين» . ان مقالا بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد أو الفيزياء النظرية أو التجريبية أو علم البصريات أو الاطيفاف أو التصوير البلوري أو الكيمياء العضوية أو الحيوية أو الفيزياء الحيوية . ليس هذا كثيرا ؟ وكيف نستطيع متابعة مثل هذا الموضوع في مختلف المجلات وفي مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هو اللجوء الى قراءة الملخصات في مجلات مختصة بذلك ، فتد لنا على الموضوع والمؤلف ومكان النشر وتاريخه . وتصدر هذه المجلات دوريا وبها آلاف العناوين والخلاصات . وعلى الباحث ان يدون ما يترأى له من أسماء الموضوعات والمؤلفين وأماكن النشر ، اذا كانت تهمه ، كي يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتعقد أحيانا حلقات للمناقشة العلمية - كل شهر أو كل ثلاثة شهور - فيما ينشر من بحوث خلال الفترة . وتساعد هذه المناقشات الباحثين في أعمالهم وتعودهم على تقاليد المناقشة وأدائها . وتوجههم الى طريقة تلخيص أعمال الغير ، وتدريبهم على الكتابة العلمية . والمحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للحرج أو الارتباك لأنه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وافكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب عن حلقة المناقشة .

وتزداد متابعة البحوث المنشورة صعوبة من عام الى آخر بسبب التقدم السريع في العلوم . ومن الصعب متابعة كل البحوث بسختائج اللغات ، ومن ثم يهتم اغلب الباحثين بنشر بحوثهم الاصلية باللغة الانجليزية لكثرة انتشارها بين رجال العلم في العصر الحديث .

المعاصرة ، ويتبادلون الآراء والافكار والنقد . وبعد مودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهاني بالاعیاد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

### الوالدان والتوجيه العلمي

نعرف كلنا علم الوراثة الذى وضع قانونه الاول جريجورى مندل . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحدثون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوراثة الجزيئي . اى انه علم يبحث فى التركيب الجزيئي لحامض النووى ومشتقاته الكيميائية، ومن بينها الحامض النووى الدياكسى ريبوزى المسمى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية ( د ن ا ) DNA ، والحامض النووى الريبوزى المسمى بالحروف ر ن ا ( RNA ) فقد تعمقت بحوث كيمياء نواة الخلية الحية ، حتى تناولت سر شفرة الوراثة، وتتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكروسكوب الالكترونى وغيره من اجهزة سوف تبتكر ، فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرأ بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ، ونستنتج ما سوف يشب عليه ابناؤنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتدريب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرب حيوانا على السير على رجله الخلفيتين فقط ، او ان تدرب لاعب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او

طبيعة لاعب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يميل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلىنا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، ونسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الانكباب على الكتب . ان هذا رأى سطحي ، فالقراءة لا تعنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطبق الوحدة ، بل دائم الاختلاط بأقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية تنم عن ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة فى طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتأمل ، فاذا احب هذا الطفل التأمل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيح الفرصة له ليستمتع باللعب الرياضية والاشتراك فى المباريات واللهو البرىء الى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كأن يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فعالم الجيل القادم يجب ان يكون حر التفكير ، محبا لمعرفة حقائق الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل عن اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انماها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . واذا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابة صحيحة فانه سيبحث عن الاجابة

اتجاهه العلمى سوف تؤدي ، ولا ريب ، الى بلوغ الغاية والوصول الى مكانة مرموقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذى يبدأ متوسط القدرة ، ثم يكرس الجهد ويصمد سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالابداع العلمى اكبر مئات المرات من مساهمته الفعلية فى العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى فى ولدهم ، فيجب ان يكون مجباً للتفكير المنطقى الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لا تظهران بجلاء أثناء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمى للفتى والفتاة مامون بالعواقب اذا نشأ الفتى في اسرة اكاديمية وكان اصداؤه من اوساط تقارب وسطه، واهواؤهم ومشاربهم متشابهة . ان العصر الحديث يطمش الى الاستزادة من دراسة العلوم ، والى الشباب الراغب فى الدراسات العليا، ومستقبل هؤلاء تحدده الجامعات ومراكز البحوث . والمهم فى تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثل والعمل ، فالمحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأتى المعلم بعد البيت فى العلوم الطبيعية ومعرفته رغباتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها فى المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومشاربته .



ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الآلام والامال والطموح . وقد يعمل باحث فى نفس الموضوع الذى تعمل أنت فيه ويحصل على نتائج اكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او فى كتاب ، فاذا لم يجد الكتاب المناسب ، فانه يبدأ التأمل وتصور اجابة يفترضها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص ويطرق من ابتكاره . ان التأمل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالماً .

وبعد التأكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالماً ، ياتى دور التعرف على المجال العلمى الذى يناسبه . وقد لانجد اختباراً يمكن ان يجرى لتعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضياً او فيزيائياً او كيميائياً او مؤرخاً ؟ ان اختيار مهنة التخصص تجيء عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفة . فاذا كان الشاب يهتم باقدار الناس والعلاقات الانسانية او بمركز الانسان فى المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخالطين له فى المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استعداده لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يركبه للسير فى اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص فى العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان فى مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدرة متوسطه، ولكنه شديد الرغبة فى دراسة العلوم . والواجب فى هذه الحالة عدم مقاومة رغبته ، بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لنحببه للعلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متأخرة قليلاً حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده فى

المعرفة في طفول معاصر . فانك تجد بين فلاسفة اليونان، أرسطو وديموقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح في فلسفة ديموقريطس يقارب في روحه فكرنا المعاصر . لكن لارسطو انموذجا آخر في الفكر ، كانت الثقة في المعنى الداخلي للكلمات التي يقوم على اساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء أرسطو لاتتجاوز في نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال افكار ديموقريطس ، الى حد ما ، عن بناء المادة وكأنها عرض جديد لاساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم أرسطو غير مرتبة ، واستخدمت المنطق والبرهان في العلوم الدينية التي ظلت متمسكة بالمدى القومى - الذى وضعه الايطالى توماس اكونياس - ممثلا اساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . واحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه في مجالات لامت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في اوربا وحول الفكر من الامور الدينية الى دنيوية تتعلق بالانسان وسميت الدراسات الفكرية « بالانسانيات » وانطلقت روح البحث في القرن الثالث عشر واصطدمت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد المعركة رويدا رويدا محمولا على اجنحة الفكر المستنير الى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الافكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم القليلة التي لم تهمل ابان عهد الظلم والظلام ، وربما كان هذا بسبب حاجة رجال الكنيسة الى علم الفلك في التقويم وتحديد مواعيد الاعياد ، او لاعتقادهم في رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطُبعت ، وترجم برباخ Purbach كتب بطليموس في سنة

ان تقوم انت بنشر ابحاثك . وهذا يضيع قيمة عملك وجهدك . وهذا مايعانيه كثيرون ممن يتكاثرون في النشر ، اما لتشككهم في اعمالهم اكثر مما ينبغي او لعدم قدرتهم على صياغة نتائج اعمالهم في شكل قابل للنشر . ان هذا الضياع الذى يشعر به من فاتته فرصة النشر يصيب صاحبه بالحسرة ، لكن الصامد هو الذى يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى ينجح في كشف جديد . وعندئذ لايمكن وصف مايناله من السرور والانشرح والرضاء عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات احدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير الى قدرته العلمية ، وكأنه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى ادى الى هذه النتائج المنشورة . ومع ذلك ، قد لا يشعر به زملاؤه ، بل وقد لايقدره جهده ، وربما لايلاحظون ما نشر اطلاقا ... وتمر سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالمراجع العلمية . ثم تتكاثر الاشادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقرأون اعماله ، ويستفيدون منها ، والانسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث باسهامه في تقوية جبهة العلم وبالسعادة كل السعادة التى تغمر كل مشاعره .

• • •

### مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجنين عن مبدأ استعادة جنين انسان تاريخ تطوره Recapitulation عبر ملايين السنين موضعا التطور من نقطة. فعلاقة ، الى أن يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي أن أحاول فاقارن تطور الفكر منذ أيام الاغريق القدماء إلى عصرنا الحديث بتطور

العصر الحديث ، التي تعتمد على مشاهدة الظواهر وتفسيرها بوصفها أولا . واهمل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة او ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل عن كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست في تفسير الحركة ، بل في وصفها . وكان يبدأ بالملاحظة ثم يستنتج منها التعميم او البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانوا يبدأون من عموميات مفترضة . وكان يعتبر الملاحظة العملية الاساس لكسب المعرفة ، وقال الا قيام لتعميم الا بتكرار الفحص للاحداث ، واعادة فحص النتائج بتجارب اخرى من انواع جديدة . وان التعميم لن يكتمل الا اذا صلح في كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فان ذلك يستدعي تعديل الاستنتاج . فالشك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت اعداد التجارب من الكثرة .

وقد اصبح مبدأ عدم التاكيد (Uncertainty) حجر الزاوية في الفلسفة الحديثة ، التي لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل ان تنتهي الصدق يخلو من المعنى ، اذ لا توجد ثمة طريقة تجري المشاهدات فيها باعداد كافية لبلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح في منتهاه .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم - الفلسفة الطبيعية الجديدة - على الملاحظة والاستنتاج فهي في الواقع فلسفة ، وتمنح الجامعات درجة الدكتوراة في الفلسفة في مختلف العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك والاحياء . ويتسم هذا العصر ببدا التعاون والاتصال بين العلماء . ولم يكن التعاون واضحا في فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندي كوبرنيكوس من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه في المريخ من التقلب الكبير في حالات اشراقه باوقات مختلفة . ولم يانس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكي الذي يقول ان الارض مركز الكون ، وان الشمس والكواكب تدور حولها . واحس بعدم توافق قول فيثاغوراس وارسترخس مع ملاحظته شخصيا فزعم ان الشمس هي التي في مركز الكون وليست الارض ، وان الكواكب ومن بينها الارض تدور حول الشمس . اهل الناس نفس هذا الزعم ، الذي زعمه فيثاغوراس وارسترخس من قبل ، لانهم كانوا متمسكين بآراء بطليموس حتى جاء كوبرنيكوس وايد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضي ان تكون الارض موطن البشر ومركز الكون وان تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشى المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان اسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، فرفع كتابه الى البابا . وكتب في مقدمته . . « ارفع بحثي هذا في موضوع اقدمه الى قداسكم ثم الى اعلام الرياضيين ليحكموا عليه . . . »

وتزعزت بديهيات افلاطون في القرن التاسع عشر على اثر تحديث علماء الرياضة كما اثرت اعمالهم في الفكر العلمي عندما ابتكروا « هندسة لا اقليدية » مفترضين فروضا جديدة . فاصبحت العلوم الحديثة تصدر العالم بشكل عقلاني . وثار جاليليو ثورته ( سنة ١٥٦٤ - ١٦٤٢ ) على الفلسفة القديمة . واسبس علم الفيزياء الجديد على اساس التجريب . ولكنه لم يتم يقينا بتجارب عملية ، الا انه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التي نستخدمها في

تلك القرون على التضليل احيانا في كتاباتهم في الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم باسرارها.

وظهرت جماعات وجمعيات علمية في القرن السابع عشر في اوربا واهمها (الجمعية الملكية) بلندن التى بدأت بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التى اقام جاليليو اساسها وكان اعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم في اول الامر ، حتى ظهر الفيلسوف الانجليزى السير اسحق نيوتن ( سنة ١٦٤٢ - ١٧٢٧ ) وابدع اعمالا اصيلة غيرت مفاهيم الناس وثبتت وعيهم العلمى . فقد اعلن قوانين الحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية . فاخذ الناس بمبدأ الاعتماد على التجربة والملاحظة والتحليل . ونبذوا اثبات النظريات بالجدال والنقاش المعتمد على الالفاظ ، وتطورت العلوم التجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الاعوام حتى اصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيق الذى فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية في حساب حركة الكواكب ومواعيد ظهورها وامكانها . وكان في مقدمة هذه البحوث حسابات « اربان ليغريه » .

وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت واتفقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب فى مواعييدها المحسوبة بالدقة الا **يورانوس** الذى لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد ايضا عن قوانين نيوتن . واعتقد ان هذا الحيود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة في تلك القوانين ، بعد ان اكدتها التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من اسرارها .

وفكر **لغريه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسير في فلك ابعد من **يورانوس** ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب في الحساب .

وربما كانت من الصغر بحيث لا تؤثر في الكواكب الابد من **يورانوس** ، واعتبر انه يقع الى جوار **يورانوس** ، ويؤخر وصوله في الميعاد . واذا صح هذا الغرض لنشأت مشكلة عكسية ، ولا يمكن حساب بُعد **يورانيوس** عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو ينحرف نحو اليسار عند نقط بعينها ، ونحو اليمين عن نقط اخرى . وحسب **ليغريه** مسار الكوكب المزعوم . وعين وقت ظهوره ، ومكانه في السماء . وفعل كشاف في الزمان والمكان المحددين - في سبتمبر سنة ١٨٤٦ وانضم نبتون الى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من انصع صفحات التنبؤ العلمى بالمستقبل . واثرت هذه الواقعة في نفوس العلماء في جيل **ليغريه** . وكان طبيعى اجراء بعض التعديل في قوانين الحركة التى وضعها نيوتن ، واعتقدوا بوجود ظواهر خفية فى مجالات اخرى من الفيزياء كالبصريات تحتاج من يميظ عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين ان علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن اى جديد .

ووضع الفيلسوف الفرنسى **ديكارت** مفهوم « الاثير » الذى يقول ان الطبيعة لا تحتوى اى فراغ بل يتغلغل الاثير في كل شيء وينتشر بكل الارحاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود انواع معينة من الاثير . يختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربى وآخر ضوئى . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان **نيوتن** و**ديكارت** وجاء معهم **روبرت بويل** ( سنة ١٦٢٧ - ١٦٩١ ) المعروف بقانونه المشهور الذى يعالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . وعالج



حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير همفري ديفي (سنة ١٧٧٨) الذي صار استاذ الكيمياء بالمعهد الملكي بلندن في مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفي في اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة أسرته . وتعلم الصيدلة والجراحة لدى صيدلاني عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرأ كتاب «اصول الكيمياء» الذي وضعه لفوازييه . وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والضوء والاشتعال والاكسجين والخواص المخدرة لأكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء واثبت ان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية ، فهو كاشف البوتاسيوم بالتحليل الكهربائي ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترانشيوم والباريوم والكالسيوم والمغنسيوم . واثبت ان الكلور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الاكسجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فرايداي في اسالة الغازات ، وكان فرايداي ( سنة ١٧٩١ - ١٨٦٧ ) ابنا لحداد متنقل وعاش في فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التي حلت بانجلترا . ولم يتعلم بالمدرسة بل كان يقضى اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعي الكتب ، وتوصيل الصحف للمشاركين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوربوا بعدما الحق بالمعهد البريطاني معاونا وامينا للسير همفري ديفي . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفي في رحلة الى اوربوا ( سنة ١٨١٣ - ١٨١٥ ) وعرف علماء كثيرين واطلع على ابحاثهم في الكهرباء مثل

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه « الكيمياء المتشكك » The Sceptical Chymist اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التي كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتي حكمت الفكر في اوربوا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ثيوفراطوس التي انشأها هذا العالم القديم في القرن السادس عشر وهو المسمى باسم الشهرة « براسلسوس » . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر في القرن الثامن عشر القس الانجليزى يوسف بريستلى ( سنة ١٧٣٣ - ١٨٠٤ ) كما ظهر العالم الفرنسى لفوازييه ( سنة ١٧٤٣ - ١٧٩٤ ) قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط أحداث جسام . دافع بريستلى عن الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتاب الذين عارضوه في انجلترا فاقتحم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها . وهو العالم البقري مكتشف الاكسجين واکاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة في كيمياء الغازات . وكاشف ماء الصودا ومحضر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما لفوازييه فقد عاش في باريس بين الجماهير الهائجة . وكان يجرى تجارب بالوزن والقياس والملاحظة والاستنتاج فكشف نظرية الاحتراق وهدم نظرية الفلوجستون . فر بريستلى من انجلترا ، اما لفوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقعوا به ، وحوكم محاكمة سريعة واطاحت المقصلة برأسه ، وكان اعدامه من افزع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لفوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ في العلم روحا جديدة . وما كاد ينتهى القرن الثامن عشر

تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة عن ما سمي « كمات الاشعاع » Radiation Quanta التي اصبحت اساس الفيزياء الحديثة ، وحتى اللورد كلفن الفيزيائي الانجليزي الموهوب شبه علم الفيزياء بعمارة كاملة بديعة . وقال ان سماء الفيزياء لم يبق بها سوى غيوم قليلة ستنتشع سريعا وتترك السماء صافية في القرن العشرين .

وكانت غيوم سماء الفيزياء في زعمهم ثبات سرعة الضوء وهي حقيقة كشفتها بالتجربة مايكلسون Michelson ثم ظهرت النظرية النسبية من بين حجب الغيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الاشعاع وطول موجته ، وهي نظرية تنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر في اتجاهه صاعدا ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الاشعاع الى ان تصل في النهاية الى ما سمي « الكارثة فوق البنفسجية » . ولكن الرسم البياني العملي دل على خط منحنى ذي سنام ، فبعد بلوغ طاقة الاشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تأخذ في التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهي العلم الذي ينسب الى واضعه العالم الالماني ماكس بلانك الذي نصح بالا يتخصص في الفيزياء .

ان هذا درس من تاريخ العلوم يحذرنا من التعرض الى الثقة الكاملة في العلم المعروف عندما يدعى انه بلغ الكمال ومنتهى الصحة . ويجدر بنا ان نراى ما ظهر في القرن الحالى .

#### الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية التي شيدها العلم في القرن التاسع عشر طويلا ، بل تداعت عندما اعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

الفرنسى امبير والانجليزى ولستون فدرس الكهرباء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » وعلن نظريته من المجال الكهرومغناطيسى معتمدا على اساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير في اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلا خاصا اذا حركة دوامية ، او مائعا ساكنا تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضروري افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التي قام بها كلاوزيوس Clausius وبولتزمان Boltzman وجيبس Gibbs موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجمعات كبيرة من الجزيئات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن في ذلك الوقت ثمة امل في دراسة العالم الدقيق للجسام التي لا يراها الميكروسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات في راي القدماء من صميم الفلسفة . او من ابحاث الميتافيزياء ، وانها خارجة عن مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التي نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة من قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التي تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضى الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحا اياه بعدم التخصص في الفيزياء ، لان كل شيء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على

تسبب تعاقب الليل والنهار. وكشفت التجربة أن سرعة الضوء في الحالتين واحدة. وصعب هذه النتيجة مسلك الأثير وهو عديم اللون - فيما يفترضون - والذي قيل أنه ينشر الضوء. وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكيلسون باستخدام فيزياء القرن الماضي دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفردة إلى مرتبة مبدأ أو مفهوم أساسي، يتقبله الناس كحقيقة واقعة. وبجمع البديهيتين معا يتكون مبدأ النسبية.

والجميل أن ما يصدق على سرعة الضوء يصدق أيضا على مظاهر مختلفة للكهرودمغناطيسية. وقد أعلن اينشتاين بناء على هذا التطور الذي جده في الفيزياء ألا وجود لتجربة فيزيائية تستطيع أن تميز مجموعة عن أي مجموعة أخرى من المجموعات اللانهائية العدد التي تتحرك بانتظام وعلى استقامة واحدة. فكل هذه المجموعات متساوية تماما.

وهنا قد نتساءل « إلى ماذا تقودنا هاتان البديهيتان ؟ » ربما يدرس طلاب الجامعات بعد ألف سنة هذه النتائج على أسس تجريبية. بعد أن صعب على معاصري اينشتاين قبول فكرة كون الزمن نسبي وليس مطلقا، بل يتوقف على حركة المشاهد. والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة إذا ما شوهد من نقط مختلفة. وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعي ويناقض المعقول. فقد وجد أن الزمن كمية نسبية. وهذا يعني أن للحدث الواحد أزمان مختلفة إذا شوهد من نقط مختلفة. وواضح أن هذه النتيجة للنظرية النسبية تخطئ العقل. وقد يكون من الحكمة للمزيد من إيضاح النسبية أن نسأل أي مدينة أقرب من الأخرى، باريس أم الاسكندرية ؟ فبالنسبة لقاطن

وهو في الخامسة والعشرين من عمره. نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقة بين بديهيتين محطما المفاهيم التي كانت سائدة، واضعا أساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضي والتعمق والدقة في كل ما افترضه. واجمع أهل الفكر المستنير على أن اينشتاين عبقرى من أعلى مرتبة وأنه صاحب خيال وثاب، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة رأسا على عقب. فهو القائل في إحدى البديهيتين « إذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنتظمة كل بالنسبة للآخر فانهما في حالتين تامتي التطابق ». وهذا يعني عدم وجود طريقة تعين أي منهما يتحرك وإيهما ساكن. ولا معنى لأن نسأل « أيهما في حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشيء يسمى حركة مطلقة.

وقد عرف مثل هذا المبدأ منذ أيام جاليليو في علم الحركة وهو ينص على إمكان التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة. وهذا ما يتفق مع العقل. فإذا جلست في سفينة أو في طائرة، وأغمضت عينيك يكاد يستحيل عليك أن تميز بين السكون والحركة المنتظمة.

**أما البديهة الثانية** فهي حالة أخرى. يعرف العلماء أن سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهدين مهما اختلفت سرعاتهم، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية قريبة تحتاج إلى المزيد من البحث. ولكن اينشتاين رفع هذه الحقيقة العجيبة إلى مرتبة البديهة. ونملا كان فيليكسون ومودلي قد كشفوا هذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧. وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتي انتشار الضوء من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. وهذا يشبه المقارنة بين نتائج قياسات في مختبرين أحدهما يتحرك مع كوكب الأرض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية التي

القاهرة الاسكندرية هي الأقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش في لندن فباريس هي الأقرب . ولكن بالنسبة لسكان المريخ - ان وجد به سكان - فالمدينتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل ايضا « وما الزمن ؟ » اننا جميعا نعرف الزمن . . انه ما نقيسه بالساعات . هذا أفضل ما نجيب به على السؤال . فالمعتاد اننا نحمل ساعاتنا معنا ونقيس بها زمننا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، ان الزمن واحد ليس كذلك ؟ وأرد بقولى لا ، انه مختلف ، فالمسافران لكل منهما ساعته وإذا أراد احدهما ان يضبط الوقت عنده ، فلا بد من أن يرسل كل منهما اشارة الى الآخر . يشاهد احدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر - المتحرك - اشارات تقول ان ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا ان نستنتج ان الفترة بين الحدين بقياس المشاهد الاول هي الاطول . وانك عندئذ تتحدث عن الساعات بينما يتحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد اجبنا بأنه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك ان في الامر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد العقول أمر عسير ، ولكن الأسر منه أن نجادل مع شخص يضرب بالتفكير المنطقي عن ض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى انها مقبولة » . والامر لا يحتاج الى الاشارة الى أن آلاف العلماء هلكوا للنظرية النسبية وفرحوا بظهورها ، لانها طورت الفكر العلمى ، وجعلتهم يمعنون الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا أو ضعفا أو عوجا . وقد اثرت هذه النظرية تأثيرا ثوريا في العلم الحديث ، وعمقت في المفاهيم التى تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك في مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

واثبتت النسبية سهولة تأكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الالكترونات . وأصبحت

معادلة اينشتاين هامة جدا في معالجة التحولات النووية وتفاعلاتها . ومن أحدث الاخبار التي حققت مباشرة زيادة الزمن في حالة جسيم يتحرك في ظروف العمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد أصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت أساسا للعمل اليومي في البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مفزى أعمق وأبعد بكثير من كونها قانونا جديدا من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجى في سلوكية الباحثين في العلوم الطبيعية ، بأن جعلتهم في غاية الوعى للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وعوا ما يستخدمونه من الالفاظ ، وعرفوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . وأحسوا بالحاجة الى ازالة جميع آثار الجو الارسطوى من العلوم . وعلمتنا النسبية أهمية السؤال عن كيفية قياس الاشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام المعاملات المرتبطة بها . فاذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، أو كانت طريقة حسابها معروفة ، فان هذا يكفى ، لان الطبيعة شيء موضوعى يوجد في الكون ، ولا يتوقف على الباحث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة انهم افترضوا كميات طبيعية وادخلوها في الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وادت النظرية النسبية الى تعميق فهم دور النظرية في العلوم الطبيعية . ويقول العلماء ان النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرة معينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول ان وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد أعطتنا النظرية النسبية نموذجا ميكانيكيا لتحتل المكان الذى تربعت

وعلم الفضااء . وقد تطورت النظريات الرياضية بعد ظهور نظرية الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها في المواصلات اللاسلكية والحاسبات الالازرية والتخليق الكيميائي والتصوير وتحديد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت في فحص نظرية النسبية وفي قياس حركة الغازات ودراسات الجو والسرعات . وتتقدم علوم الليزر الآن بخطى سريعة للتعرف على الحضارات في الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح في الامكان السفر الى بعض الكواكب في رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .

عليه نظرية « الاثير » وقد دفنته على الرغم من عظمتها القديمة وقيمتها التي مكنت علماء القرن الماضي من التنبؤ بكثير من الظواهر قبل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحدها التي أقامت صرح الفكر العلمى المعاصر ، فقد عاصرتها كشاف أخرى في عالم الذرة وقامت بأدوار كبيرة في بناء العلم الحديث والتطور الحضارى الذى نعيشه اليوم .



وأخيراً... اننا نعيش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد أخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا في كل ميادين الأنشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة في الحياة اليومية والاعمال الصناعية تستخدم الالكترونيات



## المراجع

- ( ١ ) فؤاد صروف : « أساطين العلم الحديث » الطبعة المصرية . دار المقتطف . القاهرة ١٩٣٦ .
- ( ٢ ) أحمد زكي : « بواتق وأنايق » قصة الكيمياء « ترجمة عربية » للمؤلف برنارد جال ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- ( ٣ ) ذكرى فهمي : « فن البحث العلمى » ترجمة عربية للمؤلف و . ا ب بفردج ، الالف كتاب ، بإشراف وزارة التعليم العالى . القاهرة سنة ١٩٦٣ .
- ( ٤ ) اداياشيف : « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم . موسكو .
- ( ٥ ) A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971.
- ( ٦ ) Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; Pocket Books, Inc. New York, 1964.
- ( ٧ ) Ritchie Calder ; Science in our Lives ; New American Library, 1962.
- ( ٨ ) Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; Penguin Books. London, 1960.
- ( ٩ ) A. P. Rossiter ; The Qrowth of Science ; Penguin Books, London.
- ( ١٠ ) Elaine Knorre ; A Visit to Transurania, MIR Publishers, Moscow, 1974.

★ ★ ★

## جوانب غير مطروقة في شعرتوني

## د. حامي مَرْزُوق

وشوقي من أولئك النفر الذين عاشوا  
للشعر ، لا يشغلهم عنه شاغل ولا يعدلون به  
مجداً ، ولا بجاهه جاها مهما كبر في أعين  
الناس .

قلمى وان جهل الغبى مكانه  
أبقى على التاريخ من ماضيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ،  
يكبرها بمجده الادبي، ويعلو بشعره فوق جميع  
ما اتفق السلاطين في الفتح ، ويلمز أولئك  
النقاد وقد زين لهم الغباء هذا الطعن عليه  
بالتلق والكذب ، والعباقرة لا يكذبون الناس،  
لأنهم أزهّد الناس فيما عند الناس ، يقول  
للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :

كثير الكاتبون في شوقي حيا وميتا ، وكانما  
المبقرية لاحساب لها في موازينهم ، فتعاقبوا  
على الخفض به الى مراتب العامة في التزلف  
وطلب الجاه .

وداب العبقرية ان تزهّد بأصحابها فيما  
يتمجد به آحاد الناس .

ولا نريد بذلك أن نعلو بالرجل على خصال  
البشر ، وانما نريد القول انها خصال متجاوزة  
- ولا بد - في المواهب الشاخصة بأصحابها  
الى مراتب الخلود، وليس وراء الخلود صارف  
يصترف العظماء من كثير من مواضعات العرف  
وقيم الحياة .

زهدت الذي في راحتك وشاقتني  
جوائز عند الله مبتغيات

ومن كان مثلي (أحمد) الوقت لم تجز  
عليه ، ولو من مثلك الصدقات

وهذا التشامخ أو التأبى نقرؤه في المدح  
الذي يؤخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا  
أظن أحدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ،  
فما بالك بخصال العنجهية الماثورة في الانكسار  
أو الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول ان هوى الرجل أو  
عثمانيته ، لا يدخل في المعايير الادبية التي عليها  
مدار المدح والدم ، وانصار الفن للفن أول  
من يتكبرون هذا الطعن برمته ، لانهم شاخصون  
أبدا الى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيه ما وراء  
ذلك الموضوع المستحب أو التملق المذموم .

الا أننا نلتقي وهؤلاء النقاد على تشخيص  
هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الأمة  
وقضاياها في السياسة وشئون الاجتماع ،  
فكل ذلك - عندنا - من صميم الشاعر ، ومن  
عناصر الرجل التي تجتمع عليها اطراف  
شخصه المفترى عليه .

لقد شاعت دعاواهم في تملق العثمانيين  
واستغرقت الاسماع حتى لا مكان فيها لخير  
يقال، والعثمانيون عندهم - بعد - شر أصاب  
التاريخ ، وسوء أزرى بالخلافة ، فاجتمعت  
على الرجل سوانتان : سواة التزلف ، وسوء  
المتزلف اليه ، وكان شوقي خسر الأولى  
والآخرة ، فلا هو أمسك عن المدح فأرضى  
الناس ، ولا هو أنصفته السلاطين كما أنصف  
سيف الدولة المتنبي في اسماع الناس  
والتاريخ .

وقد أكد ادماء السوء على العثمانيين هذا  
الظلم المتصل في حياة المسلمين ، وقد جاءهم  
نابليون - وأوروبا من ورائه - بحضارة تقوم  
منها الديمقراطية أو الحرية السياسية مقام  
الاساس من البناء .

وقد رد رفاعة الطهطاوى للناس هذه النظم  
الديموقراطية يومذاك الى امر واحد هو العدل  
والانصاف ، « فما يسمونه الحرية - كما  
يقول - هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل  
والانصاف ، لان معنى الحكم بالحرية هو  
اقامة التساوى في الاحكام والقوانين » . (١)

والناس يومذاك أحاط بهم الظلم  
والاستبداد ، فكانوا آذانا مصغية للدم ،  
ورقابا مشرّبة لكل انتقاد .

الا أن هذا الظلم أو الاستبداد كان من  
سوء العصر وعيبا من عيوب عامة الأمة  
الاسلامية ، وليس من الانصاف أن نعلق أوزار  
العصر برمته في أعناق الترك أو العثمانيين  
دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الأمر  
دون هؤلاء وأولئك ، فقبيح أن نشركهم الفعل  
ونفردهم بالعجب وكلنا في الهم شرق .

على أن شوقي لم يغفل - قط - هذا  
الظلم ولا أغضى عنه ، الا أن الفارق عنده هو  
الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمتها،  
وهو الفارق بين الثورة بالتخلف ، والثورة  
بعامة الحضارة الاسلامية ونظمها في الحياة .

والنقاد لا يذكرونه بهذا الوجه الثائر، ولكن  
يأخذونه - دائما - بالمدح الذي قال ، وشوقي  
في مدحه وذمه كان يمدح بحق ويدم بحق ،  
ديدن الفضلاء وأصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولمهمو ..



جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

ثم أن هذه الابيات من الابيات الاحيان ، على  
سنة قوله الماثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيت القصيد أفعل في نفوس الناس من  
القوائد الطوال ، لأنه أعلق بالأفئدة وأجرى  
على اللسنة ، فكانت العرب تكابر بالابيات  
الشوارد ، والامثال السوائر لهذه المآرب  
والخصال .

وتسقط ( أدنة ) في اليونان ، غلب عليها  
البلغار في مطلع القرن ( ١٩١٢ م ) ، فيجزع  
شوقي أشد الجزع ، لأنه رأى فيها نكبة  
الاندلس ، وجرحا كجرحها :

جرحان تمضى الأمتان عليهما

هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس أول الممالك الاسلامية يسقط  
عنها لواء الاسلام في غرب أوروبا ، وأدنة آخر  
الممالك على عهد شوقي تسقط في شرقها ،  
وليس وراء ذلك ألم يؤلم وجدان المسلم ،  
ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الغرب البقية فانقضت

فعلى بنى عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبغيرها الهلال الاسلامي  
الذى احاط بأوروبا من طرفيها في العصور  
الوسطى ، الى هلال أوروبى - في العصر  
الحديث - يحيط بطرفى دار الخلافة وممالك  
المسلمين ، قول توينبى ، وهذا أشد ما أحق  
شوقي على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يآلو الممالك مندرا

فاذا غفلن فما عليه سلام

مقامك فوق ما زعموا ولكن  
رايت الحق فوقك والمقام

والناس منذ رفاعه على أن «الديموقراطية»  
أنفى للظلم ، وعاصم من الطغيان ، فكانوا  
حربا على الاستبداد أو الديكتاتورية وحكم  
الفرد ، وكلهم شاخص باللوم والتثريب ،  
الى السلاطين العثمانيين والخدويين  
المصريين ، وكان شوقي على رأس  
القوم ، لا تعرض الفرصة الا حمل وصدق :

شر الحكومة أن تساس بواحد ... (٢)

قل للخلافة قول باك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك

يرميك بالامم الزمان وتارة

بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان أو مداهن  
لخدوى ، وشوقي ليس نكرة - بعد -  
فيمضى قوله غير محسوس به ، أو محسوب  
عليه ، والمتربصون بالرجل كثر ، في عصر  
ياخذ بالظنة ، ولا يغفر التعريض ، ولا يريد  
أن نستطرد فنروى للناس القتل والمؤامرات  
تحاك على ذلك العهد في تركيا ويصلاها  
الناقمون في أطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، يدس البيت  
في تضاعيف الشهر ، فتخطئه العيون  
والاسماع - لا يقال ذلك ، لأن الرجل من  
مذهب الشعر العربي ، لا يفرغ القول في باب  
بخصوصه على النمط المعهود اليوم ، فالدم دم  
والمدح مدح والراء راء ، وانما هو المداولة  
بين الأغراض جميعا ، ثم لا تعدم فيها رأى  
الشاعر ومواقفه من الحياة والاحياء .

(٢) - ج ١ ص ١٦٩ من الشوقيات

(٣) - ج ١ ص ١٦٨ من الشوقيات

### الحرية الليبرالية او الديمقراطية الغربية

وقد آمن الناس يومذاك ان الدستور والبرلمان عاصمان - ولا بد - من هذه المظالم والاستبداد ، فأغرقوا في طلبهما لانهم آمنوا كما آمنت الثورة الفرنسية او أوروبا البرجوازية بأن الاصلاح السياسى هو راس الاصلاح ، فهم شاخصون - أبدا - الى الحكم الدستورى او البرلمانى ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من أنماط الشورى فى حضارة الاسلام ، وكان الكواكبي فيما بين رفاة وجيل شوقى مثالا للفلاة :لثائرين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« ان سبب الفتور ( فى الامة الاسلامية ) هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت نيابية ديموقراطية تماما فصارت بعد الراشدين بسبب تمادى المحاربات الداخلية - ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية ثم صارت اشبه بالمطلقة » .

والناس منذ رفاة مأخوذون بالدستور الفرنسى وما شرعه من المساواة فى حقوق السياسة وأعباء الاقتصاد ، وقد ترجم رفاة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الامرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قوله فى المادة الاولى : سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الاحكام ... حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكم والمحكوم او الشريف والوضيع لم تكن معهودة على عهد رفاة ولا على عهد شوقى ، وكلاهما يعلم كما نعلم ان المساواة قائمة فى الحضارة الاسلامية واصل من اصول الاسلام ، فكانت

ثم لا يلبث أن يعنف بهم وبآرائهم وعامة سياستهم ، ويثور على اتكالمهم وتخاذلهم ، وهو من وراء ذلك ساخط أشد السخط بما تلبسوا به من الفرور والاستنامة الى المجد القديم :

زعموك هما للخلافة ناصبا  
وهل الممالك راحة ومنام

لو آثروا الاصلاح كنت لعرشهم  
ركنا على هام النجوم يقام

صور العمى شتى ، وأقبحها اذا  
نظرت بغير ميونهن الهام

فيم التخاذل بينكم وورائكم  
أم تضاع حقوقها وتضام

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا  
فالمجد كسب والزمان عصام

ان الفرور اذا تملك أمة  
كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

لا يعدلن الملك فى شهواتكم  
عرض من الدنيا بدا وحطام

ومناصب فى غير موضعها كما  
حلت محل القدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم أو هجاء يقال .

**يقول الدكتور هيكل :** « وقد بلغ من حب شوقى للترك ان كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تشوبها نقیضة » .

ولا اظن هذه الابيات المقدمة تشايح الدكتور فيما ذهب اليه ، وأغلب الظن أنها تنقض دعواه التى فتح بها أبواب التنقص من الرجل ، وسوغ بها تهمة التعصب الاعمى للترك فى نفوس عامة النقاد .

« وحيثما كانت رسل العملات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها - كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما نقول اليوم ، لا مجال فيه لظالم أو مستبد ، لأن الناس هم الذين تداولوا بنوابهم أمور أنفسهم ، وليس وراء ذلك مانع للظلم والاستبداد ، وعلى كل حال فالرعية مائعة للظلم عن نفسها بنفسها » (٦) .

أمران - اذن - دأب الناس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان ، أو هما أمر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية ، وكلاهما في قصاره قيد يمسك السلطة أن تجور على الناس وأن تحيف حقوقهم المشروعة ، أو أن شئت يمسك الحاكم أن يؤذى الناس في أرزاقهم وعامة حياتهم ، والطفيان داء العصر يومذاك ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » أو التحررية ، فالعدل والانصاف أقصى غاياتها في أذهان الناس يومذاك ، على غير الشائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » في مصر ، ذلك بأن الرومانتيكيين أخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصية حرباً على مواضع الناس في المشاعر أو الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حرباً على العرف والتصرف وقواعد السلوك ... أما السابقون فقد شغلتهم الحرية السياسية فغلبت على ما عداها من النظم « الليبرالية » للآبسات لظلم وظروف الطفيان ، فتنادوا بالدستور واشتد الأتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف ، فأمر به السلطان عبد الحميد ،

أوروباً بذلك كالمنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعه :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بانه كالعظيم في اجراء الاحكام » (٤) .

ويعقب على ذلك بأن هذه القضية كادت تكون من « جوامع الكلم » عند الفرنسيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة في الاضطلاع بالضرائب أو الخزينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعه العجب فيقول :

« ويمكن أن يقال ان ( الفرد ) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتي في باريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا » (٥) .

وداء الشرق - لا شك - كامن في اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فأمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » أو الحجة المكتوبة يلتقى فيها الحاكم والمحكوم على شرع سواء .

وتأتى المادة الخامسة عشرة بمبدأ الشورى ومجلس النواب أو « ديوان رسل العملات » كما يترجمه رفاعه ، وهذا الديوان أو المجلس هم وكلاء الرعية والمحامون عنها ، حتى لا يظلمها ملك أو سلطان ، يقول رفاعه :

( ٤ ) - التخليص ص ١٤٨ .

( ٥ ) - التخليص ص ١٤٩ .

( ٦ ) المرجع السابق ص ١٥١ .

وكان قد أمسكه بعد أن وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصيها ودانيها  
حاط الخلافة بالدستور حاميتها  
أما ترى الملك في عرس وفي فرح  
بدولة الراي والشورى واهليها (٧)

ولا يقال شوقي تبع ، هلل وكبر! لدستور صدر في تركيا ، لأننا نقول : هو أول داع في هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر في مصر يومذاك :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب  
حيالك من يبعث الموتى ويحييها  
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها  
وبين ( مصر ) معان أنت تديرها (٨)  
والآمال هنا هي الدستور .

على أن الأمر ليس أمر سبق في القول أو تأخير به ، وإنما المعول على منطق الرجل في القضية ، وإيمانه بالفكرة حلاً لازماً للقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو في فقه الحضارة الغربية وحضارة الاسلام والمسلمين ، يقول :

وإنما هي شورى الله جاء بها  
كتابه الحق يعطيها ويفليها (٩)

فقصارى الديمقراطية أو النظم البرلمانية عند شوقي أنها نمط من أنماط الشورى في الحضارة الاسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشار عليهم ، ولم تعرف أية حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » أو « أولى الأمر » أو « أهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التي تدل على المشورة وطلب الراي من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم  
وعلى حياة الراي واستقلاله (١٠)

إنى أرى الشورى التي اعتصموا بها  
هي جبل ربك أو زمام نبيه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذاك ، لأننا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضارى منذ رفاة ، فالمسلمون لم يقبلوا - قط - من هذه الحضارة الغربية إلا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدباء مطالبين بأحياء الأصول الاسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخرط القتاد دون تسويغ هذه وتلك في نفوس العامة ، والناس في عصر قريب العهد - يومذاك - بثورة الانكشارية على السلطان سليم لأنه فرض الملابس الفرنجية في الجيش ، فما بالك بما هو أخطر من ذلك في أمور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقي بهذا العبء ، فكان يستعين على أهواء الحكام وجهل السلاطين بأصول الاسلام ، ويستهوهم بالخلفاء الراشدين ،

( ٧ ) - الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ .

( ٨ ) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .

( ٩ ) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧ .

( ١٠ ) - المرجع السابق ص ١٦٨ .

( ١١ ) - المرجع السابق ص ٢٨٨ .

جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

الكتب والرسائل والأديان قاطبة  
خزائن الحكمة الكبرى لوامعها  
محبة الله أصل في مرآتها  
وخشية الله أس في مبانيها  
وكل خير يلقي في أوامرها  
وكل شر يوقى في نواهيها  
تسامح 'نفس معنى من مروءتها  
بل المروءة في أسمى معانيها  
تخلق الصفح تسعد في الحياة به  
فالنفس يسعد بها خلق ويشقيها  
ثم يخص نفسه بالحديث ، والحديث هنا  
داخل في صلب القضية ، لأن شوقي يطلعك  
على دخيلة نفسه ، أو يفكر لك بصوت مسموع  
كما يقولون ، يريد للناس جميعاً أن يكونوا على  
حدوه ومثاله في رياضة النفس على الإحسان :  
الله يعلم ما نفسى بجاهلة  
من أهل خلقتها ممن يعاديها  
لئن غدوت إلى الإحسان أصرفها  
فإن ذلك أجرى من معاليها  
والنفس إن كبرت رقت لحاسدها  
واستغفرت كرمًا منها لشايتها (١٥)  
ومؤدى هذا القول أن الإسلام لا يضيق  
باختلاف الأديان « ولو شاء الله لجمع الناس  
أمة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون في أهل

فيدأول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير  
فيهم نخوة التشبه وحماسة الاقتداء :

فكانك الفاروق في كرسيه (١٢)  
خلافة الله جر الذيل حاضرها (١٣)  
جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون - بعد - أنه المادح  
المتزلف ، ويضربون عرض الحائط بما وراء  
المدح من هذه الأعماق .

لقد أنفق شوقي من عبقريته ومن بالغ ذكائه  
في قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر أو  
كاتب أو أديب ، وحسبك اختلاف الأجناس  
والأديان في الدولة العثمانية حائلًا يحول دون  
المساواة التي هي صلب الدساتير الليبرالية .

ولا أظن رجلاً غير شوقي يستطيع أن ينفذ  
إلى لب القضية - وتهمته الكفر مشرعة يومذاك -  
فيسوغها في النفوس على هذا النحو الذي لا  
يقدر عليه إلا العارفون بحقوق أهل الكتاب  
« لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، والواقفون  
على أسرار البر أو مبدأ الإحسان في الإسلام  
« لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين  
ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا  
إليهم » ، وعلى هذا الأساس يقول شوقي :

الدين لله من شاء الإله هدى  
لكل نفس هوى في الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داعية  
إلى اختلاف البرايا أو تعاديها

( ١٢ ) المرجع السابق ص ١٦٩

( ١٣ ) المرجع السابق ص ١٧٠

( ١٤ ) ص ١٦٩

( ١٥ ) ج ١ ص ٢٨٩/٢٩٠ من الشوقيات

اللمة ، فان التسامح او مبدأ الاحسان فيه - عند شوقي - سعة مشروعة لآخوة الوطن ان انعدمت آخوة الدين .

فانتصار شوقي - اذن - للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وانما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومظان الخلاف ، البصير بمواطن العظمة في الاسلام ، وهذا المدخل الى القضية من ابواب « الاحسان » لا اقول جديدا في ابواب الاجتهاد ، وانما هو احياء بصير للفكر الاسلامي وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوى فلم يقف بالآخوة الاسلامية موقف التناقض من الآخوة الوطنية، فكل ذلك يجمعه ويحض عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا عباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان آخوة العبودية التى هى التساوى فى الانسانية عامة فى حقوق اهل المملكة بعضهم على بعض ، التى هى حقوق العباد » ، يريد بذلك ان العباد على اختلاف عقائدهم اخوان فى العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان فى الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم عباد الله وخلقهم ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هى الحقوق الطبيعية التى طالما اشار اليها رفاعة فى تخليص الابريز والتى كانت تسميها الثورة الفرنسية على عهده باسم « حقوق الانسان والمواطن »

« وهناك حقوق العبودية الخاصة التى هى الآخوة الاسلامية » - كما يقول - وهى اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابتدائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان ، فهذه هى التى اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم ، يعنى آخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد ،

وهى اعظم من الآخوة الحقيقية ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : « ولا مانع ان يجمع في مكارم الاخلاق » ، يريد ان تعم هذه الآخوة فى اهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار ، واهل المحلة الواحدة كلهم جيران او من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقى مكارم الاخلاق عند رفاعة مع مبدأ الاحسان عند شوقي وكلاهما اصل واحد فى الاسلام ولا فرق ، ونقول هنا ما قلناه فى كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة ان تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتنان » .

وحسب الاديان الأخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبدلت الأهواء ، واستحكم التعصب فى نفوس المسلمين .

وحسب البشرية ان تقوم فيها آخوة فى شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع آخوة الدين ، ووحددة المذاهب والمعتقدات .

### مبدأ الشورى او روح الديمقراطية

على أن شوقي لم ينخدع - قط - بالديموقراطية « الليبرالية » ، التى اغرق فيها الناس ما اغرقوا ، وتنادوا ما تنادوا بأشكالها الدستورية والبرلمانية، وهو شاخص - أبدا - الى جوهر الحرية او روح الشورى ولبابها ، وها نحن اؤلاء نقرأ الكتاب - اليوم - من أم الدساتير والبرلمانات ، فيكشفون لنا عن مثالب الديمقراطية الغربية ، لانها اخلفت الظن فى نفى التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا فى هذا الصددهارولد لاسكى فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٦)

والذين تستهويهم الثورة وخصال العنف ،  
لا يعدمونها في الرجل ، فشوقي لم يشتد -  
قط - شدته في قضية الثوري أو الدستور ،  
فنعف بالسلطان عبد الحميد حين شاد الناس  
في الدستور ، وحين حجه عن الأمة ليستبد  
بالامر ، فناصر عليه أنور باشا وصحبه :

صبروا لدولتك السنين  
وما صبرت سوى شهور  
أوذيت من دستورهم  
وحننت للحكم العسير  
وغضبت كالمصور أو  
هارون في خالي العصور  
ضنوا بضائع حقهم  
وضننت بالدنيا الفرور  
هلا احتفظت به احتفا  
ظ ، مرحب فرح قرير  
هو حلية الملك الرشيد  
د وعصمة الملك الفرير (٢٠)

وقوله « وخالي العصور » هنا من باب الدم  
والتحقير لا التماجد والافتخار ، فرائي شوقي  
في هارون الرشيد رايه في معاوية وعامة الخلفاء  
من بعده ، صارت بهم الخلافة ملكا عضودا  
« على سنة الفرس والرومان ، فتزحزحوا بها  
عن سمت البيعة والانتخاب الى سنة التعيين  
والتوريث :

وها نحن اولاء نرى الدساتير تشرع ،  
والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ - بعد -  
بتلابيب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيعتو له  
النواب وتدل له الجماعة :

وإذا سب الفرد المسلط مجلسا  
الفيت احرار الرجال هبيدا (١٧)  
ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الأمة  
وتستدل الشعوب :

وقام مقام الفرد في كل أمة  
على الحكم جم- يستبد غفير (١٨)

ولا اظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه  
النظم ، أو ما يسميه علماء السياسة باسم  
« الدكتاتورية البرلمانية » .

على أن الاستبداد لا يذهب المستبد فيه  
- عند شوقي - بجميع اللوم والتثريب ، وإنما  
السبيل على الذين يستدلون له ، وينزلون على  
ظلمه وطفئانه ، فالشعوب تخلق جلاذيتها كما  
يقال اليوم ، وأهل الحل والعقد - عند شوقي  
- هم داء الأمة بالتملق ، وهم سبة الحياة  
بالاستخذاء :

كم سبخوا لله في الروا  
ح ، والهوك لدى البكور  
ورأيتهم لك سجدا  
كسجود موسى في الحضور  
خفضوا الرؤوس ووتروا  
بالذل أقواس الظهور (١٩)

(١٧) ج ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) ج ٣ ص ٨٢ من الديوان

(١٩) ج ١ ص ١٤٥ من الديوان وقوله في الحضور أي في حفرة الله تعالى في الوادي المقدس طوى

(٢٠) ج ١ ص ١٢٢/١٢٣ من الديوان

روعتها من فيض الايمان بالمبادئ أو الصدق  
في المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل  
مكرور خلا من الطعن بالتقليد والاثام بالمحاكاة .

ويوم تكون الثورة حرفة تصبح كالعمل  
الادبي المقصود ، يعمل فيها الوعى والتدبير  
فتلتوى بالناس الى قصد غير القصد وسبيل  
غير السبيل ، وثورة اتاتورك ماثلة يومذاك في  
الاذهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد  
الاصلاح ، وانتهت بهم الى « القومية » أو  
« الوطنية » مبدأ لم يخطر - قط - على اذهان  
المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم  
أو الشعب ، فوقع في العنجهية القبلية أو  
« شعب الله المختار » ، لا يابه الناس فيه  
« بالغير » الخارج على شاكلتهم في الجنس  
أو مفارقهم في الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ،  
لانهم نشأوا على ولاء أعم ، جاز بهم الاسلام  
حدود « الدم » و « الاقليم » عصب « الدولة  
الحديثة » الى هذا الولاء الجامع بين الامم  
وأطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطومهم  
في كل غسدة جمعة ورواح

جمعت على البر الحضور وطالما  
جمعت عليه سرائر النزاح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

أبى الاسلام لا أب لى سواه

إذا هتفوا بيكر أو تميم

وهذا الولاء الاسلامي الجامع ، كابريه  
« أنولد تويني » الولاء القومي ، الذي سارع  
اليه كمال اتاتورك ، فالقومية عنده مرض من

ان الدين توارثوك على الهوى  
بعد ( ابن هند ) طالما ظلموك

لم يلبسوا برد النبي وانما  
لبسوا طقوس الروم اذ لبسوك

وقصارى القول أن شوقى ثار - أشد  
الثورة بالظلم والظالمين ، لا فرق بين حاكم  
أو محكوم ، وشوقى لا يخطئ مواضع الظلم ،  
يكون في السلطان ، ويكون في أولى الامر ، كما  
يكون في الرعية وعامة الناس سواء بسواء .  
وهو في جميع ذلك حرب عليه أينما كان لا  
يحاشى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والذين يسقطون شوقى من الثورة بالظلم  
انما يسقطونه من سياق العصر ، فالعصر  
الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضارى  
منذ عهد « نابليون » الى يوم الناس هذا ،  
والادب الحديث في مصر وعامة العالم العربي  
يضطرب بهذه الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه  
هيكل (٢١) ، وشوقى بلا جدال « لسان مصر  
الناطق » كما شهد به الراحل وكان الراحل  
قبلا من حساده ومبفضيه (٢٢) .

والذين يريدون أن يسقطوا شوقى من  
سياق العصر الثائر يمجزون أن يسرروا لنا  
وللتاريخ الادبي خلود الرجل في المشاعر  
والاذهان ، والحافظة أكبر ناقد رغم أنف  
الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة ضربا  
من المناوأة ولا غير ، وشق عصا الطاعة فحسب ،  
على سنة المخربين أو المحترفين .

ونريد بهذا التفريق أن الثورة الفرنسية  
فيض شعبي كاللوحه الفنية أو القصيدة  
الشعرية قامت على غير مثال سبق ، فاستمدت

( ٢١ ) ثورة الادب .

( ٢٢ ) وحى القلم .

( ٢٣ ) ج ١ ص ١١٥ من الديوان .



وخلاصة الامر أن شوقي شاخص الى الشورى الاسلامية أو روح الديمقراطية لا ينخدع عنها بالنظم وأشكال الحكم ، فلاستبداد - عنده - يقوم والنظم الدستورية - بعد - قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على رأس الحكم ، فالعبرة - عند شوقي - بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالامم وانما الامم هى التى تنهض بالنظم ، ونزوع شوقي الى الاخلاق ، اريد به الامة أو تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، أو تلك هى رسالته التى أراد أن يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة أو المجتمع ما هما الا اجتماع الآحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يومذاك ، وفى تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

**يقول رفاعه رافع الطهطاوى :** اعلم أن ( الفرنسية ) متفرقة الراى فرقتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الامر لولى الامر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكانه عبارة عن آلة ، ولا شك أن الرايين متباينان ...

فالفرقة الاولى اعانة الملك ، والاخرى اضعافه واعانة الرعية ، ولا حاجة للملك أصلا ... وهذا هو حكم الجمهورية .

ومؤدى هذا القول أن النظم السياسية أو نظم الحكم ثلاثة أنماط ، ملكية مطلقة ، وأخرى مقيدة أو دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث هو النظام الجمهورى ، الامر فيه للمبايعة أو الانتخاب ، يقول رفاعه :

أمراض الحضارة الأوروبية ، لأنها من عوائق « الولاء الانسانى » الاعم ابتلى بها الشرق وأخذها على غير هدى أو بصيرة ، ( ٢٤ ) ولقد صدر شوقي من مثل هذا السخط بالكمايين فكتب يقول :

شربوا على سر العدو وغردوا  
كالبوم فوق جدارك المدكوك ( ٢٤ مكرر )

فاذا أضفت هذا الى قوله :

هتكوا بأيديهم ملأه فخرهم ...

ادركت كيف شربوا على سر العدو ، وانفلدوا له ما أراد ، فقطعوا أوصال الخلافة أو الوحدة الجامعة للمسلمين بهذا الفكر القومى الطارئ على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على أن الامر له وجهه الدستورى عند شوقي ، اذا جاوزنا العواطف أو المبادئ الاسلامية ، فالكمايون طلاب الديمقراطية أو دعاة الراى والشورى ، كانوا أول من استبد بهذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صح العزم وأخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رأيهم ، ولكنهم الفوا الخلافة على غير هوى الناس ، أو رأى المسلمين ، فكانت أول مثلبة دكتاتورية تتراعى للناس فى تطبيق الديمقراطية الفريية فى دار الاسلام فكتب شوقي يقول :

الفرد بالشورى وباسم نديها  
خلع الخليفة فى الظلام شريدا  
خلعته دون المسلمين عصابة  
لم يجعلوا للمسلمين وجودا ( ٢٥ )

( ٢٤ ) Toynbee; Civilization on Trial ( ٢٤ مكرر ) - ج ١ ص ٢٠٠ من العنوان .

( ٢٥ ) ج ١ ص من الشوقيات .

« وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها » (٢٦)

وشوقى من رأى رفاعة لانه رأى الاسلام غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد مختاراً على سنة النظم الجمهورية فى الاختيار برأيه ، وقامت به يستشير ويشار عليه ، وقامت به معينا أو معهودا اليه ، وقامت به مبايعا والانتخاب .

وقد امتدح شوقى الخلفاء والحكام بجميع ذلك ، فالخليفة لا ينبغي أن يضار بالخلافة فيسقط عنه حق الاجتهاد ، لان الاجتهاد حق للناس خلفاء وغير خلفاء :

الرأى رأى أمير المؤمنين اذا

حارت رجال وضلت فى مراميها

وانما هى شورى الله جاء بها

كتابه الحق يعليها ويغليها (٢٧)

ولا يأخذ الناس الرأى هنا مأخذ الدكتاتورية لان الاسلام لادكتاتورية فيه فالحاكم المسلم مقيد بالاسلام ومحكوم به أبدا ، أو هكذا ينبغي له ، يقول رفاعة :

« والافرنج يعدون الحكومات الاسلامية من قبيل مطلقات التصرف ، والحال أنها مقيدة أكثر من قوانينهم » (٢٨)

والدستور فى قصاره قيد يفل يد الحاكم ، أو عاصم من الاختلاف فى تأويل الحقوق ، يصطلح عليها المسلمون فيلتقى الحاكم وإياهم على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد آثر شوقى القيد الدستوري ، فالخلفاء عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيق بالدستور ولا يضيق به الدستور ، وخليفة غير ، فالدستور عاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حلية الملك الرشيد ، وعصمة الملك  
الغريس .

على أن فريقا من الناس والكواكب على رأسهم اشتطوا فى الامر فأبوا الفرد حاكما ولو عمر بن الخطاب ، (٢٩) ولا يعنى ذلك أن شوقى كان دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمان وأهلـه

فرغوا من الفرد اللعين ( ٣٠ )

الانصاف - اذن - ان ننسب الرجل الى أدب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين أو الحكام فى مصر والأستانة ، وهذا خلق يتخلق به صاحب الذكاء ، وشوقى كان فوار الذكاء كما يقول مطران (٣١) ، لان الذكاء يصل بصاحبه الى غاياته البعيدة دون أن يخرم حرفا واحداً من آداب المجاملة والحديث ، وبهذه الخلقة كان يمدح ويتمدح :

شديد صلب فى الحق حتى

يقول الحق لينا واتداعا ( ٣٢ )

( ٢٦ ) التخليص ص ٢٥٢ .

( ٢٧ ) ج ١ ص ٢٨٧ من الديوان .

( ٢٨ ) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ص ٥٠ نقلا عن الوقائع الرسمية ج ٦٢٣ .

( ٢٩ ) أم القرى ص ١٤١ .

( ٣٠ ) ج ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .

( ٣١ ) الشوقيات المجهولة ج ١ ص ١٠٠ .

( ٣٢ ) ج ٣ ص ٩٨ من الشوقيات .

## فلسفته في مدح العثمانيين

على أن العثمانيين كانوا بالقياس الى شوقي تاريخاً وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضراً يعلو على الاتهام أو النقد والتجريح .

أما العثمانيون آحاداً وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الإسلامية في لغة القرآن فضلاً عن لغته التركية ، والأغلب منهم كان يحفظ القرآن ويتخذ الاساتذة والعلماء من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على أنهم أرادوا نسبا تسقط فيه القومية التركية أو العنجهية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

وإذا جاوزنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان أو الدولة البيزنطية ، وكانت خطراً اتصل حبله منذ أبي تمام والمتنبي والمعتمد وسيف الدولة ، وقد تأتت من قبل هذا وذاك على معاوية بن أبي سفيان .

وهذا الفتح في موازين الحضارة أخطر منه في تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها في الحضارة الإسلامية أو دار الاسلام ، وليس ذلك بيسير .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى أسوار فينا في القرن السابع عشر ، ودخلت أوروبا الشرقية بأغلب دولها في حوزة دار الاسلام أو خلافة المسلمين ثلاث قارات من العثمانيين ، وليس قليلاً في التاريخ أن تنتظم أوروبا الى غرب آسيا الى شمال أفريقيا ، حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حداً لم تبلغه امبراطورية قبلها ، فكانت فخراً لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول

الشيخ محمد عبده : « اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى الى . . . حدود الصين ، أقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب ، كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها ( ملوك ) الصين ، وترتعد فرائص أعظم ملوك أوروبا . »

ومن ملوكهم في قرونهم الوسطى مثل محمد الفزوني ، وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني .

أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح أثرهم ( ٣٣ ) .

ومن قبل أشاد رفاعة الطهطاوي بالسلطان سليمان الثاني واعتد عصره « أعظم الأعصار » فقد بلغ بالدولة العثمانية « أوج الفخار » فافتتح الفتوحات العظيمة وأعلى كلمة الله ( ٣٤ ) .

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يصدون سيدا عن السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصدارة وولاية الأمور ، حكم الاسلام أو شريعته النازلون عليها في التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وخير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير في مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استجلب الأوروبيون اليهم العبيد في أمريكا صنييع الأتراك المتهمين ، فلم نسمع عنهم الا الاضطهاد ، أنزلوهم من المجتمع أحط المراتب ، وختموا على انضاعهم بالعرف المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الأوروبيين في أسباب الحضارة على نحو من أنحاء المشاركة يفرغه الانصاف .

( ٣٣ ) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستاذ الامام .

( ٣٤ ) الأعمال الكاملة لرفاعة ج ١ ص ١٦ ، نشر وتطويق محمد عمارة .

كان العثمانيون - اذن - بالقياس الى شوقى تاريخا وحضارة ، أو ان شئت كانوا مجدا اسلاميا ، وبطولة متصلة في تاريخ المسلمين :

قد ظننى اللاحى نطقت عن الهوى  
وركبت متن الجهل اذ أطريك  
لم ينقذ الاسلام أو يرفع له  
راسا سوى النفر الالى رفعوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقى - قط - الى السلاطين العثمانيين الا وهو شاخص الى مآثر آبائهم الاولين منذ محمد الفاتح الى سليمان القانونى الى غيرها من أبطال الفتوح والحضارة الاسلامية :

سما بك يا عبد الحميد أبوة  
ثلاثون حضار الجلالة غيب (٣٦)  
حنيفية أو قد عرهما وأعرها  
ثلاثون ملكا فاتحون غرارة (٣٧)  
يابن الخواقين الثلاثين الالى ... (٣٨)  
عشرون خاقانا نموك وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء الماضون - اذن - هم مفتاح المدح عند شوقى ، وهم مادته التى صدر عنها فى التقنى بالسلاطين ، فهم جيل من أجيال الحضارة الاسلامية، والحلقة الوثقى فى تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بدر بعدما  
خيف المحاق عليه والاضلام (٤٠)

يقول الدكتور لويس عوض : « فمندا للحظة الاولى ( من دخول الفرنسيين ) أحس الجبرتى انه ازاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والماليك ، لا فى مقوماتها المادية فحسب ، ولكن فى كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطئ الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والماليك ليسوا حضارة قائمة برأسها ، لأن الماليك ظاهرة اسلامية ، أو نظام حربى أفضى اليه اجتهد المجتهدين على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطئ له أجر .

والماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتهون الى وطن واحد أو قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون الى حضارة محمد أو تدم .

والا تترك هم الآخرون يفتقرون الى ألف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيف تستقيم لهم حضارة ، فيقال حضارة الترك أو الماليك ؟

وهم أنفسهم قد نبذوا « طورانيتها » وتسموا بالعثمانيين وهم الغالبون يومذاك على أمرهم فى الاسلام ، شأنهم فى ذلك شأن التتار ، غلبوا على دار الاسلام وغلبهم الاسلام فى ميدان الحضارة والعقيدة جميعا .

( ٣٥ ) ج ١ ص ٦٥ من الشوقيات .

( ٣٦ ) ج ١ ص ٤٢ من الشوقيات .

( ٣٧ ) ج ١ ص ٩٥ من الشوقيات .

( ٣٨ ) ج ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .

( ٣٩ ) ج ٢ ص ٢٢٨ من الشوقيات .

( ٤٠ ) ج ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .

( ٤١ ) تاريخ الفكر العربى ج ٢ ص ٢٠ .

وموقعة أبى قير البحرية شاهد على ذلك بما  
كتبه « (فلسون) » في يومياته أو مذكراته (٤٣)  
باسمهم بينهم شديد ، وهم - بعد - جميع على  
الدولة العثمانية على سنة التحدى الحضارى  
في عرف آرنولد توينبى ، ويرجع توينبى بوادر  
هذا التحدى الى ارتداد العثمانيين عن فيينا في  
القرن السابع عشر ، وقد بلغ أقصاه حوالى  
مطلع هذا القرن العشرين ، وقد أدرك شوقي  
هذا القصد المبين من قبل أن يقول به توينبى  
فكتب قصيدة في مسجد إيا صوفيا تفضح  
هذا العداء الكامن أو الحقد الذى لا هوادة  
فيه :

لن يترك الروم عباداتهم  
أو ينزل الترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعبادتهم مواطن العبادة  
وأماكنها من باب حذف المضاف ،  
ويريد بهذه المواطن أو الأماكن عامة البلاد التى  
غلب عليها الترك ، ونزعوا عنها الحضارة  
الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام  
والمسلمين :

فيا لشار بيننا بعده  
أقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثار القدس من قبله  
لا تنتهى منه ولا يبتدى

فلا يغرنك سكون الملا  
فالشر حول الصارم المغمد

لن يترك الروم عباداتهم  
أو ينزل الترك عن السؤدد

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار  
والأتراك ، انتصروا على اليونان بالسيف ،  
وانتصر عليهم اليونان فى الحضارة وشئون  
الفكر ، والرومان أحق أن تكون لهم حضارة  
برأسها من التتار والأتراك ، ولكنها دائما وأبدا  
مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقي - اذن - من رأى استاذنا  
الدكتور لويس عوض ، ولا كان الجبرتى منه  
على التحقيق ، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز  
بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والاقليم ،  
فالحضارة الاسلامية علم على الميراث المشترك  
بين الأمم الاسلامية على اختلافها فى اللون  
والجنس واللغة والاقليم ، يقول الشيخ محمد  
عبده : « هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين  
من يوم نشأة دينهم الى الآن ، لا يعتدون برابطة  
الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون  
الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى،  
والفارسي يقبل سيادة العربى ، والهندي يلحن  
لسيادة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم  
ولا انقباض ، وان المسلم فى تبدل حكوماته، ولا  
يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها  
وانتقالها من قبيل الى قبيل ، ما دام صاحب  
الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا  
مذاهبا » (٤٢) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين  
متربص بشعوب الخلافة الاسلامية وكلهم  
شاخص الى هذا « الرجل المريض » يتحاجزون  
دونه ، أصدقاؤه والأعداء لا أبقاء عليه وانما  
افتئاما للظروف المواتية التى تكثر فيها الغنيمة  
ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف ، فمثلهم  
والدولة العثمانية كمثّل قول الشاعر :

يفرقهم بغض ويجمعهم حقد

( ٤٢ ) تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٢٢٦/٢٢٥ .

The Life of Nelson.

( ٤٣ )

هذا لهم بيت على بيتهم

ما أشبه المسجد بالمسجد

فان يعادوا في مفاتيحه

فيا ليوم للورى أسنود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لامر الشرق وقد  
احيط به ، وها نحن اولاء لا نزال ياخذنا الشر  
صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على  
عدو ، وانما يتركوه بين بين ، والبين بين دائما  
في حيص بيص ، فهو متوجس أبدا ، لا هو  
المنتصر فيفرح بالنصر ولا البالغ الهزيمة فيياس  
من النصر ، والياس احدى راحتين .

فالشر حول الصارم المفهد

اقام لم يقرب ولم يبعد

لا تنتهى منه ولا يبتدى

والامر مناط يومذاك بحاضر مضعوف ،  
والأوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين  
يحملون أوزار كل ذلك على الاسلام وخلافة  
المسلمين ، لا يعنيهم ما يعنينا من مجد الماضي  
وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى  
وعليه ما انقضى كما قيل يومذاك ، وانما العبرة  
بالحاضر فهم ياخذون الاسلام والمسلمين بما  
يرخر به الواقع من الظلم ومظاهر التخلف  
والجمود .

فكان على شوقى ان يختط خطة رفاعة  
وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والشيخ  
محمد عبده ، فيحارب في جبهات ثلاث صنيع  
طه حسين والعقاد ، فيصد عنا الغزو الفكرى  
وينقضى تهم الغرب ، ويحمل على الظلم الموروث  
ومظاهر التلخف والجمود ، وهو من وراء ذلك  
شاخص أبدا الى ماضى الحضارة الاسلامية  
يكابر بها ، ويستحيى في الناس قيمها ، يحفزهم  
على الاستمسك بأصرتها ، والخلافة الاسلامية  
- بعد - حضارة متصلة في تاريخ المسلمين :

حسب اتى طول الليالى دونه . . . .

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم . . . .

جمعت على البر الحضور . . . .

لم يكن شوقى - يفاقل - اذن - عن سئ  
العصر ولا عن تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر  
قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين على  
القوة والنهوض :

شموبك في شرق البلاد وغربها

كأصحاب كهف في عميق سبات

بايمانهم نوران ذكر وسنة

فما بالهم في حالك الظلمات

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم

فما ضرهم لو يعلمون الاثى

والفارق بين شوقى وهؤلاء الناقمين كما  
اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم وعقائيل  
التخلف وبين الثورة بعامية الخلافة ونظم  
الاسلام والمسلمين ، أو هو الفارق بين ثورة  
الشفيق بأهله المؤمن بجدى حضارته ، فمدحه  
تحريض على الفضل وسخطه عتاب على المثالب  
والعيوب ، وأصول الحضارة الاسلامية - آخر  
الامر - هى محك الرضى ومعيار السخط  
والعتاب .

\*\*\*

عالم القيم أو المدنية الفاضلة عند شوقى :

هناك منهج في البحث ذو شقين سلكه  
« كونهجود » في تعريف الفن وماهيته ، الشق  
الاول منه : تخليص الفن من المدخول عليه ،  
ورده على قائله ، وهذا ما كان منا في امر  
شوقى .

على سنة هيبوليت تين أو الماركسيين، فشوقي يؤمن مع «كارلايل» أن التاريخ عربة يجرها الجياد من الرجال كما يقولون، ولم يخطر له - قط - أن التاريخ يمضى بالناس حيث يشاء على سنة هيجل في السعى إلى المطلق من الأفكار، ولا على سنة الماركسيين في الصراع الناشب - حتماً - بين الطبقات .

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الإنسان عظمتها في معترك الحياة، ويسخر من جدواه في سير الأحداث، ولا يشتون له بعض شأنه إلا بالتمحل والتخريج في «الجدلية» أو فلسفة الصراع عند الماركسيين .

وشوقي يربأ بالإنسان أن يكون ريشة في مهب التاريخ، تمضى الأحداث إلى غاياتها، وهو بعد مسلوب الإرادة لا قصد له يقصده، ولا غاية يتفياها عن عزم وتدبير .

والناقمون على شوقي لا يصبرون على هذا المنهج في جدوى الفضائل وآحاد الناس في الإصلاح وسير التاريخ، لأنهم غارقون في المذاهب التاريخية، وفلسفتها في التعويل على الظروف والملاسات، وجاءت المادية الجدلية ومذاهبها في الحتمية أو الجبر التاريخي، فوقفت للناس بالجهد البشري أو الفضائل وخصال الأفراد عند حب الخير و«الطوباوية» التي تحمد أصحابها، ثم لا طائل من ورائها في إصلاح المجتمع وشئون الناس، لأن المعول عندها في النظم وفلسفة المجتمع، لا في الخلق وخصال الناس، فالناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحيته، والصالح مقصور على المجتمع اللاتبقى الذي يزعمون أنهم بالفوه غدا أو بعد قد فتحسن الخصال، وتفضل أخلاق الناس دون جهد يبذل، أو تدبير مقصود .

أما المجتمع البرجوازي القائم فأصل الشر وجرثومة الفساد، والخلاص منه أو الثورة به خلاص من الشرور والآثام .

وهذا القول يسقط عن آحاد الناس مؤونة الجهد في تهذيب النفس، والاضطلاع بعبء الفضل ومسئولية الخلق أو خصال الاستعلاء .

وهذا التعريف «بالسلب» كما يسمونه تكمن جدواه في تقريب الأذهان من غاية الصواب، لأنه يميظ من طريقها الأخطاء الشائعة، أو أذى الخلط وآفة الإدماء .

وإذا خلصت الأذهان من زائف القول، وتهيات للحق، ونشطت لاستقبال الصواب، جاءها الشق الثاني، أو التعريف بالإيجاب، ليقيم على أطلال الخطأ صرح العالم الإنساني أو الرؤية الأخلاقية، أو الشخصية الأدبية، أو الأبعاد الحضارية لفكر الرجل، وعامة مشاعره ووجدانه .

فشوقي لا تقف عبقريته عند دفع التهم، وإنما هو عالم من القيم أو الحضارة مستتم الأطراف، لن تجد فيه منفذا مشروعا لما أدعوه عليه من البهتان :

يقولون يرئى الراحلين فويجهم  
أملت عند الراحلين الجوازي

أبوا حسداً أن أجعل الحي أسوة  
لهم، ومثالا قد يصادف حاذيا

فلما رثيت الميت أقضى حقوقه  
وجدت حسوداً للرفات وشانيا

فالرجل في مدحه، وفي رثائه، وفي عامة شعره شاخص أبداً إلى القيم الإنسانية العليا، يشتقها من وقائع حياة العظماء وأحداث التاريخ، يستوى في ذلك الأحياء منهم والأموات، والمصريون وغير المصريين، والنصارى والمسلمون، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد، وعن بغداد وروما وباريس والاستانة وليبيا وبيروت ودمشق، وعن صلاح الدين ونابليون، وعن حافظ والمنفلوطي وشكسبير وتولستوى وهوجو، وعن مصطفى كامل وبطرس غالي، وعن المختار وأدهم باشا وسعد زغلول .

ذلك بأنه آمن أن الناس هم الأحداث، وهم صناع التاريخ، ولم يفهم قط أن الأحداث والتاريخ هما الغالبان على أمرهما في التطور بالناس إلى ما يريد أنصار الحتمية التاريخية

ولا كذلك شوقي :

والنفس من خيرها في خير عافية ...  
فانما الأمم الأخلاق ما بقيت ...  
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ...  
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ...  
وما السلاح لقوم كل عدتهم  
حتى يكونوا من الأخلاق في أهب  
واذا ما أصاب بنيان قوم  
وهى خلق فانه وهى أس

فالأخلاق عند شوقي عليها مدار التقدم في  
حياة الأفراد كما في حياة الأمم والجماعات ،  
فالأمم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح  
بصلاحهم وتفسد بفسادهم ، وهو قول لا  
يسقط من الحقيقة ، وإن سقط في موازين  
الماركسية ، اللهم إلا إذا قالوا بالجدل بين الفرد  
والجماعة ، وهو جدل ينظرون فيه آخر الأمر  
إلى جهد الفرد في الثورة أو دفع عجلة التاريخ  
إلى المجتمع الفاضل الذي ينعدم فيه التمايز  
والطبقات .

والإنسان معها طال بهم الجدل ، وتملقوه  
بصفات البطولة هو - عندهم آخر الأمر -  
وسيلة لا غاية ، والأمر عند شوقي على الضد  
والخلاف ، لأن شوقي يكابر بالإنسان وجدواه  
في الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق في  
الحضارة ومدارج الرقى .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره  
ووجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبي أو  
الصرح الحضاري ، أو ما شابه ذلك من  
المصطلحات التي تفضي إلى « الرؤية » الأدبية  
بلغت العصر .

وقد أصاب الذين وصفوا شوقي بأنه شاعر

الأخلاق ، إلا أن هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه  
بحال ، لأن الأخلاق اختلطت في الأذهان  
بالاصطلاح المدرسي الذي يقف بها عند القواعد  
المقررة في العرف أو ضوابط السلوك ، وما  
يؤيده بالأخلاق عند شوقي أمر وراء ذلك  
بكثير ، فالباقرة لا ينشدون الكمال القائم في  
أذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وإنما  
ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل  
وخصال السمو والعظمة .

ولو اقتصر أمر شوقي على هذه الأخلاق  
التي يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد  
والخلود ، لأن عبقريته لا تعدو - عندئذ - نظم  
ما ينبغي أن يكون ، على سنة أبي العتاهية

#### أو صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاسع بين نظم الأخلاق ، وشعر  
الأخلاق ، فشعر الأخلاق شاخص أبدا إلى ما  
وراء الكمال من عظمة النفس ، وسمو الشاعر  
والوجدان :

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها

واستغفرت كرما منها لشانيها (٤٤)

فأرادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمه  
العنقاء (٤٥)

متدرع صبر الكرام على الأذى

ان الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وأرانا التاريخ فرعون يمشى

ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

إنما يقدر الكرام كريم

..... (٤٨)

(٤٤) ج ١ ص ٢٩٠ .

(٤٥) ج ١ ص ٢٢ .

(٤٦) ج ٢ ص ٦ .

(٤٧) ج ١ ص ٢٠ .

(٤٨) ج ١ ص ١٨٨ .



بين واقع التصرف واصطراع الناس في السلوك ، وبين التأمل وآداب السلوك أو النزعة الانسانية التي تتسم بها حكمة شوقي ، فالمتنبى في أقرب أبياته من الكمال ونوافله لا يعدو أن يقول :

ترفق أيها المولى عليهم  
فان الرفق بالجاني عتاب

فلا يجعل الترفق بهم خالصا لوجه « البر والاحسان » « وانما يجعله عتابا أو عقابا ان شئت . »

ج - الا أن فريقا من نقاد شوقي لا صبر لهم على اطلاق القول ، ويضيقون بالعموم الذي لا اختيار فيه ولا مفاضلة ، لان الاختيار والمفاضلة يقتضيان التخصيص المتنبى عن الشاعر وخاصة مذهبه في الامور ، وذلك ادل على موقف الرجل ، وعلى شخصه أو عامة فكرة ووجدانه .

ونسوق الى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقي كما يزعمون لانصرف عنه ، وهو غير مضطر اليه ، ولكنها عبقرية الرجل ونفاذه في الصعب ، وشخصيته القادرة على المشكل من الامور :

ظن فرعون ان موسى له واف  
وعند الكرام يرجى الجزاء

لم يكن في حسابانه يوم ربي  
ان سيأتي ضد الجزاء الجزاء

فقضى الله ان يعقق ولله تفي  
لا لغسيره الانبياء

ومؤدى هذا القول أن المبادئ العليا تعصف بالمبادئ الدنيا ، لأنها أوفى وأصلح للبشرية على سنة « الانتخاب الطبيعي » ، أو البقاء للأصلح عند دارون وعامة التطوريين :

ويشكك فيه فلا يكلف نفسه  
غير الترفع والوقار نضالا (٤٩)

أغضيت ضنا بعرضي أن ألم به  
وقد يروق العمى للحر والصمم (٥٠)

واذا ملكت النفس قمت ببرها  
ولو أن ما ملكت يدالك الشاء (٥١)

واذا بنيت فخير زوج عشرة  
واذا ابتليت فدونك الأباء (٥٢)

قوم وقار الدين في أخلاقهم

• • •

وقد نستطيع أن نجتمع هذه العظمة أو الخصال في المصطلحات الاسلامية التي جرى بها التواتر أو جاء بها القرآن ، وفصلتها السنة في كثير من الحديث ، ولعل « البر » أو « الاحسان » أحفلها بهذه المعاني ، أو تلك الغايات ، « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » .

« نبى البر بيئة طريقا »

« والبر عندك ذمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون - وهم مخطئون - ان هذه المعاني مضت في الادب العربي ، والمتنبى سبق اليها في حكمه ومأثوراته ، وأصح من هذا الزعم أنها مضت في الآداب الاسلامية ، أو حضارة المسلمين - وشوقي بلا شك هو الجانب الانساني من هذه الحضارة ، وأعنى به جانب « الاحسان » أو ما قدمنا من مصطلح « نوافل الكمال » ، فالسيئة جزاء السيئة كمال ولا شك ، وأما المعضو ففوق الكمال أو هو كمال آخر لا يفي بمعناه الا مصطلح « الاحسان » .

« ان الاديب مسامح ومدارى »

خلقت كأننى عيسى حرام  
على قلبى الضغينة والشمات

وهذا هو الفارق بين المتنبى وشوقي أو الفارق بين الكمال ونوافل الكمال ، أو الفارق

(٤٩) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥٠) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥١) ج ١ ص ٣٦ .

(٥٢) ج ٢ ص ٨٤ .

فما على المرء في الاخلاق من حرج  
إذا رمى صلة في الله أو رحما

وليس وراء ذلك اصرار على ما قدمنا من نواقل  
الكمال أو معاني البر والاحسان ، ورحم الله  
على بن أبي طالب حين رق لاحد الخارجين عليه  
في وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

ونستتم أطراف هذا العالم الادبي أو هذه  
الرؤية الفنية لنمط آخر من أنماط الكمال  
ونوافله أو أنماط الجمال الفني في معناه ومبناه  
جميعا :

وردنك كوئرا وسفرن حورا  
وهل بالهور ان أسفرن بأس

فقل للجانحين السى حجاب  
اتحجب عن صنيع الله نفس

إذا لم يستر الادب الغوانسى  
فلا يفنى الحرير ولا الدمقس

تأمل هل ترى الا جلالا  
تحس النفس منه ما يحس

كأن الخود « مريم » في سفور  
ورائها حوارى وقس

تهبها الرجال فلا ضمير  
يهم بها ولا عين تحس

وليس وراء ذلك قداسة أو جلال يحملك على  
السمو والاحتشام ، ولا يعدله عندي الا قوله في  
آثار الفرائد ، وروعة انس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخضع  
لا تحاول من آية الدهر غضا

فانت هنا كما انت هناك في حضرة الجمال  
والجلال ، هذا عبقرية الفن والانسان ، وذاك  
عبقرية الطبيعة والحياة .

هذا قل من كثر ، أو قليل من كثير نخلص  
منه الى أن الاخلاق عند شوقي هي القيم  
الانسانية الكبرى التي اريد بها « الاحسان » في  
حضارة الاسلام والمسلمين ، وهي امر وراء  
القواعد والقوانين ، أو وراء الحدود والتشريع  
كالتصوف سواء بسواء ، فانت تستوفي امر

العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتى النوافل  
لا يزال العبد يتقرب بها الى الله حتى يصبح  
يده التي يبطش بها ، وعينه التي يبصر بها ،  
وتلك رتبة عالية في عرف المتصوفة أو المتصوفين

وكلا الامرين داخل في رتبة الفضائل أو نوافل  
الكمال ، لان الاحسان في مضمار الخلق والسلوك  
كالتصوف في العبادة ليس أحدهما فرضا  
مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنى  
الزيادة لغة واضطلاحا ، والزيادة لا يشق  
الشارع على الناس بالتكليف بها ، وانما تؤتى  
تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير  
له » .

فهى لا تستمد سندها من التشريع أو  
القانون ، وانما تستمد من ربتها في السمو ،  
لانها غاية في ذاتها يسعى اليها أهلها ، ويستمسك  
بها الفضلاء من الناس ، وتلك هي مرتبة الاخلاق  
بلا الزام كما يقول « جويو » والتي آمنت بها  
الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا  
بلغ الناس المجتمع اللاتبقى في تقديرهم ، فلا  
حكومة ايان ذاك ولا سلطان ، وانما هي الفضائل  
التي يتكلفها الناس تكلفا في المجتمع البرجوازي  
أو الرأسمالى تصبح خلقا متاحا لكل أحد .

ولا كذلك الحال عند شوقي ، فالحياة هي  
الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهى  
بحالها :

اناس كما تدري ودنيا بحالها  
وشعب رخي تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد  
تشابه فيه أول وأخير

الحال باقية كما صورتها  
من عهد آدم ما بها تغير

وذلك بأن شوقي يؤمن بالدنيا دار ابتلاء  
 واختيار ، وهو رأى الاسلام ، ولا معنى للابتلاء  
والاختيار اذا استقامت الحياة بالناس ، وجرت  
الطباع فيها على سنن الفضائل ولا غير ، فتلك  
مرتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم  
النفوس فتنزع النفوس الى الكمال « ونزعنا  
ما في صدورهم من غل اخوانا » .



## ربة البيت

آن أوكلبي \*\* \*

عرض وتحليل الدكتورة عليّة حسن حسين

الضوء على السمات والملامح التي تميز ربة البيت .

وتهتم الكاتبة بتتبع دور المرأة عبر الزمن معتمدة في ذلك على تحليل نتائج البحوث التي أجرتها بنفسها لعدد من الحالات التي قامت بدراستها ، وكان الطابع الأنثوي غالبا على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

يهتم هذا الكتاب بإبراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» في المجتمع الصناعي الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حول نظرة المجتمع للمرأة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو أما . ويهدف الكتاب إلى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلقي

Ann Oakley, House wife, Allen Lane, London, 1974

( \* )

(\*\*\*) آن أوكلبي ، باحثة في كلية بدفورد بلندن ، ولدت في لندن عام ١٩٤٤ ولققت علومها في كلية سومرفيل باكسفورد، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عن موضوع « اتجاهات المرأة نحو العمل المنزلي » ، وفي عام ١٩٧٢ أصدرت كتابا بعنوان : « الجنس والذكورة والانوثة، والمجتمع Sex, Gender and Society . وفي عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب « ربة البيت » الذي تتناوله بالعرض والتحليل والنقد الدكتورة عليّة حسن حسين ، كما أصدرت آن أوكلبي في نفس العام كتاب « سوسيولوجيا العمل المنزلي » الذي تقدم له أيضا ، الدكتورة سامية حسن الساعاتي عرضا تحليليا وتقييما نقديا له . ( التحرير )

التي تقصر العمل على الذكور دون الاناث ،  
والتي تؤكد أن دور المرأة ينحصر داخل المنزل  
فقط .

الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام  
بأدوارهم الاقتصادية المنتجة وأن لم تقم بدور  
مباشر في عملية الانتاج .

**الثاني :** كما أن قيامها بدور المستهلك  
الرئيسي في الأسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا  
الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من  
السوق ، أحد انشطتها الرئيسية ، تزيد من  
حجم المبيعات فتنشط عملية التسويق مما  
يؤدي الى دفع عجلة الانتاج باطراد .

**الثالث :** أن عمل المرأة كربة بيت لا يدخل  
ضمن مفهوم العمل الحديث ، فهي تؤدي العمل  
المنزلي الخاص بالأسرة والمتعلق بتدبير الحياة  
العائلية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من  
الاعمال أو الخدمات العامة التي يتحتم أن  
تتقاضى عليها اجرا معيناً ، كما أنها غير ملزمة  
بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك  
قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المرأة كربة بيت  
خارجاً عن مفهوم العمل الحديث الذي يؤدي  
نظير الكسب المادي أو الأجر المحدد .

ولكن هل يعني ذلك أن عمل ربة البيت  
يتباعد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية  
وينفصم عنها انفصاما تاماً ؟

إن طبيعة هذا العمل والصورة التي يتم  
عليها والحدود التي يدور في إطارها ، وأن لم  
تبرز ارتباطاً ظاهراً ومباشراً بالحياة  
الاقتصادية ، إلا أنها لا تعني الانفصام عنها .  
والنظرة الدقيقة المتغيرة لهذا الدور تؤكد  
مدى ارتباطه بالحياة الاقتصادية وتعي أهميته  
في دفع حركة الانتاج دفعا مستمرا بتهيئة  
الظروف المستقرة للمنتجين من أعضاء  
الأسرة .

**ثانياً : دور المرأة في مجتمع ما قبل الصناعة :**

لقد اختلف دور ربة البيت في المجتمع  
التقليدي عنه في المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

واتجاه الكتابة الى الاهتمام بهذا النمط  
من النساء يرجع الى قصور السوسيولوجيين  
في الاهتمام به . ويتضمن الكتاب تسعة  
فصول تتناول الموضوعات التالية :

**اولاً : المقصود بربة البيت وأهم ما يميزها :**

إن ربة البيت هي المرأة التي تعمل في  
البيت ولا تتقاضى اجرا عما تقوم به من أعمال ،  
وإذا حاولنا تحديد المقصود بهذا المصطلح من  
الناحية اللغوية فإنه يشير الى كلمتين : بيت  
- زوجة . وهذا يعني أن الدور الذي تقوم  
به ربة البيت هو دور عائلي واثوى معا ، كما  
يعتبر أيضا دورا خاصا داخل المنزل . وربة  
البيت هي المسؤولة عن معظم الواجبات  
المنزلية ، كما تقوم أيضا بكافة الاعمال المنزلية  
سواء ساعدها أحد أو لم يساعدها . . وهي  
بهذا المعنى ليست خادمة ، وإنما امرأة تباشر  
شئون منزلها ، كما أنها سيدة البيت وزوجة  
رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة ،  
فالزواج ليس شرطا لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها نخص  
منها ما شاع وبرز في المجتمع الصناعي  
الحديث . فربة البيت من السميات التي  
يقصد بها المرأة دون غيرها ، وتعني هذه  
التسمية عدم استقلالها الاقتصادي ، ويعبر  
مضمونها عن الدور الاساسي الذي تضطلع به  
ويحدد مدلوله دائرة عملها ، ويبين منزلتها  
الاجتماعية كأمراة غير عاملة . ومن الضروري  
ألا يفوتنا ، ونحن نتحدث عن ربة البيت ،  
أن نشير الى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية .  
فهذا الدور وإن لم يمثل نشاطا اقتصاديا  
منتجا بصورة مباشرة إلا أنه يرتبط به ارتباطا  
وثيقا ، ويتمثل هذا الارتباط في جوانب ثلاثة :

**الاول : قيامها بخدمة افراد الأسرة وتهيئة**

وبعد ذلك العرض الذي يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المرأة في المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي يتميز بها دور ربة البيت في المجتمع الغربي خاصة في الفترة ما بين القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

**١ - العمل :** كان عمل المرأة في بريطانيا منحصرًا في الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الأساسيتين لأفراد ذلك المجتمع في تلك الفترة .

وحين عملت المرأة كمزارعة كانت تقوم بإنتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الألبان ، وكانت تتقاضى أجرا يقل عن أجر الرجل ، رغم أن جهودها في هذا المجال يفوق الجهد الذي يبذله الرجل . وهذا الدور يعتبر جزءًا من دورها الذي كانت تنهض به داخل المنزل في المجتمع البريطاني التقليدي . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها في الزراعة حيث كان يتم أيضا في إطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الأعمال قامت المرأة بالعمل في التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التي لم تكن تقل أهمية عن الأعمال السابقة ، فالمرأة المتزوجة كانت تقوم بغزل ونسج الصوف والكتان لفرضيين : الأول تنغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . أما الفرض الثاني فهو المساهمة في زيادة دخل العائلة .

ولم تقتصر الأعمال التي قامت بها المرأة على ذلك ولكنها تجاوزتها الى أعمال أخرى كصناعة الخبز والبيرة ، فضلا عن مساعدة زوجها في عمله وتحمل القيام بأعماله بعد وفاته ، ومارست العمل أيضا في مجالات أخرى مثل التجارة القطاعي ، وإدارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهن يعملن باعة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهن .

الاختلاف انما يرجع الى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع الاهتمام بعمليات الانتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق في مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعنى ان العمليات الانتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفي اطار العائلة كما كان يحدث في المجتمع التقليدي ، فالعائلة في المجتمع التقليدي كانت تمثل وحدة الانتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جزأين من كل ثقافة متكامل ، فالعمل اذن لم يكن منفصلا عن حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الاسرة ، ولكن الكل يعمل من اجل استمرارها ووجودها . ورغم ان مبدا تقسيم العمل بين الجنسين ، تبعا لطبيعة كل جنس كان معروفا ، الا ان الادوار في المجتمعات التقليدية كانت تحدد بالنظر الى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك المبدأ المعروف يمارس حتى في المجتمعات التي عرفت على أساس قاعدة ثابتة تحدد عملا للمرأة وعملا للرجل . فالبناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات التقليدية لم يكن يتيح وجود مثل هذا التمييز الدقيق في تقسيم العمل .

وان ادراكنا لمفهوم الدور الذي كانت تنهض به ربة البيت في المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية ، ويؤكد انهما يمثلان معا كلا متكاملًا .

وهذه صورة مخالفة للصورة السائدة في المجتمع الصناعي الذي كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التي حدثت على مستوى العالم كان لها اثر واضح في تمييز ادوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادي مما اسفر عنه التمييز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية .

وقد تبين أن هناك أسماء لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجارى ، وقامت الزوجة بإدارة أعمال زوجها كوكيلة لأعماله ، فضلا عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات في حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية في هذا المجتمع تبيح انتقال تجارة الزوج وامتيازاته الى الزوجة بعد وفاته .

وبعد أن أدركنا الدور الذي كانت تنهض به المرأة في المجتمع البريطاني التقليدي يتأكد لنا أن المرأة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك ثمة تمييز في قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المرأة من ممارسة أى عمل لكونها امرأة . وليس من بين ذلك كله ما يشير الى التفرقة بين العمل المنزلى والعمل الانتاجى والنظر اليهما كمهنتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملًا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التفريعات الاقتصادية التي نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرأت تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذي تنهض به المرأة ولطبيعة عملها كمركز للحياة العائلية .

### ثالثاً - المرأة والتصنيع :

أن دور ربة البيت في المجتمع الحديث يختلف عن الصورة التي كان عليها في المجتمع التقليدي ، فأتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغييراً واضحاً في مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الامر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه الى دور الرجل .

وهذا التحول أو التغير يتضح في انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية وقد أدى ذلك الى أن أصبح دور ربة البيت محصوراً في النهوض بالأعمال المنزلية التي تفرضها

ب - كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم عن طريقها ولم يكن الزواج يعفى المرأة من الابعاء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصادياً بل تعتمد على دخلها من العمل الذى تمارسه في الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الانفاق على أطفالها ، ويساهم الزوج في ذلك أن كان دخله كافياً . فالمرأة في هذه الفترة كانت تحرص على التوفيق بين استمرار الحياة العائلية ورعاية الأطفال ، أما فيما يتعلق بالشئون المنزلية فانها كانت مسئولة مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت في القرن السابع عشر ودورها في القرن العشرين .

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا المجال أنه رغم اعتراف القانون العام بخضوع المرأة للرجل في المجتمع الانجليزى إلا أن ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان النبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، في حين كانت العادات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين المزارعين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المرأة بالرجل واستقلالها الاقتصادى عنه .

### ج - المتزلة الاجتماعية للمرأة في المجتمع

#### الانجليزى التقليدى :

ان استقلال المرأة اقتصادى في المجتمع الانجليزى التقليدى خلال القرن السابع عشر قد اتخذ اشكالا مختلفة :

فالمرأة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشئى المسؤوليات التي كانت للرجل الذى يعمل في نفس الظروف ، ولها أن تلجأ الى القانون في جميع الحالات للحصول على حقوقها ، ولها أن تشارك مشاركة تامة في أعمال الزوج وشئونه .

والمرحلة الثانية وهي ما بين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة ما بين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

### أما المرحلة الأولى : ١٧٥٠ - ١٨٤١

فهي تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للإنتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المرأة عن ممارسة الأعمال الإنتاجية التي كانت تنهض بها في المجتمع التقليدي ، ولم يكن للصناعة أثر في تغيير الأعمال الإنتاجية التي كانت تقوم بها من قبل ، وإنما ظهر أثرها واضحا في زيادة الإنتاج وما تبع ذلك من زيادة في حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد إنتاج النسيج المنزلي بزيادة حجم العمل الإنتاجي الذي تقوم به ربة البيت رغم ميكنة هذه الصناعة . ولم يكن ذلك في إنتاج النسيج فقط بل تعداه إلى إنتاج القطن .

وفي عام ١٧٨٠ التحق بمصانع إنتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحق معهم المرأة وصاحب ذلك انخفاض في الأجور . ولا يعنى التحاق المرأة للعمل بمصانع إنتاج القطن الاستمرار في مثل هذه الأعمال إذ اعتزلت الكثيرات من المتزوجات العمل في المصنع في أوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الأم واجهتها مشكلة رعاية أطفالها أثناء انشغالها بالعمل في المصنع ، مما أدى إلى اعتزالها ، وكان ذلك سببا في انخفاض نسبة النساء العاملات في هذا القرن أي القرن التاسع عشر .

أما النساء المتزوجات وليس لديهن أطفال فقد استمر عملهن في المصنع وكان ذلك مسيطرة للاعتقاد السائد من أن المرأة يجب أن تعمل وتعمل نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان للعمل في

الحياة العائلية دون الانخراط في الأعمال الإنتاجية التي تتم خارج المنزل ، والتي تكون مقابل أجر نقدي ، فلم تعد المرأة تشارك في عمل إنتاجي من أجل العمل ذاته أو من أجل الاستهلاك .

أما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث أفسح له العديد من المجالات ، فانتسعت دائرة عمل الرجل ومجالاته وأنشطته وعلاقاته في حين ضاقت دائرة عمل المرأة واتجهت نشاطاتها إلى المنزل أكثر من أي مجال آخر .

وكان هذا التحول في دور الرجل ملائما لذلك التطور الذي حدث في المجتمع الحديث ، الذي كان اتجاهه إلى التصنيع سببا في انفصال العمل الإنتاجي عن الحياة العائلية والانتقال بالعمل الإنتاجي بعيدا عن المنزل إلى مؤسسات صناعية كبرى يؤدي فيها العمل نظير أجر نقدي .

والمجتمع الصناعي الذي يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالأنشطة الاقتصادية تختفى أمامها العائلة كوحدة اقتصادية إنتاجية .

واستبعاد العائلة عن النشاط الاقتصادي لم يستلزم تغييرا في الإنتاج فحسب ، بل أنه استلزم أيضا تمييزا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت أصبحت غير عاملة وعليه فهي تعتمد اقتصاديا على الرجل الذي اختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه أجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادي للعائلة .

ويمكن تقسيم المراحل التي مر بها دور المرأة منذ بداية مرحلة التصنيع إلى ما يأتي :

المرحلة الأولى وهي ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

العمل التي طرقتها المرأة العمل في الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمى أثره في استمرار عمل المرأة في هذه المهن وكانت الداية اكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التي طرأت على عمل المرأة .

#### المرحلة الثانية : الفترة ما بين ١٨٤١ - ١٩١٤

في هذه الفترة برزت في المجتمع الانجليزي حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففي عام ١٨٤٢ صدر أول تشريع يحدد الظروف التي تعمل فيها المرأة ويحدد كذلك مجالات العمل التي تلتحق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أن المرأة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذي صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء اثناء فترة الحمل وقرر منحهن اجازة لمدة أربعة أسابيع قبل الوضع وأربعة أخرى بعد الوضع .

وفي عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضى بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعات عمل اضافية . ولهذه التشريعات أثر واضح في تحديد

المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر أثرها في انخفاض نسبة النساء المتزوجات العاملات ، وساد الاعتقاد بأن مكان المرأة البيت ، ودورها ينحصر في التزامها بالعمل المنزلى فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل في المصنع وابتعاده عن المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال .

ويضاف الى ذلك تلك المنافسة الشديدة التي واجهتها المرأة العاملة في الانتاج الصناعى من الرجال ، والتي دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلى الذى تؤديه دون أجر يتقاضى عنه ،

المصنع دور فعال في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرك ما كان للثورة الصناعية من اثر واضح على كل النساء العاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتي ليس لديهن اولاد ، وما كان له من دور في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ في كل من إنجلترا وويلز الى الاعمال الاساسية التي كانت تنهض بها المرأة ، واوضحت مجالات نشاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحياسة الملابس وكيها ، كما انها مارست مهنة التدريس ايضا ، هذا الى جانب الاعمال الاخرى التي نهضت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها أعمال تمثل الادوار التقليدية التي اختصت بها المرأة في المجتمع التقليدى .

اما العمل في المصنع فقد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والأجر المتقاضى منه يماثل الاجر الذى يحصل عليه الرجل . ولذا كان هذا العمل من اكثر الاعمال التي اجتذبت النساء بليه الخدمات المنزلية ويأتى بعدهما العمل الزراعى .

اما بالنسبة لبعض الحرف والاعمال الاخرى التي كانت المرأة تراولها وحدها فقد انخفضت نسبة العاملات فيها ، هذا الى جانب ما أحدثه انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشاركة المرأة للرجل في عمله .

كما أن النمو الاقتصادى السريع في الثروة أدى الى الافلال من فرص العمل أمام المرأة في مجالات الاعمال الحرة فيما عدا تجارة القطاعى .

ومن تلك التغيرات التي حدثت في مجالات



عما حدث بعد الحرب العالمية الأولى حيث زادت نسبة النساء العاملات في الصناعة الى الضعف نتيجة لظروف الحرب .

وخلاصة القول أن التصنيع كان له دور في حدوث بعض التغيرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :

— ابتعاد الرجل عن الحياة الروتينية المنزلية بالانتقال للعمل في المصنع وترك العمل في المنزل .

— تحمل الرجل لأعباء المعيشة واعتماد المرأة عليه في ذلك .

— انفصال العمل المنزلي ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

— التصنيع أدى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسي أكثر منه فيسيولوجي .

وكان يمكن لربة البيت أن تترك المنزل لتمارس عملاً تتقاضى عنه أجراً نقدياً ولكنها مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث أنه الدور الاساسى لكل النساء على الرغم من أنه قد يعوقها عن توسيع دائرة نشاطها الخارجى .

#### رابعاً - وضع المرأة في الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المرأة والرجل امر مألوف ويرجع هذا التمييز الى أساسين :

**الاول :** المرأة تهتم بشئون المنزل ، وهذا الاهتمام يحدد وضعها داخل الاسرة وخارجها .

**الثاني :** المرأة بوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الموجهة لدورها في المجتمع .

خاصة وأن الرجل قد أصبح صاحب الدخل الاساسى في العائلة أو الاسرة .

وبزيادة عدد ربوات البيوت ، ونتيجة لريادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب على الخدم الى الحد الذى دعا الى ظهور مشكلة نقص الخدم في عام ١٩٠٠ .

وظهور هذه المشكلة يدل على مدى احتياج ربوات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول في دور ربة البيت الذى أصبح دوراً اشرافياً ، فربة البيت تقوم بدور المشرفة على العمل المنزلى وهو نفس دور ربة البيت العاملة في القرن العشرين ، فهي الى جانب كونها ربة بيت فهي أيضاً عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحولت المرأة ربة البيت من مجال العمل في الصناعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل في الصناعات الغذائية ومؤسسات غسل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التي كانت تؤدي من قبل في المنزل . كما ازداد النساء اللاتي التحقن بالاعمال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنزل المرتبة الاولى بالنسبة للمرأة المتزوجة، بينما احتلت الاعمال الأخرى المرتبة الثانية .

#### المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ -

١٩٥٠

تتميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كعاملة منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فقد ارتفعت نسبة النساء العاملات وزاد الطلب على العمل ، والتحقت المرأة بمجالات عمل جديدة في الإدارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل في الهندسة الصناعية وإنتاج الأسلحة والدخيرة وقيادة السيارات . ثم انخفضت النسبة مرة أخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعية . ولم تختلف الصورة أثناء الحرب العالمية الثانية

الرجل فيها سواء أو شيئاً واحداً ، فالمرأة لها دورها الذي يختلف عن دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكراً ودور المرأة بوصفها أنثى في الأسرة الحديثة ليس تمايزاً بسيطاً ، فالترتيب الذي تسير عليه الأسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقاً على الزوجة يوضح بناءً متدرجاً ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للأنثى أن تسبق الذكر إلا حين يذكر الوالدان ، فيقال الأم ثم الأب وذلك لأن المرأة هي التي تقوم بتربية الأطفال ورعايتهم في الأسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية في هذا القرن دور في زيادة أهمية الجنسين في الأسرة ، واهتمام المرأة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هي به دون الرجل .

وقد أدى التصنيع إلى ظهور الأسرة النووية ، تلك التي تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن في ظروف المعيشة وفي ظروف الأسرة كان له أثر في زيادة الإعباء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من أهمية العمل المنزلي .

وإذا كان العمل المنزلي قد تأثر بظروف التصنيع فقد تأثر أيضاً دور المرأة ونمى الزوج الأم .

وقد ركزت التنمية على امرين أساسيين تعتمد عليهما الزوجة الأم في تربية الطفل ورعايته .

الأمر الأول : ضرورة تزويد المرأة بالمعلومات اللازمة عن تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المرأة في دور الأمومة يتوقف على ذلك .

والأمر الثاني : وجود الأم بجانب الطفل ، حيث أن الطفل في حاجة إلى استمرار وجود الأم بجانبه أكثر من حاجته إلى الأب . فالأم

ولتوضيح الأساس الأول الذي يعتمد عليه في التمييز بين المرأة والرجل يمكن أن تتبع دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها في الوقت الحاضر .

### أولاً : داخل الأسرة :

حين نتحدث عن دور المرأة داخل الأسرة نعني بذلك دورها في المنزل أو البيت ولا نعني به مكان العمل .

فالمرأة في الأسرة هي التي تحمل الأطفال وترعاهم وتتولى تربيتهم ، وهي في المنزل ربة البيت .

ووظيفة العائلة أو الأسرة - في مختلف المجتمعات - توجيه السلوك الشخصي ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون عن طريق التنشئة الاجتماعية ، والمرأة هي التي تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها عبء تكوين الشخصية الإنسانية .

وتكوين أفراد المجتمع الذي تتولاه الأسرة يتم عن طريقين :

الأول : تنشئة الأطفال اجتماعياً ، والثاني : صلب الشخصيات الناضجة في قوالب اجتماعية . فهى تهىء الأفراد للقيام بأدوار الزوجة ، الأم ، ربة البيت ، الزوج ، الأب .

وتكوين أفراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للأسرة ولكنها أصبحت ذات أهمية كبيرة في الأسرة الحديثة ، حيث أن الأسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التي كانت تقوم بها العائلة في المجتمع التقليدي ، أي مجتمع ما قبل التصنيع .

إن محور بناء الأسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المرأة ودور

التقليدى بين الرجل والمرأة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمرأة لا تزال ترتبط بأعمال معينة ، فهي تعمل في مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والأعمال الكتابية والبيع في المحلات والعمل في المصنع ، هذه كلها مجالات مارست المرأة العمل فيها الى جانب نهوضها بالعمل المنزلى .

وفي انجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات في هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء في هذه المهن في كل من الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انها اكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحقق بهذه المهن من النساء قد تخصص في نواح متعلقة بالمرأة . فالحماية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ، وتهتم الطبيبة بأمراض النساء والولادة وطب الاطفال ، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تأثير قوى على اختيار المرأة للمهن التى تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومى الذى اجرى في بريطانيا أن نسبة ربات البيوت اللاتى لا يعملن خارج المنزل ١ - ٢ أما اللاتى لهن اطفال ويعملن فتتمثل ١ - ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الامهات اللاتى يخرجن للعمل عندما يبلغ اطفالهن سن ١٥ سنة وتقل النسبة كلما صغر سن الاطفال عن ذلك .

ومن متابعتنا لدور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها في الوقت الحاضر نخلص الى أن التعارض بين وضع الرجل والمرأة ليس ناتجا من الدور البيولوجى الذى تقوم به المرأة في الحمل والولادة وانما ينتج عن الدور الثقافى في التربية .

فالأمومة مثلها مثل رعاية الشئون المنزلية من الادوار التى تختص بها المرأة وتتميز بها عن الرجل . ومما يوضح ذلك

تهتم بتربية الاطفال ورعايتهم ، والاب يقوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى ان الأسرة كنظام اجتماعى يميز بين دور الجنسين ، والمرأة في الأسرة الحديثة التى تتألف من رجل وامرأة تكون في المحل الاول زوجة وأم لطفل تقع عليهما كل الاعباء المنزلية ، مهما كانت الاعمال التى تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت أم طبيبة ، فالمرأة في الأسرة خالقة المنزل ، ورعاية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعد أن أوضحنا دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة في الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعية للشئون المنزلية خارج الأسرة أيضا .

ويتضح هذا الدور في أهمية الأسرة في توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لأعضائها ليكونوا أفرادا منتجين في المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور في وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك في ذلك اهتمام المرأة بالشئون المنزلية .

وهذا ما تؤكدته الاحصاءات الخاصة بالقوى العاملة من المساواة بين الجنسين والتشابه بين الوظائف والأعمال التى يقوم بها الرجال والنساء ، الا أن تلك المساواة وهمية ولا أساس لها في الواقع الفعلى .

وقد ازدادت في هذا القرن نسبة الاناث اللاتى يعملن خارج المنزل ويتضح ذلك في بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠-١٩٦٠ . ويرجع ذلك الى قدرة المرأة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، والى أنها قادرة على أن تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد ثباتا في نسبة العاملات من الزوجات الامهات .

وهذه الزيادة في نسبة العاملات من الإناث لا تشير الى حدوث تغيرات في التمييز

بطريقة غير مباشرة تتمثل في رعايتهم الرعاية التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدي للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والام والمرأة تواجه صراعا بين دورها في المنزل ومسئوليتها في رعاية شئون الأسرة ودورها في المجتمع بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية تتيح له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فان الصراع الذى يواجه المرأة الان انما هو صراع بين الادوار المتغيرة للجنسين . والدور القائم على أساس الجنس يكون قائما على أساس بيولوجى يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجاباته سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالناحية البيولوجية تفرض ان يكون اعضاء المجتمع ذكورا واناثا ، والمجتمع الصناعى الحديث قد اوجد فرصا للمساواة بين الذكر والانثى ، ولكن في نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والاناث بوصفهم جميعا اعضاء في المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخص النساء برعاية الاطفال وتدريب شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال ايضا .

فهذا الصراع الذى يواجه المرأة حديثا يفرض عليها ان تختار بين سلوك الانثى التقليدى وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت ، كما ان له الحق في الحصول على وظائف معينة .

ولما كان المجتمع الذى اعترف للمرأة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذى اعطى للرجل النصيب الاكبر من الحقوق فانه على الرغم من كل مانالته المرأة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تتضح من ذلك هي ان المجتمع قد خص المرأة بدور يعتبر اكثر الادوار اهمية ، الا وهو

النظر الى اهتمامات المرأة وتركيزها على اختيار المهن التي تتعلق اساسا بالشئون المنزلية والتي تربطها بالدور الانثوى . وهذه الاهتمامات من جانب المرأة يربط الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المرأة وربما تكون من عوائق تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد ان انتهينا من الحديث عن الاساس الاول الذى يرجع اليه التمييز القائم بين الرجل والمرأة في المجتمع في الوقت الحاضر ننتقل الى الحديث عن الاساس الثانى الذى يرجع اليه هذا التمييز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المرأة في المجتمع . وهذا التناقض يبرز من خلال الادوار التي تقوم بها المرأة داخل وخارج المنزل . فالمرأة عضو من اعضاء المجتمع يختصها بادوار تنهض بها . والمجتمع اذ يحدد لها الدور الانثوى التقليدى كربة بيت يحدد بذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وام .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك ان المرأة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف في ذلك عن غيره من الكائنات الانسانية ، فلا ثمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الانسانية في ذلك ، وهذا يحتم ان تتساوى مع غيرها في الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض في تلك القيم الموجهة لدور المرأة . فالمجتمع اذ يربطها بذلك الدور الانثوى يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها في الحقوق والواجبات بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك ان المرأة تتساوى مع غيرها في التعليم وفي القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على اساس مقدراتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نرى حياتها في ارتباطها بزوجها واطفالها وتحقق ذاتها

## ربة البيت

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز انما ياتي من تعدد مجالات انشطتها ، وكثرة الادوار التي تنهض بها .

فهي تقوم بدورها الانثوي كربة للبيت ، وزوجة وأم ، وهي في نفس الوقت تقوم بدورها كعاملة تمارس مهنة معينة في اطار المجتمع الذي تعيش فيه ، ولذا كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصية واحدة تتمثل في عدم حصولها على اجر تقدي نظير ما تقوم به من أعمال منزلية .

وفي ضوء ذلك اختلفت الآراء في تحديد وضع المرأة . يرى البعض ان الاهتمام بالشئون المنزلية ورعاية الاسرة ليس الا نوعا من العبودية والاستغلال للمرأة .

بينما يرى آخرون ان دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالاً للابداع الفردي والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى ان ربة البيت انسانة مظلومة ، في حين يرى غيرهم ان ربة البيت انسانة حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التي تفرضها نظم العمل الصناعي .

وهكذا ندرك ماكان من اختلاف في الرأي حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلي .

ويجدر في هذا المجال ان نعرض لرأي ربة البيت ذاتها لتتعرف على نظرتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسؤوليات التي تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التي تصل بنا الى الرأي الأصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التي قامت بها المؤلفة ، ومن خلال الحالات التي درستها يتبين :

الاهتمام بالاسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على ان التمييز بين الجنسين لا يزال قائما في مختلف المجتمعات خاصة في مجالي التعليم والعمل .

وتوضح نتائج احدي الدراسات التي أجريت في احدي جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والاسرة ، ان من الاسباب التي تجعل المرأة تحجم عن العمل في مجالات عمل الذكور النظر الى هذه الاعمال على انها ليست أعمالا انثوية ، والمرأة تخاف ان توصف بأنها غير انثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث في الولايات المتحدة حيث كان تحليل المرأة لانخفاض نسبة المشتغلات بالمهن الهندسية ، فالسبب الرئيسي هو خوف المرأة من ان توصف بأنها غير انثى . هذا بالإضافة الى ان الوالدين لا يشجعان بناتها على التدريب في مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول ان التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خداعا للنفس ، اذ انه من غير الممكن ان تتساوى المرأة بالرجل في الحياة العامة أو خارج المنزل في الوقت الذي لا تتساوى فيه بالرجل داخل الاسرة ، ورغم خروج المرأة للعمل والاستغال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالي والتدريب في مختلف المجالات ، وما أتيح لها الآن من فرص توهلها للدخول في المجالات السياسية والمهنية الا ان هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لغالبية النساء في مجتمعنا .

#### خامسات ربات البيوت ودورهن في الوقت

##### الحاضر :

لا شك ان كل فرد في المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول في المجتمع الحديث .

ان ربة البيت نفسها ترى ان أعظم شيء في العمل المنزلي هو عدم خضوعه لقيود العمل ومواعيده . فالعمل المنزلي يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلي بالمرأة دون الرجل ، وعدم رغبة المرأة في مشاركة الرجل لها في الأعمال المنزلية .

وهذا انما يعمق الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدي بدوره الى التأكيد على أن لكل من الجنسين دوراً في المجتمع يختلف عن دور الآخر ، فالذكر له دوره الذي يختلف عنه دور الانثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التي تشكل ضغطاً كبيراً على المرأة لتتدرج سيكولوجياً مع العمل المنزلي .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعاً من التدريب الذي يجب أن تهيأ له الانثى في فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الاعداد يعتبر جزءاً من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد أهمية هذا التدريب ، بل وأهمية ممارسته في فترة مبكرة واعتباره جزءاً من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل في العمل المنزلي لا يختلفن في ذلك عن امهاتهن ، على الرغم من توفر الأدوات التكنولوجية الحديثة التي تسهم في انجاز العمل المنزلي بصورة أسرع ، والتي تسهم كذلك في الاقلال من الجهد الذي يبذل فيه .

ولا شك أن طريقة أداء العمل المنزلي والمستوى الذي يتم انجازه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن أسلوب العمل ينتقل أساساً من الأم الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

وللعمل المنزلي اتجاهان مختلفان :

الاول : ان تأدية ربة البيت للعمل المنزلي يمثل جزءاً من تصورهما لذاتها .

الثاني : يفصل دور ربة البيت عن دور الأم ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدي الذي يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلي يعتبر موضوعاً شخصياً لغالبية النساء ، والرضا بقبوله أو عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقابلات التي تمت لمجموعة من ربات البيوت . لموضوع البحث الذي قامت المؤلفة باجرائه تشير الى رضا غالبية ربات البيوت عن عملهن ، بل انها تشير الى أكثر من ذلك، فهن يعطين العمل المنزلي أولوية على الأعمال الأخرى التي يقمن بها .

وكان تركيز المؤلفة على حالات أربع ، درستها دراسة مركزة ، تناولت فيها : الحياة الزوجية، المسكن، الأثاث ، التعليم، المساواة، الزواج المبكر ، العمل بالاجر قبل وبعده والوظائف ذات المهارة المنخفضة . وتطرق فيها الى اثر البيئة الاجتماعية في تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلي ورعاية الطفل .

وقد اسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن أن العمل المنزلي يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما اوضحت مدى الاهتمام الذي حظي به العمل المنزلي، فكثير من ربات البيوت قد أقدمن على ترك الأعمال التي عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الاطفال ، كما اثبتت تلك الدراسة أن غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلي كما كانت تؤديه امهاتهن .

الاساس . ولما كان علم الأثولوجيا يهتم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعى (١) فقد حاول الأثولوجيون من العلماء تفسير اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فارتباط دور ربة البيت في نظرهم بالمرأة دون الرجل له جذور بيولوجية ، بل انهم يربطون كذلك تقسيم العمل في المجتمعات الصناعية بين الذكر والانثى بتقسيم العمل في المجتمعات التقليدية في الماضى والحاضر .

واذا كانت نظرة الأثولوجى ترجع الى الطبيعة وتقوم على الافتراض فان نظرة الانثروبولوجى قد جاءت على عكس ذلك ، فهي تعتمد على معلومات معينة مستمدة من دراسات للمجتمعات التقليدية وكان (ميردوك) واحدا من الانثروبولوجيين الذين أقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية يتميز بها عن المرأة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الأعمال مشقة ، في حين تحتم الطبيعة الفسيولوجية للمرأة قيامها بالأعمال التى تتطلب جهدا أقل كجمع الطعام واعداده ، وصناعة الملابس والنسيج .

وقد لوحظ ازدياد التخصص والتعاون بين الجنسين في كل المجتمعات الانسانية على هذا الاساس البيولوجى .

واكتسب الرجل في ضوء ذلك بعض المميزات ، فالمرأة عليها أن تقوم برعايته ، فهي توفر له الطعام ، وتهىء الظروف المنزلية المناسبة لراحته ، الى جانب ما تبذله من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية . ان الرجل لم يكتسب هذه الصفات فحسب ، انه اعتبرها حقاً مكتسباً دائماً ، وعلى المرأة أن تنهض به وقد منح هذا الحق استناداً

### سادسا - مكانة المرأة :

ان تحديد مكانة المرأة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هذا الدور بها الى الحد الذى أصبح معه احدى الميزات التى تختص بها المرأة دون الرجل - لم يكن النسق الصناعى وحده هو الذى أدى اليه ، بل ان هنالك قوى أخرى قد تدخلت في ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الاساطير التى تتحدث عن وضع المرأة في المجتمع ، والايديولوجية التى تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الانثى ، وقصر اهتمامها على الشؤون المنزلية .

وقد ظهرت اسطورتان تحددان مكانة المرأة سنعرض للحديث عنهما لتبين ما كان لهما من اثر في تحديد تلك المكانة .

والاسطورة الاولى اذ تحدد مكانة المرأة تعالج ذلك في ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس . اما الثانية فهي تحدد هذه المكانة على أساس الامومة .

وتقوم الاسطورة الاولى اساسا على قصر دور المرأة على الاهتمام بالشؤون المنزلية والعائلية باعتبار انه الدور الطبيعى في كل المجتمعات وعلى المرأة أن توضح هذا الدور للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفي ضوء تقسيم العمل حاول بعض العلماء مناقشة طبيعة دور المرأة . ومنهم علماء الانثروبولوجيا ، والسيكولوجى .

وعلم الانثروبولوجيا ، والأثولوجيا ، والسيكولوجى تعتبر من المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس ، والتى تحدد مكانة المرأة على هذا

(١) الأثولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة بمعنى آخر للعلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التى تميز جماعة عن جماعة أخرى فكل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

الى الأساس الذى يركز عليه فى تقسيم العمل  
الا وهو الجنس .

والملاحظ أن الأيولوجيا لم تختلف عن  
الانثروبولوجيا فى مناقشتها لموضوع دور ربة  
البيت ، وقصر هذا الدور على المرأة ،  
واختصاصها دون الرجل بالنهوض به ، بل  
أن كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا فى البناء  
الاجتماعى لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الرأى يواجه معارضة ، اذ أن  
تقسيم العمل لا يتم على أساس الجنس فقط،  
وانما تمثل الاعتبارات الثقافية أساسا آخر  
فى هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجى الذى  
تنهض به المرأة ، والذى يتمثل فى الحمل والولادة  
والرضاعة وتربية الاطفال ، ليس وحده الذى  
يحدد التقسيم بين الجنسين فى المجتمع ،  
بل أن للقيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة  
والانوثة دورا آخر فى هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المرأة فى معظم الثقافات  
بل وفى كل انحاء العالم بالدور الانتاجى  
وخاصة فى فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجى كان  
يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلى ويستنفذ  
حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها  
الذى تنهض به فى رعاية الاطفال .

وكان يساعدها على أداء هذا الدور والد  
زوجها أو جماعة الاقارب ، كما أن أكبر  
الاطفال سنا يشارك فى المساعدة أيضا .

والمرأة لم يقتصر دورها على العمل  
الانتاجى وحده بل كان لها دور فى الحروب  
فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه  
الملايين من النساء شاركت فى مختلف الاعمال  
فى الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل فى  
الاعمال العسكرية بمختلف أنواعها ، وقامت  
بالمشاركة فى أعمال البناء والزراعة وأن ذلك  
ليدل على أن المرأة نهضت بأعمال كثيرة خاصة  
بالذكور فى كثير من المجتمعات .

وكل ذلك انما يهدم اسطورة تقسيم  
العمل على أساس الجنس من أساسها ، حيث  
قامت المرأة فى مختلف المجتمعات بالاعمال  
التي تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المرأة  
البريطانية بالعمل الذى يتطلب جهدا كبيرا فى  
هذا المجال . هذا فى القرن الماضى ، ولا تزال  
تمارس مثل هذه الاعمال فى انحاء العالم  
خاصة فى افريقيا ، فها هي تعمل بالزراعة  
بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات  
الانثروبولوجية الى قيام المرأة بأعمال شاقة  
مثل أعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير  
الى أنها عملت فى بعض المجتمعات بالتجارة ،  
وتحملت فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

ومع اختلاف الثقافات فى نظرتها تجاه  
الاعمال التى يقوم بها كل من الجنسين فان  
هناك اتفاقا على أن رعاية الطفل تعتبر عملا  
طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة فى  
المجتمعات الصغيرة حيث تحمل المرأة الطفل  
أكثر الاوقات ، كما تقوم بأعمال أخرى تبلل  
فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على أساس  
الجنس والتي تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل،  
قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد  
أدت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل  
من الرجل والمرأة يمثل نمطا واحدا فى كل  
الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك أن هذا التعميم  
قائم على أساس بيولوجى ، مع وجود كثير  
من الأمثلة التى تكشف عن خطأ هذا التعميم .

كما أن القول بأن دور ربة البيت ليس  
قائما فى كل مجتمع ، وأن وجوده يتوقف على  
نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ،  
حيث أن تعدد الثقافات لا يرجع الى القسوى  
البيولوجية وحدها وانما يرجع الى قدرة  
الانسان على الخلق والابداع .



ان استمرار النسق الاجتماعي في الوجود، واستمرار العائلة كذلك امر حتمي، واستمرار هذا النسق يقتضي تقسيما للعمل يقوم على اساس الجنس كما يقتضي تمييزا للدور في العائلة، وهذا يحتم ان تكون المرأة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عائليا فان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس تحمي النظام الاسرى وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى ان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس هي اساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجي والانثروبولوجي، والايولوجي .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التي تحدد مكانة المرأة على ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس .

اما بالنسبة للاسطورة الثانية فانها تحدد تلك المكانة على اساس الامومة .

والامومة هي دور ثابت في كل زمان ومكان، لا يطرأ عليه تغيير او تبديل في حين يتغير دور ربة البيت، بل ويتغير كذلك دور الزوجة .

وهذا الثبات الذي يتميز به دور الامومة يؤكد حاجات اساسية ثلاث :

**الاولى :** ان الاطفال دوما في حاجة الى امهاتهم .

**الثانية :** وان الامهات ايضا في حاجة الى اطفالهن .

**الثالثة :** ان الامومة هي العمل الاكبر الذي تقوم عليه حياة المرأة .

وهذه الحاجات الثلاث، يكمل بعضها البعض، وهي حقائق معروفة في كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تتضح في عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تركز التنشئة الاجتماعية

بقي ان نتحدث عن المصدر السيكولوجي الذي يعد احد المصادر العلمية التي قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدي للجنسين ويعتبرون ذلك اساسا لاستمرار النظام الاجتماعي وبقائه .

فالمصدر السيكولوجي اذن يعتمد على الاتجاه الوظيفي بتركيزه على اهمية الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصدر السيكولوجي كالمصدر الانثروبولوجي والايولوجي للاسطورة يؤكد الافتراض القائل بان وضع المرأة في المجتمع يتحدد بالضرورة بيولوجيا وعلى اساسه يتحدد مكان المرأة في بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الاطفال في الاسرة . والام هي التي تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور اجتماعي حيث انها تنهض بهذه الرعاية من الحمل والولادة، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل ورعاية الزوج نفسه في الوقت الذي يكون فيه الرجل حرا منطلقا في كثير من المجالات بينما تكون المرأة مقيدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبريرا آخر غير التبرير البيولوجي، والتحليل السيكولوجي لبناء العائلة يشير الى تأكيد القيم التقليدية لدور الجنسين، ويفرق بين الدور المساعد او المساند والدور التعبيري، ويعتبر دور المرأة دورا تعبيريا، واساس ذلك الاعتبار ما تقوم به المرأة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل، وما تقوم به من تدعيم للعلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذي يختص به .

ان السيكولوجي يؤكد ان دور الجنسين اساس لبقاء المجتمع في صورته الحالية، فدور المرأة - كعامله دون اجبر ومربية وراعية للاطفال وقائمة على خدمة الرجل توفر له حاجاته الانسية والعاطفية - استثمار اقتصادي .

يخلق المشاكل التي تعوق المرأة عن رعاية الأطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لا يمكن لأحد غير الأم اشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل أم يقتصر ذلك على الأعمال المنزلية أو أى أعمال أخرى تشغل المرأة .

وحيث أن الأم ترتبط ارتباطا وثيقا بالطفل ، خاصة في مرحلة الطفولة الاولى ، فعليها أن تصلح أخطاءها وتعديل سلوكها ليكون سلوكا مثاليا لما لذلك من تأثير في حياة الطفل . فالأخطاء التي قد تقع فيها الأم تتغلغل في حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الأمومة في المجتمع الحديث إلا أنه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح أن كلا الاسطورتين، اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس واسطورة الأمومة ، يمثلان عاملا من العوامل الأساسية التي تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلي، بل يشير مضمونها أيضا الى ظلم المرأة واضطهادها .

أوردت المؤلفة في ختام كتابها فصلا يعرض لكيفية تحرر المرأة من الأعمال المنزلية التي تستغرق الكثير من وقتها ، والتي تكلفها جهدا كبيرا ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

وأساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ما تراه من أن تحرر الأمة كلها رهين بتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثا وضعتها لينين وراها سبيلا لتحرير المرأة من هذا العبء الذي ينقل كاهلها .

الطريقة الاولى : تتمثل في إلغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل في إلغاء العائلة

أما الثالثة : فهي تتمثل في إلغاء تقسيم العمل على أساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الاولى التي تستشهد بها المؤلفة باعتبارها واحدة من

الاهتمام في المرحلة الاولى على اعداد الانثى لدور الأمومة كدور لكل الاناث . وإن ابتعدت بعض النساء في الوقت الحاضر عن هذا الدور نتيجة لما طرأ على المناشط الانثوية من تغيرات . فالمرأة تعهد الى غيرها مسئولية تربية الأطفال لكي تنفرغ للأعمال الأخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة أن تهتم بعدم حبها للأطفال أو بعدم رغبتها في رعايتهم .

أن الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الأطفال الى أمهاتهم . ويمكن تقويم الأمومة على أساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل أن يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالامر يتعدى ذلك بالنسبة لرابطة الأمومة التي تمثل ارتباطا روحيا بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحي بين الطفل والأم يؤكد أن أى رعاية يتلقاها الطفل من أى إنسان آخر خلاف أمه لا تساوى مطلقا رعاية الأم . ولذا يتحتم على الأم أن تكون بجوار الطفل خاصة في مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الامهات العاملات عن غيرهن من النساء في كل العصور والثقافات ، فهن يشاوكن في مناشط الحياة الاقتصادية الانتاجية في المجتمع ، ويقمن في نفس الوقت برعاية الأطفال ، وإنما يكون الاختلاف في نوعية الرعاية التي يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث أن تلك الاتجاهات هي التي تحدد نوع الرعاية التي يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذي يحددها .

ولذا يكون الاعتقاد السائد بأن عمل المرأة يتعارض مع وجود الأطفال اعتقادا لايرال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائما ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فإن لها مشاكلها التي تمد تصرفها عن رعاية الأطفال ، وأعباؤها المنزلية قد تحول بينها وبين امكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخروج المرأة للعمل الذي يتحقق من ورائه الكسب المادى ليس وحده الذي

## ربة البيت

فالأجور حينئذ تكون بمثابة منحة وليست اجرا ، فالاجر يقدم في هذه الحالة نظير قيام ربة البيت بتربية اطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من انواع الرعاية للطفولة والامومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية عند انجاب الاطفال . فهي وان قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للام .

ان سعادة المرأة بالعمل المنزلى امر يحوطه الشك ، اذ ان التزامها بهذا العمل يفرض عليها ان تكون في وضع التابع في المجتمع ، والمجتمع كذلك ينكر اهمية العمل المنزلى لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حائلا دون اى مطالب تهدف المرأة من ورائها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير اسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المرأة اكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك اكثر قلقا ، وخاصة اولئك النساء اللاتى يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان اهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق اهميته بالنسبة للمرأة ، فالدور الاهم بالنسبة للمرأة هو دور الزوجة والام ، والاكثر من ذلك اهمية قبول المرأة للوظائف التى تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المرأة عليها ان ترفض الراى الذى يربطها بالعمل المنزلى وحده وهو الذى يرى ان المرأة تعنى ربة البيت .

ولا شك ان الدعوة الى الغاء هذا الدور — دور ربة البيت — يتضمن الدعوة الى الغاء الاسرة ، فالاسرة رمز للعمل المنزلى ولاوجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يختص بالطريقة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة فهي تتمثل فى الغاء العائلة او الاسرة ، واساس ذلك ان الاعمال المنزلية تمثل نوعا من الاستعباد

الطرائق المؤدية الى تحرير المرأة ، والتى تتمثل فى الغاء دور ربة البيت ، فانها تعنى التركيز على نوع العمل الذى تقوم به المرأة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكتنفه حوافز او دوافع تشعر المرأة مع وجودها بالرغبة فى الابداع او حتى محاولة التقدم فى هذا العمل ، وهي كذلك لا تشعر بمتعة ما فى تأديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق ربة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ، ولكن العزلة التى تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها او التقدير ممن حولها .

وعلى الرغم من بذل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلى وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة ربة البيت ولتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لذاتها الا ان ذلك كله لا يؤدى الى تحريرها .

ان محاولة الغاء دور ربة البيت امر يحتاج الى مناقشة تنتهي برفضه او قبوله .

فهناك بعض الآراء التى تتفق على ان تهيئة الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير اجر معين يمنح نظيره قد يؤدى الى اقبال المرأة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الآراء يرون ذلك اولى الخطوات لتحسين وضع المرأة الاجتماعى .

وهناك آراء اخرى ترى ان الظروف كلها مهيأة لاسعاد المرأة فى حدود الامكان وتتصدى للآراء السابقة التى ترى تقرير اجر يمنح لربة البيت ، وانما تعارض تلك الآراء نظرا لانها سوف تضيف ظلما جديدا للمرأة ،

للمرأة ، كما أن هذه الاعمال لا تعدو أن تكون مجالا تعليميا تجريديا لا تستفيد منه المرأة .

وتعتبر الاسرة رمزا للعمل المنزلى ، حيث تركز هذه الاعمال اساسا على وجودها والنهوض بهذه الاعمال لا يخرج عن كونه عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمرأة ، فالمرأة تفرس في بناتها هذا الدور الثابت منذ الصغر ويتم ذلك من خلال توحيد الام بابنتها على عكس علاقة الاب بالابن .

وهذه العلاقة تنشأ قبل ميلاد الطفل ، فالطفل جزء من امه وتظل الانثى بعد الميلاد جزءا من الام .

وارتباط الطفل بالام على هذا النحو يؤدي الى اكتسابه كل ما يريد ان يتعلمه من الام ، والاسرة ممثلة في ربة البيت تمثل موقفا تجريبيا يمكن للاطفال عن طريقه ممارسة الحب وتكرار السلوك الذى قد لا يكون منطقيا ، فالام في نظر الطفل هي الحاضر وهي المثل الاعلى للحب ، والهدية التى تقدمها الاسرة للمرأة تتمثل في تهيئتها وتدريبها على النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فان القول بالغاء دور ربة البيت يعنى بالضرورة الغاء الاسرة ، حيث أن ربة البيت هي الزوجة وهي الام ، ومهما حدث من تغيرات في العلاقة بين الرجل والمرأة على مر السنين فلن يغير ذلك من دور المرأة التقليدى الذى يتمثل في القيام بالعمل المنزلى .

وقد اوضحت نتائج البحوث أن الزوجة المعاملة تقصر في دورها كربة بيت ، وان اى مكاسب تحصيل عليها تكون على حساب هذا الدور .

وان ايدولوجية المجتمع هي التى تحدد دور الزوجين وبناء العائلة وهي غير قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استبعاد الانسرة أو الفاؤها قولا لا فعلا ، وتصورا لا حقيقة .

والطريقة الثالثة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة تتمثل فى الغاء تقسيم العمل على اساس الجنس . الحقيقة ان كثيرا من الثقافات تؤكد شيوع هذا الذى تدمو الحاجة الى الغائه .

وان الدعوة الى الغاء دور ربة البيت يؤدي ضمنا الى الغاء الاسرة ، ولكن ذلك ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه الى ضرورة الغاء التمييز بين الجنسين .

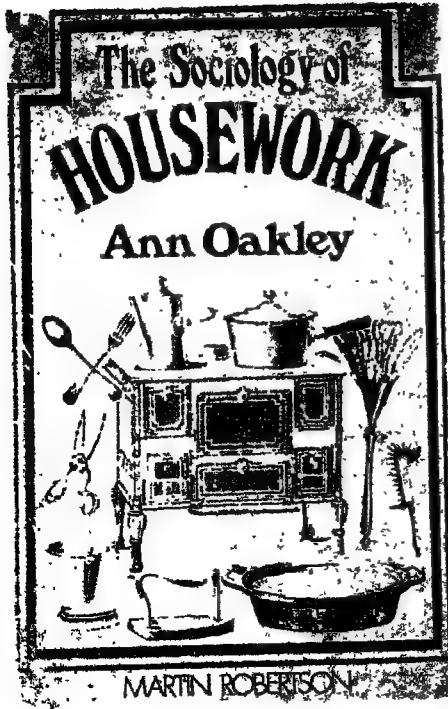
وهذه الطرائق الثلاث التى استشهدت بها باعتبارها السبيل لتحرير المرأة قد واجهت الكثير من المعارضة ، فالغاء دور ربة البيت والاسرة وتقسيم العمل على اساس الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها الى واقع فعلى ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المرأة الاقتصادى والسياسى والقانونى في المجتمع ، هو امر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضى ان يغير الناس انفسهم أولا .

ولذا فالمرأة يمكنها ان تتحرر من العمل المنزلى عن طريق :

١ - رفض اى محاولة لربطها بالعمل المنزلى وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ - محاولة الحصول على كل ما تشاء من امتيازات لقيامها بتربية الاطفال . وعليها الا تعتمد الى تعليم بناتها كيفية القيام بتدوير ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك في نفوسهم منذ الصغر ، وفى الوقت ذاته يجب ان تربط الابناء بالعمل المنزلى دون ان تخصص الاناث بهذا العمل وتقصره عليهن .

٣ - محاولة التصرف في العمل المنزلى وابتكار الاساليب التى تمكنها من إنجاز هذا العمل فى اقصر وقت ممكن ، وعلى المرأة فوق ذلك ان تغير نفسها ابتعادا لكسب معركتها تحريرها .



## سوسيولوجيا العمل المنزلي

١٠٠٠ آت أوكللي \*

### عرض وتحليل الدكتور سامية من الساعاتي

ويتناول هذا الكتاب قضية هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدي من المرأة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديرة بالاهتمام مثل : نظرة النساء للعمل المنزلي ، ونظرتهم لأنفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهن المختلفة نحو العمل المنزلي ، واتجاهاتهن نحو الاعمال المنزلية المختلفة من طهي وتنظيف . . الخ . ومدة العمل المنزلي الذي تقوم به المرأة محسوبا بالاسبوع . ومدى أهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد من أن العمل المنزلي يتم على وجه أكمل ، وكأسلوب على مكافأة الذات .

وقد حاولت الباحثة في هذا الكتاب وضع تقييم يكشف عما اذا كانت النساء راضيات أو

تأتي أهمية هذا الكتاب من انه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المرأة ، فهو دراسة تتحدى النظرة التقليدية الى العمل المنزلي التي تحاول دائما التقليل من شأنه ، كما انها تتحدى اهمال السوسيولوجيين ، وبخاصة المتخصصين في علم الاجتماع الأسري وعلم اجتماع العمل ، للعمل المنزلي ، كموضوع علمي جاد .

فقد دأب الباحثون في علم الاجتماع الأسري على دراسة المرأة اما من خلال دورها الأسري كزوجة وأم ، او من خلال دورها كعاملة خارج المنزل ، لكن دورها كعاملة داخل المنزل بدون أجر لم يحظ بدراسة جادة أو منظمة .

\* Ann Oakley, The Sociology of House Work, Martin Robertson, 1974

الذى أصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفي هذا الفصل تعرض المؤلفة لوضع المرأة في المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذى تصفه بأنه معوق ومنتقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية فى صالحها ، ومن صغر حجم الاسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التى زادت وتحسنت وانفتحت امام النساء ، خلال القرن الاخير ، الا انه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الادوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكل انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، فى شكل حركة تحرير المرأة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو أن الموقف الذى نشهده الآن ليس نتاج الدعامات البيولوجية لادوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذى تفرضه وتصر عليه نظم المجتمع ومؤسساته المختلفة فقط ، وانما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء الى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة فى المجتمع .

ان حقيقة وضع المرأة كما ترى المؤلفة يكمن فى أنه يتشكل يوميا من هذه الاتجاهات . ان النساء يصبحن على الوجه الذى هن عليه ، تبعا للطريقة التى يتوقع منهن أن يكن عليها ، او التى يفكر الناس فيهن على اساسها .

وتأسيسا على ما تقدم فاننا لا نجد أن التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان فى المجتمع الكبير فحسب ، بل ان هذا التمييز وتلك التفرقة ينسحبان أيضا على الميدان الاكاديمي ويتضح ذلك بجلاء فى علم الاجتماع ؛ العلم الذى يدرس الواقع الاجتماعى ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المرأة ، يعكس ، بل يطابق ذلك التمييز وتلك التفرقة الموجودين فى المجتمع الكبير بحيث يمكن القول ان التحيز

غير راضيات عن العمل المنزلي ، ومدى الاختلاف فى درجات الرضا بينهن . كما يتناول الكتاب أيضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلي والرضا عنه ، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمرأة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربة البيت وزوجها فى المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلي ، واجبات الامومة .

وعمداد هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة فى سنة ١٩٧١ على أربعين زوجة من ربات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها الى فئتين مختلفتين من القراء ، الاولى تتألف من المتخصصين فى علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بموقف ربة البيت اهتماما خاصا دون ان تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب فى جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التى يثنى عليها هذا الكتاب ، كانت عينة انجليزية ، فان وضع الزوجة ربة المنزل فيها ، ينطبق فى أساسياته على الزوجات فى مجتمعات صناعية معاصرة أخرى .

### فصول الكتاب :

يحتوى هذا الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الاول** وهو فى رأينا أهم الفصول على الإطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهى قضية التحيز الذكري فى علم الاجتماع . ولايتأتى تقييمنا لهذا الفصل على أنه أهم فصول الكتاب من أهمية موضوعه فقط ، بل لان هذا الموضوع هو الفكرة الأساسية التى تتكرر فى كل فصول الكتاب ، بل وفى كتب المؤلفة الاخرى ولعل ذلك انعكاسا لصداء موضوع التحيز ضد المرأة لا فى علم الاجتماع بخاصة ، بل وفى العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع

ويعد التوجيه الذكري من وجهة نظر المؤلف أهم المشكلات المسببة عن اختفاء المرأة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكري المتجسد في تحديد موضوعات علم الاجتماع انما يقلل من شأن المرأة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبييا ، ويجعلها دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فان التصنيف الحالي لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء في وضعهن الحالي .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلي على سبيل المثال ، وهو عمل اساسي للمرأة ، فسنجد ان اغفال هذا الموضوع من ميداني علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل انما ينقل بوضوح انطبعا محرفا ومشوها عن موقف المرأة الحقيقي . فليس هناك اهتمام بمدى أهمية العمل المنزلي للمرأة ، لا من حيث مقدار الوقت الذي تنفقه في الانشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتي للعمل المنزلي بالنسبة للمرأة الذي يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة أخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المرأة في علم الاجتماع ووجودها الاجتماعي الحقيقي ، كما يعد أيضا دليلا على فشل علم الاجتماع في اخذ خبرات المرأة وواقع حياتها في الاعتبار . ويمكن ان يوحى ذلك باعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينه بحيث تمثل كلا المنظورين الذكري والانثوي على السواء .

**وتمضى المؤلفة الى الفصل الثاني من الكتاب لتحلل العمل المنزلي بوجه عام ، وتصف البحث الذي قامت به بوجه خاص .** وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، بتزايد في السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث في عالم العمل والمهن والوظائف ، فسيظل هناك دائما دور وظيفي انثوي برمته وهو دور ربة البيت .

ضد المرأة في علم الاجتماع انما يشكل الوجه الآخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها في المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلفة في هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين اساسيين ، وثيقى الصلة بالآخر : اولهما هو اعمال علم الاجتماع للعمل المنزلي كموضوع علمي جاد ، وثانيهما وهو الاكثر شمولاً ويتركز في التحيز ضد المرأة في علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المرأة ، لانه علم موجه توجيهها ذكوريا ( Male Oriented ) وتعنى المؤلفة بذلك انه يمثل تركيزا على أنشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متميز من حيث الذكورة والانوثة . ان الوضع الاجتماعي للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعي للمرأة ، من الناحيتين البنائية ، والايديولوجية على السواء . كما نجد ان النسق القيمي السائد في المجتمعات الصناعية الحديثة يخلع على الادوار الذكورية أهمية وقدرًا اعظم مما يفعله بالنسبة للادوار الانثوية ، وبالمثل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة ينعكسان على علم الاجتماع ، الذي ينحو الى بنى قيم المجتمع الاكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التي تمثل مسلمة اساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجي ، يمكن ان تقلل كثيرا من التحيزات الظاهرة في مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تاليرا عميقا في هذا التحيز المتأصل ضد الاناث في علم الاجتماع .

ان وضع المرأة كموضوع في علم الاجتماع يعطينا انطبعا محرفا عن الواقع الاجتماعي الحقيقي لوضعها في المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المرأة وأهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تتفق صورتها مع الصورة المحددة لها سلفا في علم الاجتماع ، والموجهة توجيهها ذكوريا في المحل الاول .

ذلك اذن هو التبرير الاساسى لدراسة العمل المنزلى ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة فى حياة معظم النساء اللاتى يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التى تطلق عليها المسح الاستطلاعى الكشفى ، والسبب فى هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات فى هذا الموضوع الذى صادف اهمالا بالغيا فى علم الاجتماع .

وتبدأ بتعدد اهداف دراستها التى تجملها فى ثلاثة اهداف رئيسية ، اولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلى ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثانى يتبلور فى فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلى فى علاقته بعدد من المتغيرات التى تتضمن الطبقة الاجتماعية ، والتربية والتعليم ، وتقسيم العمل فى الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعى . الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر فى اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا ان هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية تقف عائقا امام الرجل ، وتمنعه من الدخول فى رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلفة هذا الفصل بتعريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التعريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هى الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلى) عن معظم المهام المنزلية ، او عن الاشراف على الخادم المنزلى الذى يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متزوجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لا تكون ، وقد افصح ذلك المسح الذى قام به «هنت» ( Hunt ) عن ان تسعة اعشار النساء من غير العاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة اعشار العاملات خارج منازلهن من ربات البيوت . (١) وعلى هذا لا يكون دور ربة البيت دورا اثويا فقط ، بل انه يعد الدور الوظيفى الرئيسى للمرأة فى عصرنا الحالى ، لان مسئولية ادارة المنزل هى مسئولية مشتركة بين معظم النساء بالغات .

( ١ ) تتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلى :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بشئون المنزل بين الزوجين فى الاسرة الحضرية ان الزوجة العاملة فى معظم الحالات تقوم بعمل كل شيء يتعلق ببيتها بعدودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يذهب اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلى فى بيتها . وقد تبين من استعراضنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، ومدى بساطة لاضطلاع الزوجة بالنصب الاكبر فى القالبية العظمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا على الرغم من وجود الخادمة فى الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن الساماتى ، الدور الوظيفى للزوجين فى الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية فى الريف والحضر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٢١ .

« ويتفق هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » عند تفحصها للنشاط المنزلى لعينة تبلغ الواحد والسبعين من الامهات العاملات ومدى اسهامهن فى اعمال البيت . اذ تبين لهما ان اقلية الامهات العاملات ونسبتهن ٦٤.٨ ٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال فى البيت بعد هودتهن من العمل ، وان اقلية من هؤلاء الامهات العاملات بنسبة ١٢.٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ٢٢.٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراف فى بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الحضنة والمجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .



التفكير الشعبي المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد في عمل محقر ، كره ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . اما الفكرة الثانية فتري ان العمل المنزلي يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على انه عمل بل على انه صناعة منزلية يشكل فيها المنزل وزارة للمالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبارا ، ان هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلي كعمل قد بدأ يبرز . فالنساء في عينة البحث يخبرن العمل المنزلي ، ويعرفنه على انه عمل مماثل لذلك الذي يتطلبه أى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا وثيقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لمظاهر العمل المنزلي التي اطلق عليها انها مشبعة أو غير مشبعة نظائر في عالم المصنع ، والمكتب . ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انعكاساتهن نحو العمل المنزلي بخبرتهن في العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلي وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات في مظاهر كثيرة اهمها الاستقلال والدائية ، ووجود الاطفال ، ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصدت عينة الزوجات بالدائية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلي وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبربات في اجابتهن عن هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصفن شعورهن ازاء العمل المنزلي . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

بين ربوات البيوت فيما يختص باتجاهاتهن نحو العمل المنزلي ، وموقف العمل المنزلي ذاته . .

وقد تكونت العينة من اربعين من ربوات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللاتي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبار ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنتين من الاطباء العموميين . وقد تم استبار افراد العينة في اوائل سنة ١٩٧١ ، وكان عماد البحث استبارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين في المتوسط . وعلى أساس من اجابات الاستبارات قننت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلي بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر أخرى داخل موقف العمل المنزلي ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلي والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجى بأجر ، كما كان هناك تقييم لدرجة توحيد المرأة مع دور ربة البيت ، واهمية تحديد معايير للعمل المنزلي وروتينيته .

وترى الباحثة ان النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى انه ليس هناك من سبب يدعو الى القول بان هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على ان تلك التسجيلات لا تعكس الواقع .

وتمضى الباحثة في وصف دراستها ، فتقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن اربعين كن من الطبقة العاملة ، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

١ - اما الفصل الثالث فيعطينا فكرة واضحة عن صبور العمل المنزلي وتبدؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلي في

مقارنة عقدها النساء بين العمل المنزلي والعمل  
الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك .  
انك تستطيعين أن تحددي ما تريدين أن تفعلي  
وما لا تريدين ، انه شيء مختلف عن الوجود  
في عمل وظيفي ، حيث يدق أحدهم الجرس ،  
فتضطرين الى الصعود او الهبوط لتلبية  
طلبه ، أو حيث تجدين نفسك مضطرة لاتجاز  
هذا العمل ، وذاك في غضون نصف ساعة » .

وفي اجابة أخرى نجد تعبيراً آخر عن  
مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت ، هو  
انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكراً ،  
والذهاب الى العمل » .

وفي الحقيقة ان الذاتية والاستقلال فيما  
يتعلق بربة البيت هي امر نظري أكثر منه واقعي  
متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها  
واجباً ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلي  
وتتأكد من ان كل شيء في موضعه . ومسئولية  
العمل المنزلي هي مسئولية من جانب واحد  
فقط ، والفشل في تحملها ، قد يكون له نتائج  
بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه  
يضيف الى الضغوط السيكولوجية لاداء العمل  
المنزلي أكثر من كونه يخفف منها . وتوضح  
احدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان أسوأ شيء يتعلق بالعمل المنزلي هو  
انك تضطرين لادائه لمجرد انك في المنزل . وعلى  
الرغم من اني أملك حرية الاختيار في الا اقوم  
به ، فاني اشعر اني لا أستطيع ، لانه يجب أن  
اقوم به » .

وتصوره أخرى بقولها :

« ليس هناك أحد يمسك لي سوطاً اذا  
لم اقم بالعمل المنزلي ولكني أعرف ، انني اذا  
لم افعل ، فغداً سيكون علي أن اقوم بضعف  
العمل ، ففي الحقيقة انني اقوم بامساك السوط  
لنفسي » .

ان مسألة حرية العمل المنزلي يمكن  
اختزالها في أنها حرية من ، وليست حرية تفعل .  
انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست  
حرية لها لتختار ما تفعله من أنشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوئ  
العمل المنزلي تبلورت الاجابات بالترتيب في  
العمل المنزلي نفسه ، والرتابة ، والتكرار  
والسأم ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعزلة  
والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلي  
والتقيد الشديد بالمنزل .

وعندما طلب من الزوجات ان يقارن  
عملهن المنزلي ، بعمل أزواجهن ، كانت معظم  
الاجابات تشير الى انهن يعتقدن انهن يعملن  
أكثر من أزواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة  
منهن الى أن الزوج يعمل أكثر ، أو أن هذه  
المسألة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع  
العمل من جهة أخرى . وقد صورت إحدى  
الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك ان ربات البيوت يعملن أكثر .  
ان زوجي يعود دائماً من عمله ، ليقول لي :  
لقد جلسنا اليوم وتحدثنا في كيت وكيت .  
أو لقد كان يوماً مسلياً فقد ضحكنا ، وتسامرنا  
حول كذا من الموضوعات . اما أنا فلا افعل  
ذلك ، اني لا أجلس لحظة » .

تعملين ؟ واجيب بانى ام ، ولى اولاد ، واننى زوجة ، فانهم يهزون رؤوسهم باستخفاف قائلين : اوه ، مجرد ربة بيت اننى اعجب... مجرد ربة بيت ! اشق مهنة فى العالم ... ينظر اليها بهذه الطريقة ! » .

ويتبين مما سبق ان مسألة التصنيف المهنى او الوظيفى مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة الذات ، لانها تعكس كيفية رؤية الزوجات لانفسهن كربات بيوت ، ولكن مهما كان مستوى توحد الزوجات الذاتى مع دور ربة البيت ، فيكفى ان الفكرة السائدة عنه فى ثقافة المجتمع هو أنه عمل تافه وضيع ، منخفض المكانة بالنسبة للاعمال الأخرى ، وهذا ما يخلع عليه اوصافا معينة مثل العمل الممل ، او العمل التافه ، وما يخلع على ربة البيت اوصافا مثل المملة ، والغبية ... الخ من الاوصاف السلبية وتصور احد الزوجات ذلك بقولها :

« انى اتخرج من كتابة ربة بيت على اية اوراق رسمية ، انى افضل ان اكتب سكرتيرة مثلا أو اية وظيفة أخرى ، فان لها انعكاسا احسن ، ان معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو رتبيا مملا . انك لا تتوقع حينئذ الا التنظيف ، والاثربة ، والطبخ » .

تنتقل الباحثة بعد ذلك الى نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهى مسألة الخلط بين الأنشطة المختلفة التى يتضمنها العمل المنزلى ، ومدى الحاجة الى تحديدها ، وتصنيفها . ان العمل المنزلى فى رأيها هو مجموعة من الأعمال غير المتجانسة التى تتطلب مهارات متنوعة ، وانواعا مختلفة من النشاط ، فمسح الأرضية يختلف عن الذهاب لشراء بعض اللحوم

وكثيرا ما يوصف العمل المنزلى بأنه « عمل لا ينتهى » ، ويذهب البعض الى انه عمل اكثر ارهاقا من الناحية الجسمية ، من اى عمل آخر مأجور . وتذهب بعض السيدات الى القول بأنه يأخذ جهدا عاطفيا اكثر من اى عمل آخر بالاضافة الى الجهد الفيزيقي . وتشير بعض السيدات الى طبيعة الاعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانظار ، الى الاحباط العاطفى الذى ينشأ عن كون احساس ربة البيت بأنها مشدودة الى طاحونة ، أو ساقية ، يتطلب منها أن تؤدي الفعل نفسه مرات ومرات .

والزوجات بوضعهن العمل المنزلى ضمن الاعمال اليدوية ، يجعلنه بذلك فى مرتبه عالية من مراتب الاعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلى ضرورى من جانب الزوجات ، ازاء الاهمال السائد لهذا العمل ، وازاء النظر الى ربة البيت على أنها مدبرة منزل تعمل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن ازاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيوت فى اية صحيفة أو اوراق رسمية . اجابت اكثر من نصف افراد العينة بأنهن يستشعرن حرجا ، ومشاعر بالاقليّة نشأت من ان العمل المنزلى عمل اقل من غيره من الاعمال ، وهن يعبرن عن ذلك بكتابتهن فى تلك الاوراق : « مجرد ربة بيت » . ان هذه الكلمة مجرد ربة بيت أو ربة بيت فقط تعنى الكثير ، انها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شأن هذا العمل مقارنة بالاعمال الأخرى ، كما ان هذا يتضمن ايضا تقليلا من شأن ادوارها كزوجة وام . وتصور احدى افراد عينة البحث هذه المشاعر اصدق تصوير حين تقول : « انى اكراه كلمة ربة بيت ، وعندما يسألوننى من انت ؟ وماذا

أقل بغضا الى ربات البيوت من غسيل الاطباق، رغم أن كلا العاملين يتطلب ازالة القاذورات من الاشياء .

ويعزى ذلك الى ان هناك ارتباطا شخصيا بالملابس . فالملابس التي تغسلها ربة البيت تنتمي الى زوجها أو أحد أبنائها ، أو اليها ذاتها . يضاف الى ذلك أن وسائل الاعلام تركز على عملية الغسيل وتغلفها بهالة جميلة في اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية الى ربة المنزل بأن نقاء غسيلها وبياض لونه هو أحد واجباتها الأساسية .

وجدير بالذكر أن استخدام الآلة بالنسبة لعمليتي غسيل الاطباق وغسيل الملابس ، يقلب اتجاه ربة البيت اليهما من كره الى تقبل ، وقد لوحظ ذلك بالنسبة الى الكثير من أفراد العينة (٢) .

أما التسوق، كدور من أدوار ربة البيت، فأمره مختلف ، ذلك أنه دور أكثر اجتماعية ، فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ، لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات أن التسوق من الاعمال المحببة لأنه يتضمن خروجاً من المنزل ، ومقابلة للناس ونوعاً من التغيير من جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات انهن لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ، لكنهن يفعلن ذلك لمجرد الخروج من المنزل ، أو لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة . ورغم هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكي لربة

والفاكهة ، وطهي وجبة يختلف عن غسل الملابس . الخ . واطلاقنا الاسم نفسه على كل هذه الاعمال أمر يتضمن انكارنا لوجود اختلافات وفروق بينها . ففي الحقيقة توجد بين هذه الاعمال ، أعمال أحب من الأخرى ، وأعمال أقل رتابة وبعثاً على الملل ، وأخرى أكثر خلقاً وإيجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر أن كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت كالطهي ، وغسل الملابس ، وكيها ، وتنظيف المنزل يمكن أن يشكل دوراً مهنيًا مأجوراً .

ومن تحليل المؤلف للامال المنزلية المختلفة وجدت أن أهمها هي : التنظيف والتسوق، والطهي ، وغسل الاطباق، وغسيل الملابس ، والكي . وقد كانت هناك أسئلة من أحب هذه الاعمال الى قلب ربات البيوت وعن ابغضها اليهن ، كشفت الاجابات عن أن أبغض تلك الاعمال ، كان كي الملابس لأنه عمل مجهد ورتيب ، يتلوه العمل الخاص بغسيل الاطباق لما فيه من قذارة ، وتكرار . أما تنظيف المنزل فأتى ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات البيوت له ، ذلك لأنه عمل متكرر لا ينتهى ، كما أنه على العكس من عملية التسوق ، عمل يؤدي في عزلة وصمت ، فعندما تعمل المكنسة الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع الآخرين ، بعكس ما يحدث لعملية الطبخ والكي، فيمكن لربة البيت تأديتهما وهي تتحدث الى صديقة مثلا . وتأتى بعد ذلك في الترتيب الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ، والطهي . أما بالنسبة لغسيل الملابس فهو عمل

( ٢ ) تتفق هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبه :

« ان الزوجات أنفسهن أصبحن يتضايقن من أداء الاعمال الخاصة بالغسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لأنها تتضمن قدراً كبيراً من ( الرمطة ) . ولكنهن يقبلن عليها كلما أصبحت آلية . »

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر السابق ، ص ٥٢٢ .

لنقل الطهي من كونه عملا الى كونه تسليية وقضاء وقت، وتمكس تلك المحاولة مثلا واضحا على الانتكار الاجتماعى لاعتبار العمل المنزلي عملا بالمعنى الصحيح . ولكن ايجابيات العمل المنزلى الخاص بالطهى تفسده سلبيات منها ان الاثراج يطلبون الطعام فى اوقات محددة ، وأن وقت طهى الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لغسل الملابس أو تغيير الاسرة ، أو اطعام الوليد أو الصغير . ومن السلبيات الاساسية لعملية الطهى تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهى ابدا وهى التفكير الدائم فى السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ن نلخص فى آخر هذا الفصل الايجابيات المتصلة بالاعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب اهميتها فى نظر الزوجات، وهى :  
التمكن من محادثة الآخرين اثناء اثناء العمل ، واعتدال المزاج اثناء اداء العمل المنزلى ووجود وقت كاف لادائه ، وان تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الادوات الحديثة ، ووجود مقدار كاف من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . اما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلى ، فتمركزت حول الملل والرتابة والتكرار، وعدم توفر الادوات المناسبة لاداء الاعمال المنزلية ، وانحراف المزاج اثناء العمل ، واعتراض الاطفال طريق ربة البيت اثناء ادائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافى لاداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطرار الدائم الى التفكير فى العمل المنزلى وتربيته .

مما سبق يتضح لنا يتضح لنا اذن صدق ما ذهبت اليه المؤلفة من أن ربوات البيوت ينظرن الى العمل المنزلى على أنه عمل يماثل غيره من انواع الاعمال الاخرى . ومن تحليل ملاحظاتهم عن أحب مظاهر العمل المنزلى ، وعن أبغضها بالنسبة اليهن تبين أن التحرر من الرقابة كان

لبيت فان هناك سلبيات لهذا الدور تتبلور فى المصاعب الفيزيكية . فاصطحاب اطفال اثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسمانيا وعقليا ، فان الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل أو اكثر اثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعا ، ويقلل من كفاءتها كمشتريه كما أن الانتظار الطويل فى بعض المجمعات الاستهلاكية ، أو المحلات أمر يبعث على الملل . ويلاحظ أن هناك فرقا بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئي ، ويحدث يوميا تقريبا لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلى يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة اسبوعيا أو كل اسبوعين . وهذا النوع الاخير من التسوق هو الاكثر كراهية من جانب ربوات البيوت لانه يتطلب جهدا مضاعفا فى شرائه وتوصيله الى المنزل ، ولا شك أن وجود سيارة ، وهو أمر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم فى التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

اما العمل السادس من الاعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهى ، والذي اعتبرته جميع ربوات البيوت اللائي تضمنتهن العينة اكثر الانشطة المنزلية قربا الى قلوبهن لانه يمثل فى رأيهن فنا خلاقا، واستعراضا للقدرة والمهارة . ولا شك أن نظرة ربوات البيوت للطهى على أنه عمل فنى خلاق ، يمثل انعكاسا للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتي تؤكد وسائل الاعلام والاعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التى تخصص كتبها بأكملها لهذا الفن . والملاحظ أن معظم التوجيهات الثقافية فى هذا المجال والتى تتناول الطهى بوصفه فنا ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت الى كيفية صنع اكثر الوجبات غنى بالمواد الغذائية المفيدة فى أقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة

في المقارنة بين بحثها وبين بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدي أساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديرة بالاهتمام في هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية في النوع وانما في الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربات البيوت ، اللاتي كان لهن عمل خارجي قبل الزواج ، في تفضيل العمل الوظيفي على العمل المنزلي على أساس أن العمل المنزلي يفقد المكافأة الاقتصادية ، ويتميز بالانعزال وتقص الاعتراف الاجتماعي بالمسؤوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن أهم النتائج التي توصلت اليها الباحثة ، هو انه ليست هناك فروق في الطبقة الاجتماعية بين الراضيات وغير الراضيات عن العمل المنزلي ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستبرات في عينة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلي سواء بين ربات البيوت من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى . اما من حيث اتجاه افراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربات البيوت من الطبقة العاملة بعامة أكثر ايجابية من مثيله بين ربات البيوت من الطبقة الوسطى . ومن هذا يتبدى أن ربات البيوت من الطبقة الوسطى أكثر ميلا لادراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلتهن من الطبقة العاملة . ولذلك فان الشكوى من تلك العبارة الشائعة : « مجرد ربة بيت » ، هي أكثر ترددا بينهن منها بين نظيراتهن من الطبقة العاملة .

وقد يبدو في النتائج السابقة شيئا من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول اذا ما ادركنا أن المؤلفة تفرق بين المشاعر نحو

على رأس الصفات الإيجابية ، اما العمل المنزلي ذاته فكان في مقدمة السلبيات التي ذكرناها . وقد عرفنا العمل المنزلي بأنه عمل « حقيقي وشبالي » ، وهي صفات أكدنها ليجابهن بها تلك الافكار النمطية الخاطئة السائدة في ثقافتهم ، والتي تخلع على العمل المنزلي مكانة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث أيضا أنه بينما تتناول تلك الافكار النمطية الخاطئة الشائعة في الثقافة ، العمل المنزلي كنشاط منفرد ، فان ربات البيوت ينظرن اليه على أنه عمل رئيسي يتضمن اعمالا وانشطة فرعية منفصلة . وظهر من البحث أن مشاعر الرضا وعدم الرضا عن مختلف الاعمال المنزلية تتأثر كثيرا بالظروف التي تتم فيها هذه الاعمال والتي تتعلق بمدى توفر الاجهزة والادوات الميسرة والمخفضة .

وفي نهاية هذا الفصل يمكن القول بأن الصورة التي رسمتها المؤلفة للعمل المنزلي ولربات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التي أسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعنهن في الثقافة ، والتي تذهب الى أن ربات البيوت يشكلن طبقة مرفهة ، وأنهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

**اما الفصل الرابع ،** فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والاعمال المنزلية ومدى الرضا أو عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلي في هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم في علم الاجتماع الصناعي ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الإيجابية أو السلبية التي تتناول بها ربات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على أساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدي ، وقد بررت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدي بأنه أكثر ملائمة

اختلافات عديدة بين ربوات البيوت في عينة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهم تضع لنفسها معايير صارمة في أداء العمل المنزلي ، حتى انه يمكن تصنيفها باثولوجيا ضمن الحوازيات، بينما لا تتبع اخريات أسلوبا أو نظاما معيناً في أدائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف هامة ، أولها أنها وسيلة لتوحيد أعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلي في بناء وظيفي متماسك ، وثانيها أنها دليل على أن العمل المنزلي عمل له معايير وروتينه مثل أى عمل آخر ، وهذا في ذاته دفاع ضد من يقول أن المرأة في المنزل لا تفعل شيء ، وثالثها أن في تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لجال العمل المنزلي ، وبخاصة أمام ربة البيت المتفرغة التي لا تعمل خارج منزلها، وأخيرا ان ربة البيت بذلك التحديد انما تضع ميكانيزما تستطيع أن تكافئ نفسها عن طريقه في انجاز العمل المنزلي . وتأخذ المكافأة السيكلوجية التي تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير أداء العمل المنزلي ، وروتينه المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من أنها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كعامة . وتلعب وسائل الاعلام أيضا دورا في تحديد معايير العمل المنزلي ، كما تسهم في ذلك الى حد كبير، التنشئة الاجتماعية المنزلية السابقة لربة البيت واعدادها للعمل المنزلي .

#### وتخصص المؤلفة الفصل السابع للعلاقة

بين التنشئة الاجتماعية لربة البيت وبين صورتها عن ذاتها . وفيه تبين أن العمل المنزلي، مثله في ذلك مثل أى عمل ، لا بد أن تسبقه فترة تدريب مهني أو تلمذة وظيفية . ولكن الاعداد الأثوى للدور المنزلي ، يختلف عن الأعمال الأخرى في أنه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر اليه على أنه تلمذة وظيفية .

العمل المنزلي ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما أحست المرأة بإيجابية وتقبل لدور ربة البيت ، ولكنها في الوقت نفسه تكره العمل المنزلي ، كما أن عكس ذلك النموذج يمكن تواجده أيضا ، فالمشاعر تجاه العمل المنزلي يتدخل فيها التعود على أداء هذه الأعمال والخبرة بها ، اما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسألة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التي تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الأنثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المرأة نحو دور ربة البيت في الطبقة العاملة عنها في الطبقة المتوسطة، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلي .

#### وفي الفصل الخامس تناقش المؤلفة

ظروف العمل المنزلي ، وتتناول فيه الفترات التي يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التي يتم فيها . وقد تبين منه أن متوسط عدد ساعات العمل المنزلي لربوات البيوت في هذا البحث كان سبعا وسبعين ساعة اسبوعيا، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الأسبوعية للعامل الصناعي والذي يقدر بأربعين ساعة في المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الأجهزة والادوات المناسبة في العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلي لكنه لا يحوله من عمل بغيض الى عمل سار محبوب . كما ظهر أن بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل أيضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

#### وفي الفصل السادس تلقى المؤلفة الضوء

على المعايير المتعلقة بالعمل المنزلي والتي على أساسها تتبع ربة البيت أسلوبا معيناً أو روتيناً معيناً في أدائه . وقد كانت هناك

الآخرين طوال الوقت - اننى أعشق الخروج  
- اننى مسيطرة - اننى حاملة - اننى قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فانانسوق اجابة  
أخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة  
العاملة تكشف عن صورتها لذاتها :

« اننى ربة بيت جيدة - اننى أجيد  
معاملة أبنائى - اننى أجيد العمل المنزلى  
- اننى أجيد معاملة زوجى - اننى أجيد  
الفسيل - اننى أشعر بالسأم أحيانا - اننى  
أشعر بالفضب أحيانا - اننى شديدة السعادة  
بعملى - اننى سعيدة بأولادى - نادرا ما  
أكون تعيسة . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة  
أخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر  
وتؤيدها ، وهي أن صورة المرأة من الطبقة  
العاملة عن نفسها يتضح فيها بشدة توحدها  
بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلى،  
بينما تظهر قدرة المرأة من الطبقة الوسطى  
على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور  
الشخصية وسماتها .

#### وفي الفصل الثامن تبحث المؤلفة موضوع

الزواج ، وتقسم العمل بين الزوجين من  
وجهة نظر بعض المتخصصين في علم الاجتماع  
الأسرى ، كما تتعرض المؤلفة في هذا الفصل  
الى وصف تقسيم العمل المنزلى بين الزوجين  
وتحليله كما تبحث معتقدات ربوات البيوت  
من أفراد العينة حول الادوار الذكرية  
والانثوية .

وقد أجريت الاستبارات مع الزوجات  
فقط ، ولم تشمل الأزواج ، وقد طلب منهم  
تقييم مدى اشتراك أزواجهن معهم في العمل

والسبب الرئيسى في ذلك هو أن اعداد المرأة  
لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها  
الانثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث  
عن أن جميع أفراد العينة قد قرروا انهن على  
وعى بوجود صلة وثيقة بين طرقيهن في أداء  
العمل المنزلى وبين الطرائق التى كانت أمهاتهن  
يستخدمنها لأداء العمل نفسه . وفى هذا  
تقول إحدى أفراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التى كانت تتبعها  
امى فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت  
تفعل كل ما ينبغى عمله ، ولم يكن هناك من  
يستطيع أن يتجول بعينيه في المنزل ليقول  
أن هذا العمل أو ذاك ينقصه شيء .. اننى  
دائما أحاول أن اتمثل بها . . »

ومن النتائج الهامة في هذا الصدد ،  
أن هناك فروقا طبقية بين ربوات البيوت فيما  
يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل  
لدى اللائى ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى  
الى ذكر أحد دورى الزوجة ، والام أو كليهما،  
دون الإشارة الى دور ربة البيت في صورتهم  
لذاتهم . كما وجد ميل لديهن أيضا الى رؤية  
أنفسهن من خلال أدوار أخرى غير منزلية ،  
كالادوار الدينية أو السياسية ... الخ . اما  
ربوات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن  
الى اختصار دورى الزوجة والام تحت كلمة  
« ربة بيت » ، وذلك في وصفهن لذواتهن .  
وفيما يلي اجابة إحدى ربوات البيوت من  
الطبقة الوسطى على اختبار العشرجمل ،الذى  
يكشف عن تصور الذات ..

« اننى متقلبة - اننى أعمل بجهد - اننى  
أتكلم كثيرا - اننى سعيدة معظم الوقت -  
اننى امرأة راضية - اننى احتاج وجود



في هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الأخرى ، كما أنه ينظف النوافذ بانتظام ، ويقوم بتجفيف الاطباق ، وهو يعينني على الانتهاء من عمل المنزل لانه يحب أن نجلس معا سويا بعد الظهر ، وهو يكوئى ملابسه أيضا . وعندما نكون في المنزل معا فانه يشاركني في رعاية الطفل ، فهو يحمله في المساء ويفر له لفائفه ، وفي يوم العطلة يصحو له مبكرا في الصباح كي يعطيني الفرصة لانام بضعة ساعات . »

وهذه صورة أخرى لزوج حصل على تقدير منخفض في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الاطفال ، تقول زوجته :

« انه لايساعدني أبدا في الاعمال المنزلية ، ولا في شراء لوازم المنزل ، ولا في الطهي ، انه يقول دائما : اننى اعمل طوال اليوم ، وعندما اعود الى المنزل اكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك في رعاية ابنائه أبدا . انه يحب الاطفال ، ولكنه لا يراهم . فقد كان على أن أؤدى واجب العزاء منذ يومين ، ولكنه لم يدعى اذهب لانه قال لى : انا غير مستعد لان ارعى الاطفال الى حين عودتك . لذلك فانه اذا كان على أن اذهب لأى مكان لقضاء أحد شئونى فلا بد أن تكون « ماري » اكبر بناتى بالمنزل . اننى أقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع ابنائه لحين عودتى ، لا لانه يكره الاطفال ، بل لانه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه عن والده ودائما ما يردد كلمته الماثورة : اننى لا يمكن أن أقبل أن تدلنى امرأة على ما ينبغى فعله . »

أما من حيث تحليل معتقدات ربوات البيوت التى تدور حول الادوار الذكرية والادوار الانثوية فقد ثبت من البحث أن معظمهن يذهبن الى أن مكان الرجل ليس في

المنزلى وفي رعاية الابناء على السواء بثلاثة محركات تتراوح بين عال ، ومتوسط ، ومنخفض ، وقد أفصحت اجابات الاستبانات عن ثلاث نتائج هامة :

١ - أن قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الأزواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال في المشاركة في العمل المنزلى بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته في المشاركة في رعاية الاطفال .

٢ - اختلفت نماذج مشاركة الأزواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة في العينة ، أكثر انخفاضا من اشتراك الأزواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلى ورعاية الاطفال .

٣ - كان هناك ميل أكثر من قبل الأزواج للمشاركة في رعاية الاطفال منه في العمل المنزلى .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال في المشاركة في كل من العمل المنزلى ، ورعاية الاطفال نلتقى هذه الصورة لزوج يعمل في تجارة الملبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل أن ترزق بطفلها :

« اننى أساعده في عمله ، فاطبع له اوراقه ، وأضيف بعض فقرات اذا لزم الامر . كما انه يساعدنى في عملى أيضا . انه طاه ممتاز ، وهو لا يمانع في أن يأتى في نهاية اليوم ليطهى وجبة . وفي الاسبوع الماضى مثلا قام بطهى ثلاث وجبات . واذا حدث أن كنت اقوم بتنظيف حجرة بالمكنسة الكهربائية واقبل هو

البيت ، حتى وان كن يجبلن مشاركة الرجل لهن في الاعمال المنزلية مشاركة اكثر . وبالمثل فان من كانت تريد منهن أن تسهم بقدر أقل في العمل المنزلي فانها كانت تجسبه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة عن المعيار القائل بأن المرأة تنتمي الى مملكة العمل المنزلي ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث ايضا انه خلال دورة الزواج تكون هناك فترات تتسم بالمشاركة اكثر من غيرها . فحين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجة مشاركة الأزواج لهن في الاعمال المنزلية ، وفي رعاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث أخرى كبحث «هوفمان» Hoffman الشهير عن النساء العاملات وتأثير عملهن على الاسرة ، ولكن ذلك لا يعني ان آراء الزوجين متحررة او منادية بالمساواة ذلك لانه عندما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج في مساعدتها تقل ، ويعكس تقسيم العمل بينهما عندئذ نمودجا تقليديا واضحا . ويدل ذلك على أن معتقدات الزوجين الاصلية عن الادوار الذكورية والانثوية لم تتغير .

### وتعالج الكاتبة في الفصل التاسع والآخر

تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتباط بالعمل المنزلي . فمعظم ربوات البيوت من الامهات ، وكل الامهات ربوات بيوت . وقد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة، أن الاطفال يؤثرون في مدى الاستمتاع بالعمل المنزلي، لانهم يجعلون ساعات العمل الاسبوعية اطول ، كما انهم كثيرا ما يظهرون كموامل محببة لربة البيت كعامل منزلية . فدائما ما يقطعون عليها عملها ، ودائما ما تجد نفسها وسط اعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية

ابنائها في الوقت نفسه . ويزيد رضاء ربة البيت عن عملها المنزلي كلما ساعدها زوجها في أن يحمل عنها بعض العبء في تربية الاطفال لانه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن أداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

وتلقى الكاتبة الضوء على دورى الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة عن الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ، ولاينجم هذا التناقض فقط عن أن الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا عن حاجتهم لأن تطعمهم الام ، أو تلعب معهم ، اثناء اعدادها الطعام أو تنظيفها للحجرات ، بل أن هناك تناقضا أساسيا يكمن في طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فتربية الاطفال عمل منتج ومثمر Productive ، بينما لاينطبق ذلك على العمل المنزلي . فالعمل المنزلي عمل له أهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينظف اليوم ، وتعاد نظافته في الغد ، وهكذا لمدة سنوات قد تربو على الثلاثين أو الاربعين . اما الامومة فان لها هدفا وحيدا بعيد المدى ، فالام تربي الابناء حتى يعتمدوا على أنفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان أحد المحكات الأساسية في اختيار العينة أن يكون لدى كل امرأة طفل على الأقل في سن ما قبل المدرسة .

وتنظر الكثير من الزوجات الى دورهن كربات بيوت ، ومربيات اطفال على انهما وجهان لعملة واحدة ، وغالبا ما يعتبرن تربية الطفل ، وتنظيف ملابسه ، وتربيتها ، جزءا من العمل المنزلي ، كما أن المعايير التي يضعنها لانفسهن والمتعلقة بالعمل المنزلي ، غالبا ما تنسحب على تربيتن لاطفالهن ، واهمها

بعمامة . وتطرح عدة أسئلة أهمها : ما هو مدى وعى ربات البيوت - او مدى الوعي الذي ينبغى أن يكن عليه - بموقفهن كنساء ، وهل ينظرن الى أنفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المرأة صدى بينهن ؟ والى أى مدى نجحت حركة التحرير هذه في توصيل ايديولوجيتها وأفكارها اليهن ؟ وما هي انسب الوسائل ، وانجع الطرق لتحرير ربة البيت ؟ .

وتجيب الباحثة عن هذه الاسئلة اجابة مركزة فتقول : ان انتماء معظم النساء للدور التقليدية لربة البيت والزوجة والام ، لا يمكن أن يعالج فقط بالنظر لمواقعهن من بناء اجتماعى واقتصادي معين ، بل يجب أن تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التي تستطيع بها النساء أن يتوحدن مع قهرهن . بمعنى آخر ان الابنية والنظم التي تضطهد المرأة ، لا يمكن أن تتغير ما لم يوجد وعي مسبق لدى المرأة لأهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المرأة .



### ثانيا - تقييم ونقد :

نجحت المؤلفة في ايضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلي ، وفي تحليلها له كعمل يماثل غيره من الاعمال ، كما انها اظهرت زيف تلك الاسطورة السائدة في الثقافة الانجليزية ، وفي ثقافات اخرى كثيرة ، والخاصة بسلبية العمل المنزلي ، وسهولته ، وطبيعته بالنسبة للمرأة والتي تتضح من أسئلة توجه الى النساء في عالمنا المعاصر مثل : هل ستمعلن ؟ أم ستمتقين في المنزل ؟ وكان البقاء في المنزل لا يتضمن عملا . (٢)

معايير النظافة والترتيب . وتعد هذه المائلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة في النظر الى المرأة ، والتي تذهب الى أن دور ربة البيت يشمل ادوار المرأة ، والزوجة ، والام ونادرا ما تفرق بين هذه الادوار ، أو تذكرها منفصلة .

وتنتهى الباحثة في هذا الفصل الى نتائج هامة استقتها من بيانات بحثها ، وهي أن الام المعاصرة تؤدي دورها في سياق اجتماعي لا يبعث على الرضا . ومنشأ عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسؤولية المستمرة ، كما وجدت أن الام كعامل منزلية تواجه صراعا بين المطالب المختلفة للعمل المنزلي بحيث يعد الطفل أحيانا وسط خضم هذه المطالب عائقا في سبيل الرضا عن العمل المنزلي ، أما بالنسبة للطفل فيعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل المنزلي شيئا محبطا له والام . وعلى الرغم من أن الرجل يحاول أحيانا أن يعالج تلك المشكلة بالتدخل في رعاية الاطفال ، فان تدخله يكون غالبا محدودا بأنشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الاطفال للنزهة أو وضعهم في الفراش ، لكنه يحجم عن الاشتراك في أنشطة أخرى لها مظاهر أكثر روتينية ، وأقل متعة في تربية الاطفال ورعايتهم . وهذا التوسع في دور الأب يعطى الام الفرصة لاداء بعض الاعمال المنزلية ، وترتيباً على ذلك فانه يعطيها مزيدا من الاحساس بالرضا عن العمل المنزلي .

وفي الخاتمة تركز المؤلفة على تلخيص أهم نتائج بحثها . وتكرس الجزء الاخير منها لمناقشة مسألة مركز ربة البيت في المجتمع

( ٢ ) هناك عبارات تشير الى ذلك في الثقافات المختلفة ، ففي الثقافة الاوروبية تجيب المرأة اذا سئلت عن هويتها ( مجرد ربة بيت Just a House wife ) وفي الثقافة المصرية تجيب ( مجرد ست بيت ) وتشير عبارات مصرية مثل ( فلانة مش بتشتغل ، دي قاعمة في البيت .. الخ ) الى ان البقاء في المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وعبرة « فلانة بتشتغل وجوزها قاعمة في البيت » تشير ايضا الى ان البقاء في البيت راحة ، بعكس العمل الذي لا يكون الا خارجه .

كان يصبح اكثر احياء ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

ان كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلي، لابد أن يتضمن موضوعات سوسيولوجية متخصصة من بينها : تصنيف الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التي يجرى في اطارها العمل المنزلي في ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة تكنولوجيا ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيث طبيعة العمل المنزلي في كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل في تأثيرها في نماذج شخصيات أطفالها وسلوكهم فهي المنشئة الاساسية لهم ، بل أن مركزها المحوري في الاسرة يمكن أن يؤثر في صحة افرادها ومرضهم على السواء . كما لابد أن يحتوى مثل هذا الكتاب على دراسة التفاعل الاجتماعي لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلي كعمل يجعلها تتفاعل مع زوجها وأبنائها وجيرانها وأقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والبائعين سواء من يذهبون اليها في المنزل ، أو من تذهب هي اليهم ، وتفاعلها مع الدولة والاسعار عن طريق وضعها لميزانية الاسرة ، وتحديد لها لمواصفات السلع المتوقعة على مدى اقبالها أو أحجامها عن شراء سلع معينة . وكذلك في اتخاذ القرارات اليومية المتعلقة بنماذج الاستهلاك والموضات ، والشئون العامة ، وأهمية النظر الى مطالبها التكنولوجية وكل ذلك يدخل في اطار علم الاجتماع الاسرى وعلم الاجتماع الاقتصادي .

كما أن كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلي لابد أن يشمل توضيحا للصلة بين

وكان تعمق المؤلف في تحليل صور ربات البيوت عن أنفسهن ، وعن اتجاهاتهن نحو العمل المنزلي وما يتضمنه من أعمال فرعية مختلفة ، ومدى شعورهن بالرضا أو عدم الرضا عن عملهن ، ونفاذها الى طبيعة العمل المنزلي نفسه ، بما يستفرقه من وقت وما يتفرع اليه من أعمال ، والكشف عن المعايير التي تحكم انجازها ، كل ذلك كان عملا جديرا بالاعجاب ، كما وفقت الكاتبة في عرض افكارها فجاءت فصول الكتاب منطقية مرتبطة ، يسلم كل فصل منها الى مابعده في سلاسة ووضوح .

لكنني بالتعمق في دراسة محتويات هذا الكتاب لا أجد مبرراً لهذا العنوان البارز الذي اتخذته وهو ( سوسيولوجيا العمل المنزلي ) فقد كان الكتاب فيما عدا الفصل الاول منه ، واجزاء يسيرة من الفصل الثالث والسابع والثامن ، سيكولوجي النزعة قلبا وقالبا . فهو يلقي الضوء كله على مسألة الرضا أو عدم الرضا عن العمل المنزلي ، ويحلل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكولوجية بحثة وذلك بالكشف عن صورة الذات ، وأحيانا يفرق في تحليلها بمنظور علم النفس التحليلي فيأتي ذكر ( فرويد ) في عدة صفحات من الكتاب . اما تحديد الباحثة للطبقة على أساس تقليدي وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقيا مع اتجاهها التجديدي ، كما أنه لم يكن واضح الدلالات في ثنايا الكتاب . ولا يشفع لها في ذلك ما بررت به موقفها ، من أن ذلك التحديد كان أكثر ملاءمة في المقارنة بين نتائج بحثها ونتائج بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة أنني أرى أن استبدال عنوان هذا الكتاب بـ ( سيكولوجية العمل المنزلي )

( ٤ ) ربما كان السبب في تلك النزعة السيكولوجية التي لونت الكتاب هو أن المؤلفة قد أخذت أفكار هذا الكتاب وموضوعاته من رسالتها للدكتوراه التي قدمتها سنة ١٩٧٤ ، وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان ينبئ عن منظور سيكولوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished PH.D thesis. University of London, 1974.

بامرأة جاهرته بأنها لا تحب العمل المنزلي ولا تجيده . كما أن مفهوم العمل المنزلي نفسه لابد وأن يدرس في أطره الاقتصادية المختلفة ، فهو في المجتمع الزراعي الريفي غير في المجتمع الصناعي الحضري ، غيره في مجتمع الرعي (٦) وهكذا .

العمل المنزلي ، وبين اختيار الشريكة في الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لأسباب من بينها أنها تجيد الطهي ، أو أنها قدمت إليه أكلة مفضلة بطريقة مشوقة ، أو لأنها ممتازة في العمل المنزلي أو « شغل البيت » كما تشيع الإشارة إليه في لغتنا الدارجة (٥) وكم من رجل اعرض عن الزواج

( ٥ ) انظر في ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثة مصرية عن الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وقارنت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم « اما المهارة في اداء أعمال المنزل ( الشطارة في شغل البيت ) فقد اتى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عند اختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الإباء الحضريين والريفيين على السواء ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هذا الترتيب بلغ حد التطابق .

وقد كانت المهارة في أعمال المنزل ، امرا هاما وجوهريا في اختيار زوجة المستقبل في المجموعات الثلاث المكونة لعينة الإبناء ، وهي المجموعة الحضرية ، والمجموعة الريفي - حضرية ، ومجموعة القراء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الإبناء ، لم يقرر ابدا في اجابته بأنه لا يرغب في توافر هذه الصفة في زوجة المستقبل .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، دار النجاشي بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٢ .

( ٦ ) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيه تقول الباحثة :

« رأينا أن أغلبية افراد عينة الإبناء في مجموعاتها الثلاث يرغبون بلا استثناء في أن تكون زوجة المستقبل ربة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هذا مفهوم نسبي ، لذلك رأينا أن نتعرف على أهم مقاصده الشائعة في عرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت أهم الاجابات الشائعة ما يلي :

( ١ ) تهتم بشئون المنزل .

( ٢ ) تجيد الطبخ .

( ٣ ) مدبرة .

( ٤ ) توازن بين عملها ومستولياتها المنزلية .

( ٥ ) توائم بين واجبها كزوجة وام .

( ٦ ) تجيد المعجن والخبز والحلب ، وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني أكثر تواترا في اجابات مجموعة القراء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان أكثر شيوعا في اجابات الطلبة الحضريين ، تليهم فئة الطلبة الريفي - حضريين ، ولعل ذلك يتفق مع تحييد هاتين المجموعتين الظاهر لاشتغال المرأة خارج المنزل واعتبار ذلك قضية مسلم بها .

اما السبب السادس والاخير فاقصر على فئة القراء الريفيين ولعلنا نلاحظ ان مفهوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب دواية بامور كثيرة ومتشابهة . ولا غرابة في ذلك فالمهارة ( او شطارة البنت ) كما يقول الريفيون ، من أولى الصفات التي ترفع قيمة الخطيبة وتحدث عنها النساء في القرية اذ يقلن « ان بنت فلان ، نار وشرار » ، وقلبيها حامي « أي انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا للأعمال المنزلية في الثقافة الريفية في وثائقها الحضرية في :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين في الأسرة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

من لا تتمتع بعلاقات جيدة مع زوجها ، أو لا تتمتع بتقدير زوجها أو أبنائها لعملها فسوف لا تستشعر بدوافع الإبداع في عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل أصدقائها وأقاربها .

وفي النهاية كان لابد وان يتضمن كتاب عن سوسيولوجيا العمل المنزلي تحليلا وافيا لديناميات العمل المنزلي ، ودراسة لمدى مشاركة آخرين غير الزوج والأبناء لربة البيت في العمل المنزلي وأنماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التي تحدث بين ربة البيت وجيرانها أو صديقاتها ، كان يتبادلن المشاركة في أعمال منزلية معينة كطهي أطباق معروفة وشائعة في أوقات معينة كالإعياد مثلا ، أو كأعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، أو مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما أن هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد في العمل المنزلي قد يمتد دورهم أحيانا ليشمل رعاية الأطفال أيضا ، أو أداء العمل المنزلي برمته وفي ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت في أسرتها وفي عملها الخارجى ان كانت تعمل .

وقد اهتمت المؤلفة كثيرا بالجزاء الدائى السيكولوجى الذى تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وتمسكها بالمعايير التى حددتها ، والروتين الذى وضعتة لنفسها . ولكنها نسيت أو تناست إبعادا اجتماعية غاية فى الأهمية ، وتشمل الجزاءات الاجتماعية التى تحصل عليه من خلال تعليقات زوجها ، وأبنائها ، وجيرانها ، أو صديقاتها ، أو من مقارنة عملها بالأعمال المنزلية التى تصورها وتبرزها وسائل الاعلام المختلفة من إذاعة وصحافة وتليفزيون وسينما . ان ربة البيت حين تعمل فأنها لا تعمل فى فراغ وإنما تعمل وهي تضع فى ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها وأولادها وانتهاء بمعارفها ، فى مدى اقبالها على العمل المنزلي وتقبلها له ، أو اعراضها ونفورها منه . فالزوجة المحبة لزوجها ، والتى تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر فى زوجها أثناء عملها المنزلي ، وتضع نصب عينيها أن تدخل السرور على قلبه حين يعود وان تنجز عملها على وجه يرضاه وترتضيه هي لاسعاده ، كما أن ثناءه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها أكثر رضا واقبالا على عملها المنزلي ، ويصدق ذلك أيضا على أبنائها وأصدقائها وجيرانها . اما



(٧) يشيع في القرية المصرية ، ان تتبادل ربات البيوت الريفيات ، المساعدة في الاعمال المنزلية لامداد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من طحن وحن وخبز ، وان يتبادلن المساعدة في الاعمال المنزلية في الأعياد والمواسم وبخاصة في العيد الصغير اثناء قيامهن بعمل الكحك وياخذن ذلك شكل تجمعات متفاعلة تتشابه فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

### من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

---

- Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.
- Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.
- Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.
- Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.
- McIntosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.



**العدد التالي من المجلة**

**العدد الرابع – المجلد الثامن**

يناير فبراير مارس ١٩٧٨

قسم خاص عن :

آفاق المعرفة

بالإضافة الى الابواب الثابتة



الخليج العربي	٥	رأبوت	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	رأبوت	المتاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤,٥	رأبوت	مسقط	٤٠٠	باب
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	ملياً
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	درهم

**الاشتراكات :**

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت